
أبراهيم أيوب
التاريخ الفاطمي السياسي
الشركة العالمية للكتاب

التاريخ الفاطمي السياسي

التاريخ الفاطمي السياسي

صف وإخراج وتنفيذ قسم الكمبيوتر في الشركة العالمية للكتاب

الغلاف: ندى ابي زيد

طبع في لبنان

رزق الله أيوب، ابراهيم

التاريخ الفاطمي السياسي، ابراهيم رزق الله أيوب. الطبعة الأولى

ISBN 1-55206-055-1

دكتور
أبراهيم رزق الله أيوب
استاذ مساعد في التاريخ
الجامعة اللبنانية

التاريخ الفاطمي السياسي

الشركة العالمية للكتاب

المحتوى

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

مقدمة

كثيرة هي الدراسات التي عنيت بتاريخ الدولة الفاطمية، وفي معظمها، ركّزت على ناحية معيّنة لاظهار معالمها الدينية، أو السياسية، أو الادبية، وأحيانا الفنيّة.

لهذا كانت لي هذه الدراسة، التي شئت، فيها، تعيين ماهية النظم السياسية، والادارية، والمالية، والقضائية باسلوب علمي رصين. فحاولت ان أبرز حقائق الماضي، لأبيّن اهميته في توضيح الحاضر، وأوجه حقائقه الى خير الانسانية لا الى شرّها، لان تحرّي الحقيقة الماضية لا يهم المرء في شيء اذا لم نربطها بالحاضر ومنطق الحياة. ومن هذا المنطلق سأربط بين تثبيت دعائم حكم الفاطميين في المغرب، وانتقالهم الى مصر بتمهيد بسيط أبيّن فيه كيفية انتقال مركز الخلافة الفاطمية من المغرب الى القاهرة.

لقد قسّمت دراستي الى ثلاثة أقسام:

شمل القسم الاول: الدعوة، ونشأة الدولة الفاطمية في المغرب، ثم انتقالها الى مصر.

وشمل القسم الثاني: بناء مدينة القاهرة عاصمة الخلافة، وبناء الفسطاط، والجزيرة (الروضة) والجيزة، منذ التأسيس حتى اتصلت هذه الاقسام بعضها ببعض، مكوّنة مدينة واحدة.

كما شمل القسم الثالث: النظام السياسي اي الخلافة والوزارة، والعلاقة القائمة بينهما، وأثر قوة الخلافة الفاطمية على الوزارة، وابعاد ضعفها على الحكم الفاطمي كله.

وأوضحت في النظام الاداري التقسيمات الادارية الفاطمية، والدواوين التي كانت موجودة، مع ملاحظاتي وتعليقاتي عليها وعلى سائر الوظائف.

كما تطرّقت في النظام المالي الى طرق الجباية والانفاق عند الفاطميين

معيّبا اعتبار أموال الدولة العامة، وأموال الخليفة الخاصة واحدة، وما رافق ذلك من مصادرات.

وأخيرا بيّنت التزام القضاة وجوب اصدار احكامهم بموجب شرائع المذهب الشيعي في الدور السياسي الاول للدولة الفاطمية، بينما توصّل قضاة الدور السياسي الثاني الى اصدار احكامهم بموجب مذاهب السنة: المالكي والشافعي. علما بأن اهل الذمة خضعوا في جميع الدعاوى الى احكام المذهب الشيعي. ثمة ملاحظة أخيرة أشرت اليها، كانت حول تضارب صلاحيات قاضي القضاة في كثير من الاوقات عند الحديث عن المحتسب.

في ١٥ كانون أول/دسمبر ١٩٩٥

د. ابراهيم رزق الله أيوب

القسم الأول

الفصل الاول: الدعوة الفاطمية

الفصل الثاني: قيام الدولة الفاطمية في المغرب

الفصل الثالث: انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر

الفصل الأول

الدعوة الفاطمية

الفاطمية والفاطميون:

الفاطمية فرقة من فرق الشيعة، اشتهرت بالاسماعيلية نسبة الى الامام «اسماعيل» بن جعفر الصادق. يؤمن الفاطميون بنبوّة محمد (صل) ووصاية عليّ بن أبي طالب، وامامة ابنه الحسن، فالحسين، فزين العابدين، فمحمد الباقر، فجعفر الصادق، فاسماعيل[1]، فابنه محمد بن اسماعيل، فأئمة دور الستر اي: عبدالله بن محمد، فأحمد بن عبدالله، فالحسين بن أحمد[2]، فأئمة الظهور وأوّلهم، عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب.

لكن الفاطميين لم يشاطروا الغلاة من الشيعة الايمان بألوهية عليا والائمة من ذريته، وقالوا: انهم احياء يرزقون، انما ينظرون الى أئمتهم على أنهم من البشر، يحيون ويموتون كسائر البشر. ويخالف الفاطميون أيضا الشيعة الاثنا عشرية الذين يؤمنون بغيبة الامام محمد المهدي بن

---

(١) انقسمت الشيعة بعد الامام جعفر الصادق الى فرقتين:

- الاثنا عشرية التي تقول: ان الامام جعفر الصادق نص على ولده الثاني موسى الكاظم بالامامة لوفاة وليّ عهده اسماعيل قبل والده سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٤م، فعرفوا بالاثنا عشرية لان امامهم الثاني عشر محمد المهدي الذي اختفى في مدينة شامراء بعد موت أبيه هو لا يزال حياً.
- والاسماعيلية تقول: ان الامامة لا تنتقل من أخ الى آخ آخر، وان الامام جعفر الصادق كان قد نص على امامة ولده اسماعيل قبل وفاته.

(٢) اختلف المؤرخون في هؤلاء الأئمة المستورين، حتى قال بعضهم ان عبد الله بن محمد هو عبد الله بن ميمون القداح نفسه الذي ينسب اليه هؤلاء اصل الفاطميين.

الحسن العسكري الباقي حيّا حتى يعود ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا.

وتنتقل الامامة عند الفاطميين من الآباء الى الأبناء، ولا تنتقل من أخ الى أخ آخر باستثناء الحسن والحسين ابني الامام عليّ بن أبي طالب. فالاب ينص على ابنه في حياته. وهذا الايمان أصل من أصول المذهب الفاطمي في تسلسل الامامة عندهم، وان الله سبحانه وتعالى لا يترك العالم بدون امام ظاهر مكشوف او باطن مستور تنتقل الامامة اليه بعد أبيه الامام من نسل عليّ بن أبي طالب، وان الامام هو حجة الله على عباده، وهاديهم الى الطريق القويم. ويجب على كل مؤمن ان يتبع هذا الامام ويعتقد بولايته التي تنتقل من الاب الى الابن، لان الولاية هي الاصل الذي يدور عليه موضوع الفرائض[1].

أصل الفاطميين:

اختلف المؤرخون في أمر نسب الفاطميين الى فاطمة الزهراء وعليّ بن أبي طالب، حتى أنهم لم يتفقوا فيه على رأي الى الآن، لأن الاجماع على صحة نسبهم يحتاج الى أدلّة لاثباته، ومن الصعب الحصول على الادلة. لذلك اعتمدنا الاختصار ما أمكن عن أصل الفاطميين الى حين الحصول على نصوص يمكن الوثوق بها.

فبرأيهم، ينتسبون الى أول مَنْ وُلّيَ الخلافة منهم، أي المهدي أبي محمد عبيدالله بن عبدالله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب. يؤيد هذا النسب جميع

---

(١) لمعرفة أوسع التفاصيل عن عقائد الفاطميين راجع: حسين، محمد كامل، في أدب مصر الفاطمية ٢١ ـ ٣٧، منشورات دار الفكر العربي ١٩٧٠م.

الذين قالوا بامامته. كما شهد بصحته الشاعر الشريف الرضي[1]، وشكّك في نسبه جماعة فجعلوه يهوديا[2].

وقد كُتِبَ في عهد القادر بالله العباسي (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٧٤ ـ ١٠٣١م) محضر يتضمّن الطعن في نسب عبيدالله (المهدي)، ونسب اولاده الى الامام علي غير صحيح[3]. ومِمّنْ وقّع محضر الطعن الشريفان الرضى والمرتضى وأبو حامد الاسفرايني والقدوري مستندين الى أقوال الناس في بغداد مِمّن يخافون من بني علي بن أبي طالب، او بسبب الترهيب والترغيب، لذلك بقي هذا المحضر مبعث شك وتساؤل الكثيرين.

الدعوة الفاطمية:

قام عبدالله[4] بن ميمون بن ديصان[5] بعد أن أخذ عن أبيه ضروب الحيل، وتعلّم جميع أسرار الدعوة وأتقنها، بزرع بذور الدعوة الفاطمية،

---

(١) ابن الاثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، ٦/ ١٢٤. منشورات دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٣م. والمقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٣٤٨/١، دار صادر، بيروت.
ويقول المقريزي: ان عبيد الله هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الاهوازي، وعندما أخرج أبو عبد الله الشيعي من سجنه تسمى حينئذٍ بـ «عبيد الله».

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ١٢٥ و١٢٨. والمقريزي، الخطط: ٣٤٨/١. وفيها: أن عبيد الله من اليهود، لان الحسين بن أحمد تزوج من امرأة يهودية من نساء سلميّة كان لها ابن من يهودي حداد مات وتركه لها، فربّاه الحسين وأدّبه وعلّمه، ان الحسين هذا قد مات ولم ينجب ولدا فعهد الى ابن امرأته هذا، فكان هو «عبيد الله المهدي» فيما بعد.

(٣) ابن الاثير الكامل في التاريخ ١٢٨/١ المقريزي، الخطط: ٣٤٩/١

(٤) كان «عبد الله» يلقّب بالقادح لانه عمل في مداواة العيون وقدحها، ابن الاثير الكامل في التاريخ ٦/ ١٢٦).

(٥) ميمون بن ديصان (ابو شاكر) هو صاحب كتاب «الميزان في نصرة الزندقة»، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٢٦.

بنواحي «كرخ» و«أصبهان» من أعمال بلاد فارس، بمساعدة محمد بن الحسين الملقّب بـ «دندان» ـ الوالي على تلك النواحي ـ وتم ذلك بتوجيه الدعاة الى «الأهواز» و«البصرة» و«الكوفة» و«طالقان» و«خراسان» و«سلمية» قرب «حمص». وأشار عبدالله المذكور على الدعاة أن لا يظهروا ما في أنفسهم انما يكتموه، ويظهروا الزهد والتشيّع، والطعن على الصحابة، ليكون ذلك مدخلا في ما بعد الى الدعوة الفاطمية.

تسلّم الدعوة، بعد وفاة عبدالله القداح، ابنه «أحمد» الذي كان يساعده رجل يدعى «رستم بن الحسين بن حوشب بن داذان النجار» من أهل «الكوفة» الذين كانا يقصدان المشاهد لنشر الدعوة بين زائريها. فعند مشهد «الحسين بن عليّ» التقيا برجل غني من أجل اليمن يدعى «محمد بن الفضل» جاء يتشيّع الى مشهد «الحسين»، وقد بدا عليه تأثره وبكاءه في اثناء الزيارة. فاجتمع احمد بن عبدالله باليمني هناك، وعرض عليه مذهبه فقبله. وعند عودة الاخير الى اليمن أرسل معه رستم بن حوشب مزوّدا بتعليمات متشّددة في لزوم العبادة والزهد، ودعوة الناس الى المهدي الذي سيظهر في ذلك الزمان. وفي اليمن اجتمع الى رستم بن حوشب جمع غفير ممّن قبلوا الدعوة، وجمع من الغنائم والاموال الشيء الكثير، الأمر الذي مكّنه من ارسال الهدايا الى أولاد عبدالله القداح الذين بالكوفة.

وفي الوقت عينه كان أحمد قد أرسل بِرسولَين: يعرف الاول بـ«الحلواني»، والثاني بـ«ابي سفيان»، وقال لهما: «ان المغرب أرض بور، فاذهبا احرثا حتى يجيء صاحب البذر». فسارا، ونزل أحدهما بأرض «كتامة» ببلاد تسمّى «مرجلة»، والآخر بسوق حمار. فمالت قلوب اهل تلك النواحي اليهما، وحملوا لهما الاموال والتحف.

ثم ما لبثت ان وصلت الى رستم بن حوشب بـ«عدن» (اليمن) أخبار وفاة الحلواني وأبي سفيان، فأسرع الى أحد أصحابه، «ابي عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء، وقد وثق من علمه ودهائه

وذكائه، طالبا اليه تعهّد الدعوة في أرض المغرب، وقائلا له[1]: ان ارض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر فانها موطأة ممهدة لك».

خرج أبو عبدالله الشيعي من اليمن الى مكّة، بعدما زوّده رستم بن حوشب بالمال وبمرافق يدعى «عبدالله بن أبي ملاحف»، وفي مكّة اجتمع أبو عبدالله الشيعي بحجاج كتامة الذين سرّهم حديثه عن أهل البيت، وفرحوا كثيرا عندما عرفوا عنه انه يريد الذهاب الى مصر، وانه بامكانهم مرافقته. وفي اثناء طريق العودة، اظهر لهم العبادة والزهد، وسألهم عن بلادهم، وأحوالهم، وقبائلهم، وعن طاعتهم لسلطان افريقيا، فقالوا له[2]: «ما له علينا طاعة، وبيننا وبينه عشرة أيام». قال: «أفتحملون السلاح؟ قالوا: «هو شغلنا». ولما أراد وداعهم عندما وصلوا مصر، قالوا له: «أي شيء تطلب بمصر؟ قال: «أطلب التعليم بها». قالوا: «اذا كنت تقصد هذا، فبلادنا أنفع لك، ونحن أعرف بحقك». ولا زالوا به حتى أقنعوه بالمسير معهم الى المغرب».

وصل أبو عبدالله الشيعي الى ارض كتامة منتصف شهر ربيع الاول سنة ٢٨٠ هـ/٨٤٣م، بعدما طُلب منه النزول عند القبائل لاكرامه في اكثر من مكان. ونجا هناك من عدّة محاولات للقتل من جانب البربر بفضل دفاع الكتاميين عنه، ومحبتهم له، وتعظيمهم لامره. وشاعت أخبار أبو عبدالله الشيعي، فغطت شمال افريقيا، وتناهت الى مسامع «ابراهيم بن أحمد بن الاغلب» ـ أمير افريقيا ـ الذي سكت عنه، لان عامله على مدينة «ميلة» قد زوّده بأخبار تفيد أنه رجل ضعيف ومسالم يلبس الخشن، ويأمر بالخير والعبادة[3]. لكن أبا عبدالله تمكن أخيرا بمساعدة «الحسن بن هارون»

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ١٢٨/٦.

(٢) ابن الاثير الكامل في التاريخ: ١٢٧/٦.

(٣) ابن الاثيز، الكامل في التاريخ: ١٢٧/٦.

الكتامي من مقاتلة البربر في اكثر من معركة حتى ظفر بهم، وأخذ أموالهم. فخضع له البربر وغالبية كتامة. ثم تمكّن من دخول مدينة «ميلة»، والسيطرة عليها لمدة قصيرة قبل ان يطرد منها «الأحول» «ابن ابراهيم بن احمد الاغلبي» والي افريقيا آنئذٍ.

وما ان قتل «زيادة الله بن الاغلب»[1] عمه الأحول وبعض أعمامه واخوته. حتى استأثر أبو عبدالله بنفوذ قوي في بلاد المغرب، وانتشر اتباعه في جميع الجهات. وبدأ في اشاعة اخبار ظهور المهدي بقوله[2]: «المهدي يخرج في هذه الايام ويملك الارض. فيا طوبى لمن هاجر اليّ واطاعني». ثم أخذ يشهّر بأبي مضر زيادة الله بن الاغلب ـ والي افريقيا ـ ويكثر عيوبه حتى دانت له الامصار ومالت اليه قلوب العباد.

عند ذاك، أرسل أبو عبدالله الشيعي، الى عبيد الله المهدي الموجود في «سلمية» من أعمال حمص، يخبره بما فتح الله عليه وانهم ينتظرونه. فشاع خبره، وتناقلته ألسنة الناس، الامر الذي جمل الخليفة «المكتفي بالله» العباسي ٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨م)، يأمر بالقاء القبض عليه. الا ان عبيد الله المهدي وولده نزار (أبو القاسم) وبعض الخاصة والموالي تمكّنوا من الهرب، والتخفّي عن مراقبة، وملاحقة رجال الخليفة العباسي. ووصلوا الى طرابلس الغرب عن طريق «مصر» بعد أن عانوا كثيرا من ضروب العذاب والخوف من أن يقع المهدي بين أيدي عمال الدولة العباسية.

انتقل عبيدالله المهدي من طرابلس الى قسطيلة، لان صاحبه أبا العباس شقيق أبي عبدالله الشيعي المتوجه الى القيروان ليلتحق بكتامة، فألقي القبض عليه من قبل زيادة الله بن الأغلب ـ والي افريقيا ـ وسار المهدي الى «سجلماسة» قبل ان يدركه رجال عامل طرابلس. فأكرمه عاملها «أليسع بن

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ١٣٣ و١٧٨.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ١٢٨.

مدرار» وتبادلا الهدايا، لكن كتاب زيادة الله بن الاغلب، بدّل نظرة الاعجاب والتواصل بين المهدي واليسع، بما حوى من دعوة الى القاء القبض عليه لان: «انه الرجل الذي يدعو اليه أبو عبدالله الشيعي» فقبض عليه اليسع بن مدرار ـ عامل سجلماسة ـ وحبسه[1].

من جهة ثانية، كان أبو عبدالله يقاتل جيش زيادة الله بن الأغلب، وقد حالفه الحظ وانتصر عليه. ثم بدأت مدن «طبنة» و «بلزمة» و «تيجس» و «مجانة» و «تيقاش» و «تبسة» و «الاربس» تسقط الواحدة بعد الاخرى، في أواخر جمادي الآخرة سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م[2]. فهرب زيادة الله بن الاغلب الى مصر عندما بلغه خبر هزيمة جيشه. كما هرب اهل مدينة «رقادة» على وجوههم ليلا الى «القصر القديم» والى «القيروان» و «سوسه». وتقدّم أهل القيروان الى رقادة، ونهبوا ما فيها، حتى شملت أعمال النهب قصور «بني الأغلب».

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٦/١٢٩ المقريزي، الخطط: ١/٣٥٠.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ٦/١٣٤.

الفصل الثاني

قيام الدولة الفاطمية في المغرب

قيام الدولة الفاطمية في المغرب

دخل أبو عبد الله الشيعي، بعد ذلك، الى رقادة يوم السبت اول رجب سنة ٢٩٦هـ/ ٢٤ آذار ٩٠٩ م. ثم نَودي بالامان على الجميع، ونزل بعض قصورها، وفرق دورها على أهل كتامة، ووزع العمال على البلاد، وأصدر حكمه على أهل الشر بقتلهم الامر الذي جعل الناس يرجعون الى اوطانهم لاطمئنانهم الى الاوضاع الجديدة.. وطالب أبو عبد الله بجمع ما كان لزيادة الله ابن الاغلب من المال والسلاح والجواري.

ثم أمر أبو عبد الله الشيعي خطباء الجمعة بالقيروان ورقادة، فخطبوا ولم يذكروا أحداً. وأمر بضرب السكة على ان لا ينقش عليها اي اسم، ولكنه جعل مكان الاسم على احد الوجهين «بلغت حجة الله»، وعلى الوجه الآخر «تفرّق أعداء الله»، كما أمر أن ينقش على السلاح «عدة في سبيل الله»، ووسم الخيل على أفخاذها بـ «الملك لله». وبقي هو على ما كان عليه من لبس الدون الخشن. والاكتفاء بالقليل من الطعام الغليظ[١].

لما استتب الامن لابي عبد الله الشيعي، في مدينة رقادة وسائر بلاد افريقيا، اتجه نحو «سجلماسة» مسرعا في سيره إليها بعدما رفض «أليسع بن مدرار» عدة طلبات للقائه[٢]. فما ان خيّم الليل على المدينة حتى هرب

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ١٣٢، والمقريزي، الخطط: ١/ ٣٢٠ والطعام الخشن = الطعام المصنوع من الحبوب، والعسير المضغ والهضم.

(٢) كان أبو عبد الله الشيعي يمني النفس من لقاء «اليسع بن مدرار» اطلاق سراح المهدي وولده من معتقلهما في «سجلماسة».

اليسع وأصحابه من اهله وبني عمه. بينما بات ابو عبد الله الشيعي ومن معه في غم عظيم لا يعلمون ماذا حلّ بالمهدي وولده. فمنذ صباح اليوم التالي، خرج اليه أهل المدينة، واعلموه بهرب أليسع. فأسرع ابو عبد الله الشيعي بالدخول اليها، متوجهين قبل كل شيء، الى المكان الذي سجن فيه المهدي، حيث اخرجه وولده وسط فرح الناس وبهجتهم. وقد اركبهما، ومشى هو ورؤساء القبائل بين ايديهما، وابو عبد الله الشيعي يقول للناس[1]: «هذا مولاكم» وهو يبكي من شدة الفرح، حتى وصل الى فسطاط قد ضُرِبَ له فنزل فيه. ثم أرسل من تعقب أليسع بن مدرار، وألقى القبض عليه، فكان جزاؤه الضرب بالسياط ثم الاعدام. وقد زالت بذلك دول: بني الاغلب، وبني مدرار، وبني رستم.

١ ـ المهدي أميرا للمؤمنين

أقام عبيد اله المهدي في سجلماسة، بعد فك اسره، أربعين يوما. انتقل بعدها الى رقادة في العشر الاخير من ربيع الآخر سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م. فاستقبله اهله واهل القيروان، وابو عبد الله الشيعي، ورؤساء كتامة مشاة بين يديه. ثم نزل بقصر من قصور رقادة. وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد. وتلقب بلقب «أمير المؤمنين». وقد جلس رجل يُعرف بالشريف ومعه الدعاة، بعد الصلاة، وكانوا احضروا الناس بالقوة ودعوهم الى مذهبهم. فمن اجاب احسن اليه، ومن ابى حبس، وقُتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم.

ثم عرض ابو عبد الله الشيعي، على عبيد الله المهدي، جواري زيادة الله بن الاغلب. فاختار المهدي منهن كثيرا لنفسه ولولده ايضا، وفرق ما بقي على وجوه كتامة. وقسّم عليهم اعمال افريقيا، ودوّن الدواوين، وجبى الاموال، فاستتب الامن له، ودانت البلاد بأهلها. وقد جعل على

---

١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٦/ ١٣٣. المقريزي، الخطط: ١/ ١٥٠ ـ ١٥١

جزيرة «صقلية» الحسن بن احمد بن ابي خنزير عاملا، واسحق بن المنهال قاضيا[1].

باشر عبيد الله المهدي الامور بنفسه، وكفّ يد ابي عبد الله الشيعي، ويد اخيه ابي العباس، فداخل الحسد ابا العباس، وعظم عليه الكف عن الامر والنهي، و'لاخذ والعطاء. وراح في مجلس اخيه ابي عبد الله الشيعي يتطاول بالكلام على عبيد الله المهدي، وينهاه اخوه، فلا يزيده ذلك الا لجاجا في الكلام. وتجرأ أخيرا على تحريض شقيقه أبي عبد الله الشيعي عليه قائلاً له[2]: «ملكت أمرا، فجئت بمن أزالك عنه. وكان الواجب عليه ان لا يُسقط حقك». ولم يزل حتى أثر في قلبه، وأقنعه. فتقدم أبو عبد الله الشيعي من عبيد الله المهدي، وقال له[3]: لو كنت تجلس في قصرك، وتتركني مع كتامة، آمرهم وانهاهم لاني عارف بعاداتهم، لكان أهيب لك في أعين الناس».

وفي الوقت ذاته، كان عبيد الله المهدي يسمع شيئاً مما يجري بين أبي عبد الله الشيعي واخيه. فتأكد من صحة الاخبار التي كانت تصله، وأخيرا، بلغ الامر بأبي العباس الى ان يبوح ما يجول في داخله لمن رأى فيهم استئناسا وقبولا، فقال: «ما جازاكم على ما فعلتم»؟ وذكر لهم الاموال التي اخذها المهدي من الكجان، وقال: هلا قسمّها فيكم؟ وكل ذلك يتّصل بالمهدي وهو يتفاعل وأبو عبد الله الشيعي يداري. وأخيرا تجرأ أبو العباس على قول: «أن هذا ليس الذي كُنَّا نعتقد طاعته وندعو اليه، لان المهدي يختم بالحجة ويأتي بالآيات الباهرة». فأثر كلامه هذا في قلوب

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ١٦/ ١٣٤.

(٣) ابن الاثير الكامل في التاريخ ٦/ ١٣٤و١٣٥.
والمقريزي الخطط ١/ ٣٥١.

كثير من الناس، حتى راح احد ابناء كتامة المعروف بشيخ المشايخ، فواجه المهدي بذلك، قائلاً: «ان كنت المهدي، فاظهر لنا آية، فقد شككنا فيك». فقتله المهدي.

المهدي يتخلّص من أبي عبد الله الشيعي

خاف أبو عبد الله، ولا سيّما بعد علمه بعدم رضى عبيد الله المهدي عليه، بعد كل الذي جرى من أخيه. لذلك اتفق هو واخوه ومن معهما على الاجتماع عند ابي زاكي وفي نيتهم التخلّص من المهدي بقتله، لكنهم لم يجسروا على قتله. كان رجل يجتمع معهم عند ابي زاكي، يظهر انه منهم، وينقل ما يدور في الاجتماع من احاديث الى المهدي. وصار ابو عبد الله يتخلّف عن الحضور امام المهدي. لكن الاخير لاطفهم وفرّقهم في البلاد. فجعل أبا زاكي واليا على طرابلس، وكتب الى عاملها ان يقتله عند وصوله. فلما وصلها قتله عاملها، وارسل رأسه الى المهدي، ثم ألقي القبض على ابن القديم فقتل. وأمر المهدي عروبة ورجالا معه ان يتحروا ابا عبد الله وأخاه ابا العباس ويقتلوهما. فلما وصلا الى قرب القصر حمل عروبة على ابي عبد الله، فقال[1]: «لا تفعل يا بني، فقال: الذي أمرتنا بطاعته، أمرنا بقتلك». فقتل هو وأخوه. بعدما تفانى في شر الدعوة وتثبيت دعائمها في شمال افريقيا، تماماً كما اوقع ابو جعفر المنصور بأبي مسلم الخراساني ونكب بالبرامكة[2]. وكان قتلهما في اليوم الذي قتل فيه أبو زاكي سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠ م. وقيل ان المهدي صلى على أبي عبد الله، وقال: رحمك الله ابا عبد

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ١٣٥. والمقريزي، الخطط، ١/ ٣٤١. ادب المحاسن، جمال الدين يوسف بن ثغري بردى الاتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣/ ١٧٤، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) أيوب، ابراهيم رزق الله: التاريخ العباسي السياسي والحضاري: ٦٤ ـ ٦٦، منشورات الشركة العالمية للكتاب ومكتبة المدرسة، بيروت ١٩٨٩.

الله، وجزاك خيرا بجميل سعيك. ونشبت فتنة بسبب قتلهما، فركب المهدي بنفسه بعدما جرّد اصحابهما السيوف، وأمّن الناس، ثم تتبعهم حتى قتلهم، وثارت فتنة ثانية بين كتامة وأهل القيروان قتل فيها خلق كثير، الامر الذي جعل المهدي يعالجها بنفسه ايضا حتى قضى عليهما، وكف الدعاة عن طلب التشيّع من العامة. ولمّا استتب الامن واستقامت الامور، عهد المهدي الى ولده ابي القاسم نزار بالخلافة.

ثم أعلن عروبة بن يوسف الكتامي الثورة ضد المهدي، ودولته بالقيروان، فانضم اليه خلق كثير من كتامة والبربر. لكن المهدي واجه هذه الثورة بالطلب الى مولاه غالب بمقاتلتهم. فقتل عروبة، وعدد كبير من جماعته.

بناء المهدية

أراد المهدي بناء حاضرة لدولته، فاختار بنفسه مكانا حصينا، عندما قام بجولة له على شاطىء تونس، فوق جزيرة متصلة بالبر على هيئة كف متصل بزند. وقد بدأ العمل ببنائها يوم السبت لخمس خلون من ذي القعدة سنة ثلاث وثلثمائة هـ/ ٩١٥م. وجعل لها سورا عاليا وأبوابا قوية وثقيلة. وقد اشرف المهدي على بنائها بنفسه يعطي اوامره الى الصنّاع فيعملون. وقد ألحق بها دار صناعة لبناء السفن حفرت في سفح الجبل يتم الدخول اليها عبر بوابة تفتح وتغلق عند الحاجة. وتلافيا للأزمات الاقتصادية، فقد أنشأ في المهدية اهراءات للمواد الغذائية، وخزانات (مصانع) للماء، وزيّنها ببناء القصور والدور له ولاولاده والحاشية. كما بنى المصلى بظاهرها، وقال: «الى هنا يصل صاحب الحمار» يعني ابا يزيد. ولما انتهى من بنائها قال: «اليوم أمّنت على الفاطميات يعني بناته، وقد اسماها المهدية[1].

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ١٥١. والمقريزي، الخطط: ١/ ٣٥١.

٢ ـ خلافة القائم بأمر الله

توفي أبو محمد عبيد الله المهدي[١] بالمهدية، ليلة الثلاثاء منتصف ربيع الاول سنة ٣٢٢ هـ/٣ آذار مارس سنة ٩٣٤ م. فاستلم أمور الخلافة مكانه ولده محمد (أبو القاسم)، وأخفى موته سنة خوفا من ان ينقلب الناس ضده اذا علموا بموت والده. ولما تمكّن من تثبيت يده في الحكم، أظهر وفاة والده، وتلقب بلقب «القائم بأمر الله».

وعلى الرغم من ذلك، ثار عليه جماعة، كان أقواهم ابن طالوت القرشي في ناحية طرابلس، زاعما انه من ولد المهدي. وقد أيده عدد كبير من ابناء تلك الناحية، وزحفوا معه الى مدينة طرابلس مغشوشين بزعمه. فقاتلهم أهلها بعدما تبيّن لهم كذبه، وقتلوه وحملوا رأسه الى القائم بأمر الله.

ووجّه القائم بأمر الله «ميسور الفتى» على رأس جيش كثيف الى المغرب، ليقضي على الفتن هناك. فوصل الى «فايس» و«تكرور» وهزم خارجيا هناك، وأخذ ولده أسيرا. ووجه ايضا، القائم بأمر الله جيشا في البحر بقيادة يعقوب بن اسحق الى بلاد الروم. فسبى وغنم الشيء الكثير من مدينة جنوى وناحيتها.

وبث القائم بأمر الله جيشا برّيا، الى مصر، بقيادة خادمه «زيدان»، فدخل هذا الاخير على رأس جيشه مدينة «الاسكندرية»، لكن محمد الاخشيد حال دون تحقيق هدفهم، اذ سيّر عسكرا كثيفا تمكّن من مقاتلتهم وهزمهم، عندها رجع الجيش القاطمي الى المغرب مغلوبا على أمره[٢].

---

(١) توفي عبيد الله المهدي وله من العمر ٦٣ سنة بعدما قضى في الحكم، منذ دعي له بالامامة الى ان توفي، ٢٤ سنة وشهرا وعشرين يوما.

ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٢٣٨/٦. المقريزي، الخطط: ٣٥١/١.

(٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٣٣٨/٦. والمقريزي، الخطط: ٣٥١/١.

ثورة أبو يزيد الخارجي

لما اشتدت قوة أبي يزيد[١] بافريقيا، وكثر اتباعه، وانتصر في بعض المعارك على الجيش الفاطمي. اذ زحف مع اتباعه الى «بغاية» فاستولى عليها وولى «قسطيلية» و«تبسه» و«مجانة» و«مرمجنة» و«سبيبة» و«الاربس» تجاه ذلك قام القائم بأمر الله بحفظ الأمن في البلاد. فارسل جيشا الى «رقادة» وجيشا آخر الى «القيروان» وبعث مع فتاه «بشرى» جيشا الى «باجه» التي دخلها ابو يزيد وعمل على نهبها ثم حرقها بعدما قتل الاطفال وسبى النساء منها اثر انهزام «بشرى» الى تونس، وقتل غالبية وجوه كتامة.

انتقل أبو يزيد من باجة الى رقادة في مائة ألف مقاتل، ثم بعث رجلا من اصحابه اسمه «أيوب الزويلي» الى القيروان بعسكر، فدخلها وأعمل فيها قتلا ونهبا، كما ألقى القبض على عامل المدينة «خليل» وأرسله الى أبي يزيد فقتله. ساعتئذ خاف مشايخ القيروان وانتقلوا الى أبي يزيد في رقادة طالبين الأمان، في مطالبهم الى أن الحوا عليه قائلين: خربت المدينة، فقال: وما يكون؟ خربت «مكة»و «البيت المقدس». ثم أمر باشاعة الامان بين الناس. وما ان اقترب «ميسور» خادم القائم بأمر الله بعساكره من المدينة، حتى أسرع أبو يزيد بعساكره لمقاتلة ميسور. فالتقى الجيشان واشتد القتال بينهما. انهزم بنتيجته جيش ميسور بعدما كبا به جواده، وسقط على الارض الى ان تمكّن منه اصحاب ابي يزيد، فقطعوا رأسه، وارسلوه اليه[٢].

---

(١) ابو يزيد مخلد بن كنداد من قبيلة زناتة، والدته جارية «هوارية» تزوجها والده في اثناء تجارته في بلاد السودان، فولد لهما. نشأ ابو يزد في مدينة «توزر» بنواحي «قسطيلية» مع والديه، حيث تعلم القرآن، ثم سافر الى «تاهرت» فأقام بها يعلّم الصبيان الى أن خرج ابو عبد الله الشيعي الى سجلماية فانتقل الى تقبوس» يعلم مذهبه الداعي الى استباحة الاموال والدماء والخروج على السلطان فكثر مؤيدوه. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٠٢ ـ ٣٠٤، والمقريزي الخطط ١/ ٣٥١.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ٣٣٤.

أقام ابو يزيد شهرين وثمانية ايام في خيم ميسور بالقيروان، وهو يبعث السرايا الى كل ناحية فيغتنمون ويعودون. . وارسل الى سوسة ففتحوها بالسيف وقتلوا الرجال وسبوا النساء واحرقوا وشقوا فروج النساء، وبقروا البطون حتى لم يبق موضع في ولاية افريقية معمور، ولا سقف مرفوع. ومضى جميع من بقي الى القيروان حفاة عراة، ومن استطاع الخلاص من السبي، مات جوعا وعطشا سنة ٣٣٣ هـ/ ٩٤٤م.

لما اتصل خبر الهزيمة بالقائم بأمر الله خاف هو ومَن بالمهدية، فاجتمعوا داخل اسوارها، واستعدوا للقتال. وأمر القائم بأمر الله بحفر الخنادق حول أرباض المهدية. وكتب الى زيري بن مناد سيد صنهاجة والى سادات كتامة والقبائل الاخرى يحثّهم على الاجتماع به، وقتال ابي يزيد واتباعه. أسرع ابو يزيد مع اصحابه نحو المهدية، فالتقى بحاميتها التي دافع عنها افرادها ببسالة. وقد جرت عدة معارك مرت بين كروفر من أواخر جمادى الاولى سنة ٣٣٣ هـ/ منتصف كانون ثان/ يناير ٩٤٥م. الى المحرّم سنة ٣٣٤ هـ/آب أوغسطس سنة ٩٤٥م. حتى تضايق الناس من الجوع والغلاء، واعمال السلب والنهب، الى ان اكلوا الدواب الميتة، والبربر يأتون الى ابي يزيد من كل ناحية ينهبون ويقتلون ويرجعون الى منازلهم.

ولما رأى اهل المدائن والقرى المجاورة، تفرّق عسكر ابي يزيد على هذه الحالة ، قاموا بمهاجمة عماله. فقتل بعضهم، وألقي القبض على بعضهم الآخر ارسلوا الى المهدية. وفي الوقت ذاته، ثار اهل مدينة «سوسه» ضد جماعة ابي يزيد وطردوهم من المدينة. وكان لابي يزيد ولد اسمه «أيوب»، لما بلغه الخبر، هجم بجماعة كانت معه على مدينة «تونس» حيث اعملوا السيف بمن كان، واحرقوا ما بقي فيها، قبل ان تصل المدينة قوة من جيش القائم بأمر الله، ويجري بين الفريقين قتال عظيم قتل فيه جمع كثير، انتهى بانهزام أيوب بن يزيد، واصحابه الى القيروان في ربيع الاول سنة ٣٣٤ هـ/ تشرين ثانٍ/ نوفمبر ٩٤٥م.

وهكذا رحَل ابو يزيد وجماعته عن المهدية وما جاورها، حتى انه فكر في الهرب عن القيروان اثر حروب كثيرة كان النصر في اغلبها الى «علي بن حمدون»، أحد قواد جيش القائم بأمر الله، وعسكره، الذي سيطر على مدينة «تيجس» ومدينة «بغاية» من ابي يزيد[1].

٣ ـ خلافة المنصور بنصر الله

توفي القائم بأمر الله ابو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي لثلاث عشرة مضت من شوال سنة ٣٣٤ هـ/ ١٣ آذار/ مارس سنة ٩٤٦م. تولى بعده ابنه ابو الطاهر اسماعيل الخلافة، وتلقب بالمنصور بنصر الله، وكتم موت ابيه خوفا ان يعلم بذلك ابو يزيد الذي يحاصر مدينة «سوسه». ولم يتسم المنصور بنصر الله بالخليفة، ولم يغيّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود والمراكب حتى اذا انتهى من ثورة ابي يزيد وقضى عليه، حينئذ اظهر موت والده القائم بأمر الله، وتسمّى بالخليفة[2].

أوصى المنصور بنصر الله رشيقا الكاتب ويعقوب بن اسحاق قائدا جيشه المتوجّه الى سوسه لمقاتلة أبي يزيد، وفك الحصار عنها. فانهزم ابو يزيد واصحابه، وجدّوا هاربين الى القيروان ناجين بأنفسهم. لكن اهل القيروان منعوه من الدخول اليها، وحاصروا دار عامله فيها. وعلى الرغم من هذا الحصار تمكّن من الهرب مع زوجة ابي يزيد «ام يعقوب» بنشر الدنانير فوق رؤوس المحاصرين. وهكذا لما التقى ابو يزيد امرأته رحل عن القيروان إلى ناحية «سبية» ونزلها مع من تبعه من اصحابه.

لكن بقاء جماعة من زوجات ابي يزيد واولاده في القيروان حيث ألقي

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/٣٠٦ ـ ٣٠٨.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/٣٠٨ و٣١٧. والمقريزي، الخطط: ١/٣٥١ . ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٣/ ٢٨٧.

القبض عليم، ونقلوا الى المهدية. وهذا ما جعل ابو يزيد يعاود مهاجمة القيروان قصد دخولها والسيطرة عليها. فالتقى الجيشان المرابط، حول أسوارها، والمهاجم، في قتال شديد، اظهر فيه المنصور بنصر الله من ضروب الشجاعة ما جعل هيبته تزداد في قلوب اتباعه. ازاء ذلك، اضطر ابو يزيد الى الرحيل عن القيروان أواخر ذي القعدة سنة ٣٣٤ هـ/ أواخر حزيران/ يونيو ٩٤٦م، ليعود، مرات عدة، محاولا قطع الطريق بين المهدية والقيروان وسوسة، وسائلا المنصور بنصر الله ان يسلّم اليه حرمه وأولاده الذين خلفهم في القيروان وألقي القبض عليهم واخذهم المنصور بنصر الله. فان فعل الاخير ذلك وأفرج عنهم، دخل ابو يزيد في طاعته على ان يؤمنه وأصحابه وحلف له بأغلظ الايمان على ذلك. فأجابه الى ما طلب، وأحضر عياله، وسيرهم اليه مكرّمين بعد ان اكرمهم وقدم لهم أحسن الكسوة والهدايا الاخرى. ولما وصلوا الى ابي يزيد نكث هذا جميع ما تعهّد به، وقال: «انما وجههم خوفاً منّي»، الامر الذي جعل المعارك تتجدد بين الطرفين الى ان كان النصر النهائي فيها للخليفة الفاطمي المنصور بنصر الله، ورحيل ابي يزيد عن القيروان نهائيا[١].

المنصور بنصر الله يقضي على أبي يزيد

كان المنصور بنصر الله الفاطمي يلاحق ابا يزيد من مكان الى آخر وهو يستمر في الهرب الى جبل البربر المسمّى «برزال» وأهله على مذهبه. فلحقه بعسكره واقتتلوا معه، عدة معارك، وكان النصر في بعضها للخليفة الفاطمي المنصور بنصر الله، وفي بعضها الآخر لابي يزيد، الى ان انتقل الاخير الى جبال كتامة وعجبة، وتحصّن بها، حيث دارت الحرب التي بنهايتها انهزم أبو يزيد، واستسلم اولاده واصحابه، واقبلت «هوارة» واكثرية اصحاب ابي يزيد يطلبون الامان، فأمنهم الخليفة. أما أبو يزيد فقد هرب

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/٣٠٨ ـ ٣٠٩.

الى داخل قصر بقلعة كتامة، واختبأ فيه فما كان من المنصور بنصر الله الا ان امر باشعال النار في شعاب الجبل وامامه حتى لا يهرب ابو يزيد. لكن هذا الاخير تمكّن من الخروج من القلعة ليلا بعدما سبقه اصحابه وهم شاهرين سيوفهم في وجه الجيش الفاطمي الذي تفرّق افراده امامهم. فنجا ابو يزيد بنفسه، لكنه سقط بالاحراج في مكان صعب. ولحق به جماعة المنصور بنصر الله الى ان قبضوا عليه واخذوه اليه. فوضع في قفص من حديد ومعه قردين يعذباه حتى مات من جراحه التي اصيب بها في اثناء المعارك. بعد ذلك سلخ جلده، وحشاه تبنا. وبعث الخليفة الفاطمي بالبشائر الى جميع انحاء البلاد.

وكان محمد بن خزر قد اعلن الثورة ضد المنصور بنصر الله الفاطمي لاجل نصرة ابي يزيد. كما استعصى فضل بن ابي يزيد، وقطع الطرق، لكن اصحابه غدروا به، وقتلوه، وبعثوا برأسه اليه. وهكذا تخلّص المنصور بنصر الله الفاطمي من ابي يزيد وأصحابه سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م. وعاد الى المهدية في شهر رمضان من السنة ذاتها[١].

٤ ـ خلافة المعز لدين الله

توفي المنصور بنصر الله ابو الطاهر اسماعيل بن القائم ابي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي نهاية شوال سنة ٣٤١ هـ/ منتصف آذار/ مارس ٩٥٣م، عن عمر بلغ تسعا وثلاثين سنة. وقد قضى في خلافته سبع سنين وستة عشر يوما، وكان عهد قبل وفاته بالخلافة الى ابنه معد (المعز لدين الله)، ودفن في قصره. ولم يُعلن ولده المعز لدين الله خبر وفاته قبل السابع من ذي الحجة، حين اذن للناس، فدخلوا عليه، وسلّموا عليه بالخلافة، وله من العمر أربع وعشرين سنة[٢].

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/٣٠٩ ـ ٣١١.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/٣٤١.

أمر الخليفة المعز لدين الله قائده ابا الحسن جوهرا في صفر سنة ٣٤٧ هـ/ أيار/ مايو ٩٥٨م.، بالمسير على رأس قوة كبيرة من جيشه، الى اقاصي المغرب، فكان لجوهر في «تاهرت» معركة مع «يعلي بن محمد الزناتي» وأصحابه الذين هربوا الى مدينة «أفكان». فلحقهم اليها ودخلها، حيث اعطى اوامره بهدمها، وحرقها بالنار في جمادى الآخرة من السنة ذاتها. ثم تابع جوهر سيره نحو المغرب الاقصى قاصدا مدينة «فاس» التي حاصرها مدة ولم يقو على فتحها. فأشار الامراء الفاطميون على جوهر، وقد جاءوا اليه من أقاصي السوس حاملين الهدايا، بالرحيل الى سجلماسة التي هرب عاملها ـ محمد بن واسول ـ والذي كان قد اختار لنفسه لقب «الشاكر لله» ويخاطب بـ «امير المؤمينن»، وضرب السكة باسمه منذ حوالى ست عشرة سنة. وحينما حاول العودة الى سجلماسة ألقي القبض عليه وأخذ أسيرا الى جوهر.

واصل جوهر طريقه بعد سجلماسة الى شواطىء المحيط الاطلسي مفتتحا المدن والقرى. فأمر ان يصطاد له سمكا من المحيط ارسله الى المعز لدين الله. ثم عاد الى مدينة فاس وحاصرها حتى فتحها في رمضان سنة ٣٤٨ هـ/ كانون ثان/ يناير / ٩٦٠م. ورجع الى المهدية، بعد ان جعل على مدينة تاهرت زيري بن مناد، ومعه عامل مدينة فاس، وعامل مدينة سجلماسة في قفصين[١].

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ٣٥٤.

الفصل الثالث

انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر

لم يسيطر الفاطميون سيطرة كاملة على بلاد المغرب، لدخول موسى بن مكناس زعيم الادارسة في مدينة «فاس» ومحمد بن خزر الزناتي، في طاعة عبد الرحمن الناصر الاموي، في الاندلس (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م)

وازدادت الاضطرابات في وجه الفاطميين في تلك البلاد، عندما التفّ حول ابي يزيد بن مخلد في سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٤٤م، عدد كبير من أتباعه، فهدّد المهدية، مركز الخلافة الفاطمية في المغرب بالاحتلال لولا مساعدة الكتاميين، وزيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة والقضاء عليه[١].

وواجهت الفاطميين مصاعب اخرى في تركيز دولتهم في المغرب، اخصها: عداء الامويين لهم، والعمل على مساعدة الثوار ضد الفاطميين، وحماية الامويين للثوار عند اللجوء الى الاندلس عندما تضطرهم الحرب لذلك. كما كان الامويون على استعداد لغزو «طنجة» و «سبته» والاستيلاء عليهما، ورد الفاطميين اذا ما فكروا بغزو بلاد الاندلس[٢].

لكن لم تؤثر هذه الاحداث في تفكير الفاطميين لتوجيه الحملات المتتالية لاحتلال بلاد مصر، فسيّروا ثلاث حملات فشلت جميعها قبل قيام القائد جوهر الصقلي بفتحها.

---

(١) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا. تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال: ١/ ٦٨ ـ ٨٧، القاهرة ١٣٨٧ ./ ١٩٦٧م.

حسن، حسن ابرايم: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر وسورية وبلاد المغرب: ٨٧ ـ ٩٠، منشورات مكتبة النهضة المصرية، ط٢ سنة ١٩٦٤.

(٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٦/ ٣٠٦ ـ ٣١٠. والمقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٧٥ ـ ٩٥.

الحملة الاولى

قامت بقيادة أبي القاسم الفاطمي ابن الخليفة عبيدالله المهدي سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣م. وبمعاونة «حباسة بن يوسف» عاملهم على برقة ـ المغرب الأدنى فاحتلت الاسكندية والفيّوم. لكن الخليفة العباسي المقتدر بالله سيّر اليها مؤنسا الخادم في جيش كثيف تمكّن به من اجلائهم عن مصر[١].

الحملة الثانية

قامت الحملة الفاطمية الثانية على مصر، بقيادة أبي القاسم ايضا، سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٨م. فوصلت الى الاسكندرية سنة ٣٠٧هـ/ ٩١٩م. فتمكنت من الاستيلاء عليها، والانتقال منها الى الجيزة والاشمونين وقسما كبيرا من الصعيد. ومن هناك كتب أبو القاسم الى أهل مكة يدعوهم الى الدخول في طاعته، فلم يقبلوا منه. عند ذلك بعث المقتدر بالله مؤنسا الخادم الى مصر لقتاله، فكانت بينهما عدّة معارك. في اثناء ذلك وصلت الاسكندرية، من افريقيا لابي القاسم، نجدة بحرية من ثمانين مركبا بقيادة سليمان الخادم، ويعقوب الكتامي. حينئذ سيّر المقتدر بالله مراكب طرسوس (خمسة وعشرون مركبا) بقيادة ابي اليمن. فالتقت المراكب العباسية بتلك الفاطمية عند رشيد ـ احد فروع نهر النيل ـ انتصر بنهاية القتال العباسيون، اذ قتلوا واسروا منهم الكثير، ومن الاسرى سليمان الخادم (الفاطمي) الذي قضى في سجنه، اما يعقوب فنقل الى بغداد لكنه تمكّن من الهرب والرجوع الى افريقيا.

وكذلك انتهت المعارك البرية لصالح القائد العباسي الذي لقّب حينئذ

---

(١) الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم: ١٠/ ١٤٩ ـ ١٥٠، منشوارت دار المعارف بمصر، ط٣. وابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ١٤٧.

بالمظفّر. وعاد من سَلِمَ من المعركة البرية مع ابي القاسم الى المهدية في رجب من السنة ذاتها[1].

الحملة الثالثة وفتح مصر

قامت الحملة الثالثة بقيادة حبشي بن احمد، واستمرت ثلاث سنين ٣٢١ ـ ٣٢٤ هـ/ ٩٣٣ ـ ٩٣٥م. تخللها عقد معاهدة صلح في الجيزة بين المصريين وحبشي بن احمد في صفر سنة ٣٢٢ هـ/ شباط/ فبراير/ ٩٣٤م. لكن هذه المعاهدة لم تدم طويلا لنشوب المعارك بينهم واضطرار جيش حبشي من المغاربة على الانسحاب الى شمال افريقيا[2].

وواتت الظروف الفاطميين أخيرا، اذ توفي كافور الاخشيدي، واضطربت الامور، وأصاب بلاد مصر غلاء شديد بسبب القحط وشح مياه النيل، وانتشار الامراض، ممّا أضعف المصريين، هذا الى جانب وجود جماعة في الحكم، تدين بمذهب الشيعة، لا بأس بعددها[3].

فلمّا بلغ ذلك الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، بعث مولاه جوهر

---

(١) المقريزي: الخطط: ١/ ٣٥١.

حسن، الدولة الفاطمية: ٨٥ ـ ١١٥.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٦/ ١٥٠ و٢٣٨

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٩٥ ـ ٩٧

والخطط: ١/ ٣٥١

ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٣/ ١٨٧ و١٩٦

حسن، الدولة الفاطمية، ١١٧.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٩٥ ـ ٩٧

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: ١/ ٥٩٩ (منشورات دار احياء الكتب العربية: ط١ سنة ١٩٦٧ م.

حسن، تاريخ الدولة الفاطمية: ١٣٦.

الصقلي في مائة ألف مقاتل[1]. فدخلوا بلاد مصر نهار الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ/ ٢ تموز/ ٩٦٩م.[2] بعد ان لاذ الى الفرار من نجا بنفسه حاملا معه ما تيسر له حمله.

اضطرت النساء ازاء هذا الوضع، الى مطالبة الشريف أبي جعفر مسلم العلوي مكاتبة القائد جوهر الصقلي باعادة الأمان الذي أجاب فيه الى ما طلبوه من: «حرية العقيدة الدينية ونشر لواء العدل والأمن، واصلاح ما يجب اصلاحه». فكان لهم ما أرادوا، وزالت مخاوفهم، وبخاصة بعد تقديم التهنئة بالفتح من قبل الشريف أبي جعفر مسلم العلوي، والوزير جعفر بن الفرات، وسائر الاشراف والقضاة والعلماء والتجار[3].

وانتقل المعز لدين الله من مركزه في المنصورية، نهار الاثنين في الحادي والعشرين من شوال سنة ٣٦١هـ/ ٥ آب/ أوغسطس/ ٩٧٢م. بعد ما استخلف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على افريقيا[4]، ومعه حاشيته وجنوده وخزائنه وفيها الأموال الكثيرة، ناقلا ايضا جثث اهله في توابيت من خشب لدفنها بالقرافة الكبرى[5].

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٩٥ ـ ٩٧.

السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ٥٩٩. حسن، تاريخ الدولة الفاطمية: ١٤.

(٢) الانطاكى، يحيى بن سعيد صلة كتاب اوتيخا المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» ١/ ١٣٢ ـ ١٣٣، بيروت ١٩٠٩م.

(٣) ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تحقيق احسان عباس ١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨. المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١٣٤، والسيوطي: حسن المحاضرة ١/ ٥٩٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٧/ ٤٥ ـ ٤٦.

ابن اياس، أبو البركات محمد بن أحمد: تاريخ مصر المعروف بـ «بدائع الزهور» ١/ ٤٥، طبعة بولاق، ١٣١١ ـ ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤م.

(٥) مشرفة، عطية: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ٤٨ (منشورات دار الفكر العربي بمصر) ط٢.

وصل المعز الى الاسكندرية ممتطيا جواده يوم السبت في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٣٦٢هـ/ ٢٩ ايار/ ٩٧٣م، فأتى قاضي مصر أبو الطاهر محمد بن أحمد وأعيان البلاد، فسلّموا عليه وخطب الخليفة فيهم عند منارة الاسكندرية، فحرّك شعورهم الديني، حتى بكى بعض الحاضرين، وخلع الخليفة على القاضي وعلى بعض الأفراد وحملهم، فودعوه وانصرفوا[١] ثم تابع المعز لدين الله سيره، فاستقبله القائد جوهر الصقلي في الجيزة، وترجل له عند لقائه، وقبّل الارض بين يديه.

ودخل المعز لدين الله القاهرة نهار الثلاثاء في الخامس من رمضان سنة ٣٦٢هـ/ ١٣ حزيران/ يونيو/ ٩٧٣م، وفي القصر خرّ ساجدا لله تعالى، ثم صلى ركعتين. وبذلك غدت القاهرة مركز الخلافة الفاطمية بدل «المنصورية» في المغرب، التي كان قد بناها والده المنصور بنصر الله، وتحولت البلاد المصرية من مركز امارة الى مركز خلافة[٢]. وباشر الخليفة المعز لدين الله (أول الخلفاء الفاطميين ببلاد مصر) سلطاته كاملة وعزل القائد جوهر الصقلي عن دواوينها وجباية اموالها والنظر في سائر أمورها[٣]، بعد أن

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٥/ ٢٢٧.
المقريزي، اتعاظ الحنفا ١/ ١٣٨.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ٧/ ٦٧.
ابن خلكان، وفيات الأعين: ٥/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.
المقريزي، الخطط ١/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤.
واتعاظ الحنفا: ١/ ١٢٤ ـ ١٣٩
ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٦٦ ـ ٦٢.
السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١١.
ابن اياس، بدائع الزهور: ١/ ٤٥ ـ ٤٦.
حسن، تاريخ الدولة الفاطمية: ١٥٠.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٥/ ١٢٨.
حسن، تاريخ الدولة الفاطمية: ١٥١.

أمضى هذا القائد، مستقلا بتدبير مملكة مصر، قبل وصول مولاه المعز لدين الله اليها، أربع سنين وعشرين يوما[1]، حتى دخل المعز لدين الله القاهرة وجلس في القصر الذي بناه جوهر الصقلي له عند بناء مدينة القاهرة.

جلس المعز لدين الله على السرير الذهب لتقبل التهاني. ثم خطب بالناس بعد صلاة عيد الفطر، وركب لفتح خليج مصر يوم الوفاء. كما احتفل بعيد غدير خم. وأعطى أوامره بطرد القرامطة الذين هاجموا الأراضي المصرية في أيامه، فتمكنت جيوشه من هزيمتهم. لكنه توفي بعد دخوله القاهرة بسنتين وسبعة أشهر وعشرة أيام، في ١٤ ربيع الأخر سنة ٣٦٥هـ/ ١٩ كانون أول/ دسمبر/ سنة ٩٧٥م[2].

٥ ـ خلافة العزيز بالله

ولد أبو المنصور نزار (العزيز بالله) بن المعز لدين الله بالمهدية في المغرب. وجاء الى القاهرة مع والده الذي جعله ولي عهده. تسلم العزيز بالله الخلافة في اليوم ذاته لوفاة أبيه. فخضعت له عساكر أبيه كما بايعه الجميع في مصر، وأقيمت له الخطبة في مكة المكرمة[3]. وبهذه المناسبة أمر أن توزع النقود الذهبية على الناس في المغرب الذي أقرّ فيه يوسف بن بلكين على الولاية.

هاجمت عساكر القرامطة، في عهده، بلاد الشام حيث اتفقوا مع افتكين التركي على مقاتلة الفاطميين في فلسطين. فساروا لذلك الى الرملة، وقاتلوا جيش العزيز بالله المرابط في يافا. فما كان من العزيز بالله الا أن بعث

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٣٨٠.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ٦٩. المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٣.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ٦٩.

المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٨٤.

بقائده جوهر الصقلي على رأس قوة من جيشه لمقاتلة القرامطة. فحاصر جوهر مدينة دمشق، ولم يقو على فتحها. ثم رحل عنها نحو الرملة، وفيها أدركته جيوش القرامطة وافتكين وقاتلوه بالرملة وعسقلان نحو سبعة عشر شهرا نجا منهم بأعجوبة فارا الى مصر. لكن العزيز بالله جمع جيشا كثيفا وسار على رأسه لمقاتلة افتكين والقرامطة، بعد ما علم بفشل قائده في تحقيق النصر عليهم. فالتقاه جوهر في الطريق، وسارا معا الى الرملة حيث تمكنا من هزيمة القرامطة ودخولها، وأسر افتكين في شهر محرّم سنة ٣٦٨هـ/آب/أوغسطس/سنة ٩٧٥م[١].

أحسن العزيز بالله الى افتكين وأكرمه، فكتب الشريف أبو اسماعيل ابراهيم الى العزيز بالله يقول: «يا مولانا، لقد استحق هذا الكافر كل عذاب، والعجب من الاحسان اليه». فقال العزيز بالله الى الشريف عندما التقاه: «يا ابراهيم قرأت كتابك في شأن افتكين: وأنا اخبرك، اعلم أنّا قد وعدناه الاحسان والولاية. فلما ولّى منهزما... جيء به بعد ساعة أسيرا. أترى يليق بي غير الوفاء»[٢].

وقد اصطنع العزيز بالله افتكين بعد وصوله الى القاهرة، وواصله بالعطايا وبالخلع حتى قال افتكين نفسه: «احتشمت من ركوبي مع الخليفة مولانا العزيز بالله، ونظري اليه بما غمرني من فضله واحسانه». فلما بلغ ذلك الى الخليفة قال لعمه «حيدرة»: «يا عم أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وان يكون ذلك كله من عندي»[٣].

توفي العزيز بالله سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م، في مدينة «بلبيس» من مرض

---

(١) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٨٤.

(٢) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٨٤.

(٣) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٨٤.

طويل بالقولنج والحصاة، فحُمل الى القاهرة ودُفن بتربة القصر. ورثاه عدد كبير من الشعراء والخطباء معددين فضائله التي منها: الكرم وحسن العفو والقدرة، والمعرفة بالخيل وجوارح الطير، وحبه للصيد. كما كان العزيز بالله أول من اتخذ وزيرا أثبت اسمه على الطرز، وقرن اسمه باسمه من بين الخلفاء الفاطميين[١]. وهو أول من استخدم الاتراك في جيشه وجعل منهم قوادا.

٦ ـ خلافة الحاكم بأمر الله

تولى أبو علي منصور بن العزيز بالله الخلافة وله من العمر يومئذ احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام في مدينة القاهرة. وسُلّم عليه بالامامة واللقب الذي اختير له وهو «الحاكم بأمر الله» بعدما جلس على سرير من ذهب في الايوان الكبير، علما انه قد سُلّم عليه بالخلافة في مدينة «بلبيس» بعد ظهر اليوم ذاته الذي توفي فيه والده[٢].

أ ـ اعماله الادارية

جعل الحاكم بامر الله ابا محمد الحسين بن عمار وزيرا له فتلقب بـ«امين الدولة»[٣] لكن الحاكم بامر الله عزله بعد احد عشر شهرا بسبب المشاكل

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١٢٩.

Canard, F. In, ELF (1963, 5.V. Fatimides. P. 877 , B.

(٢) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٨٥

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ١٧٧

ابن سعيد، علي بن موسى المغربي: المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق»، القسم الثاني من الجزء الخاص بمصر، تحقيق حسين نصار بعنوان النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة مركز تحقيق التراث: ٢/ ٥٥، القاهرة ١٩٧٠ م. المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٠ ـ ١٥.

التي اثيرت حوله فاسندت «الواسطة»[1] الى الطواشي برجوان الصقلبي الى ان غضب عليه لطغيانه وتجبره فدبر قتله من قبل ابي الفضل ريدان الصقلبي[2]. ثم رقى كاتبه فهد بن ابراهيم الى منصب الواسطة وتلقب هذا بـ«الرئيس» كذلك تقلد الواسطة ابو نصر بن عبدون سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٩ م وزرعة بن نسطورس (شقيق عيس بن نسطورس وزير العزيز بالله).

وقد ولى الحاكم بأمر الله سليمان بن جعفر بن فلاح دمشق. فتمكن هذا من القضاء على تمرد بنجوتكين الذي سار من دمشق الى الرملة لمنع وصول ابن فلاح. ومع هذا انهزم ولم يصمد امام جيوش الاخير على الرغم من انضمام ابن الجراح الطائي اليه في جموع كثيرة من العرب، ووقع اخيرا أسيرا في قبضة رجال سليمان بن فلاح. ونقل الى القاهرة. وحلّ «تموصلت ابن بكار» محل ابن فلاح على دمشق سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠١ م الى ان أعيد تعيين ابن فلاح سنه ٣٩٨ هـ /١٠٠٧ م، عليها، وكذلك ابن عمه عبد الرحيم بن الياس.

وقلّد فحل بن اسماعيل الكتامي مدينة صور، ويانس الخادم برقة ثم صارت الى صندل الاسود سنة ٣٩٤/ ١٠٠٣ م. وولى ميسور الخادم طرابلس ـ الشام ـ ، وجعل غينا الخادم على غزة وعسقلان والذي قاتل جيش الروم البيزنطيين على افامية، وقتل منهم خمسة آلاف رجل، وواصل تقدمه الى أن تمكن من دخول مرعش.[3]

وبالنسبة الى القضاء، فقد جعل قاضي القضاة ابو عبدالله الحسين بن علي بن النعمان في صفر سنه ٣٨٩ هـ/كانون الثاني/ يناير ٩٩٩م، خلفا

---

(١) تغير اسم الوزارة في عهد الحاكم بأمر الله واستبدل بـ «الواسطة».

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ١٧٨.

ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/ ١٧٠.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٨٥.

لقاضي القضاة المتوفي محمد بن النعمان، ثم عزله بعد خمس سنين وأكثر من ستة أشهر، في شغل وظيفة قاضي القضاة وداعي الدعاة[1]. وقلد الحاكم بأمر الله عبد العزيز بن محمد بن النعمان وظيفة قاضي القضاة والدعوة فضلا عن النظر في المظالم. لكنه صرفه عنها سنة ٣٩٨ هـ/١٠٠٧ م وعين مكانه مالك بن سعيد الفارقي قاض للقضاة ومتسلما كتب الدعوة التي تقرأ في القصر على الاولياء اضافة الى النظر في المظالم.

وأبقى الحاكم بأمر الله الحسين بن جوهر قائد الجيوش الفاطمية، التي افتتحت البلاد المصرية، قائدا للجيش، فضلا عن تكليفه القيام بمهام ديوان الانشاء والبريد، ثم ناظرا في أمور الناس وتدبير الدولة، والتوقيع عن الخليفة الحاكم بأمر الله. ولقبه بلقب « قائد القواد» . وأخيرا أقاله من جميع مهامه، وألزمه هو والقاضي عبد العزيز بن النعمان، وسائر أولادهما، بالبقاء في دورهما، ثم عفا عنهما. ولكنه عاد وغضب عليهما، وأمر بقتلهما في ١٣ جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هـ/ ٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٠١١ م، وحجز أموالهما[2].

ب . تدابيره بحق أهل الذمة

أمر الحاكم بأمر الله النصارى واليهود في سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م بشد الزنار ولبس الغيار. أما في سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م فقد أمر بجمع ما هو محبس على الكنائس ووضعه في الديوان. وأحرق عده صلبان على طريق المقس. وكنيسة كانت بحارة الروم، وكنيسة «القيامة» في القدس.[3]

وأمر النصارى سنة ٤٠٢ هـ/ ١٠١١ م، بلبس السواد وتعليق صلبان

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٤٠ ـ ٤١. السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١٤٧.

(٢) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٨٥.

(٣) ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي، البداية والنهاية: ١٢/ ٩.
منشورات مكتبة المعارف في بيروت، ومكتبة النصر بالرياض)، ط١ سنة ١٩٦٦ م.

الخشب في أعناقهم على ان يكون مكشوفا ليراه الناس، ولا يركبوا غير البغال والحمير (الدواب) بسروج الخشب والسيور السود بغير حلية. وان يشدوا الزنانير ولا يستخدموا عبدا ولا امة (الجارية)[١].

كما ألزم اليهود بأن يكون في أعناقهم جرس اذا دخلوا الحمام، وان يكون في اعناق النصارى صلبان[٢]. وأخيرا أمرهم بالخروج من مصر الى بلاد الروم أو الدخول في الاسلام[٣].

جـ ـ تدابيره بحق النساء

وكانت للحاكم بأمر الله تدابير قاسية بحق النساء، اذ قضت أوامره بمنعهن من الخروج من بيوتهن ليلا نهارا. وقد استثنى من ذلك النساء المتظلمات الى مجلس الحكم، والخارجات الى الحج، والاماء (جمع أمة وهي الجارية) اللواتي يبعن في سوق الرقيق، والعجائز الضعاف اللواتي ينقلن الماء من المصانع[٤]، والقابلات[٥]، والنساء القادمات الى مصر في البر او البحر. وضيق الخناق حتى على اخته « ست الملك»[٦].

---

(١) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٧٧.

(٢) الانطاكي، يحيي بن سعيد: صلة كتاب أوتيخا: ١٨٧.
ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/ ٢٩٣.
ابن اياس، بدائع الزهور: ١/ ٥٠.

(٣) الانطاكي، يحي بن سعيد، صلة كتاب أوتيخا: ٢٠٧ ـ ٢١١.

(٤) المصانع: مفردها مصنعة، وهي الحوض الذي يجمع فيه ماء المطر.

(٥) ابن الاثير، الكامل في التاريخ ٧/ ٣٧٦.
وابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ٣٥٢.
السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ٦٠٢.
متز، آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله الى العربية: محمد عبد الهادي ابو ريد، ٢/ ٢٣٣، بيروت ١٩٦٧م.

(٦) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ٢٠٥. =

وحظر على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز، وحتى البكاء والعويل، وخروج النائحات بالطبل والزمر على الميت، وزيارة المقابر في الاعياد والمناسبات. وتطبيقا لاوامره القاسية بحق النساء، فقد أمر الاساكفة بعدم عَمَلَ الاخفاف[١] لهن[٢].

د ـ تدابيره الاخرى

منع الناس من أكل الملوخية والجرجير والمتوكلية (نسبة الى المتوكل على الله العباسي ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م. ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م) ، وذبح الابقار السليمة من العاهة الا في أيام الاضحية.

منع بيع الفقاع (البيرة) وعمله البتة، وبيع المسكرات كلها. فكُسِرت أواني الخمور، وأريقت من سائر الاماكن. وفي سنة ٤٠٢ هـ/ ١٠١١م، مُنع بيع الزبيب وأُلقي قسم كبير منه في النيل وأحرق الشيء الاكثر، وديس العنب في الطرقات، وقطعت اشجاره.[٣]

وأمر الا يباع شيء من سمك بدون قشر، وألا يصطاده واحد من الصيادين.

وأكره الناس في سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م، على سب السلف ولعنهم وكتابة ذلك بالأصباغ او نقشه على ابواب المساجد والجوامع بمصر، وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر[٤]، ثم أمر بمحوه سنة ٣٩٧ هـ/ ١٠٠٦م.

= ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٤/ ٦١.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١١٥.

(١) الاخفاف: مفردها الخف او الحذاء الذي يلبس.

(٢) ابن سعيد، القسم الخاص بعصر ٢٠٠٠/ ٦٦٤.

(٣) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٨٧.

(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ٣٥٥.
ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٧٦.

منع الغناء واللهو والاجتماع في الصحراء أو على شاطىء النيل للتفرج.

منع الناس من تقبيل الارض اكراما له، او تقبيل ركابه او يديه عند السلام عليه في المواكب، وألا يصلي عليه احد في مكاتبة ولا مخاطبة، ويقتصر في مكاتبته على سلام الله وتحياته[١].

هـ ـ قضاؤه على ثورة أبي ركوة

وثار أبو ركوة، على الحاكم بأمر الله، سنة ٣٩٦ هـ/ ١٠٠٥م[٢]، داعيا لنفسه، ومدعيا انه من بني أمية. فشدّ ازره بنو قرة بسبب عدائهم للحاكم بأمر الله لقتله جماعة من أعيانهم، وبايعوه. واستجابت له قبائل لواتة وزناتة التي اتفقت على الصلح مع قبيله قرة. كما أيدته قبيلة رقادة. ولما كثر اتباعه تمكن من السيطرة على برقة وهزم جيوش الحاكم بأمر الله، لكن الخليفة الفاطمي تمكن من القضاء على ثورته وقبض عليه في النوبة ثم جلبه الى القاهرة حيث شهر به على ظهر جمل سنة ٣٩٧ هـ/ ١٠٠٦م، وَقُتل في اليوم التالي[٣].

وعلى الرغم من شدته وقتله العديد من موظفيه كبارا وصغارا فقد كان متسامحا، عطوفا في اوقات الشدة يأمر بأبطال الضرائب المفروضة على الناس وعدم جمعها عندما يشتد الغلاء[٤].

---

(١) المقريزي، الخطط؛ ٢/ ٢٨٨.

ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٧٨.

(٢) ابو ركوة: هو الوليد بن هشام بن عبد الملك بن مروان الاموي، هرب من الاندلس وهو في العشرين من عمره، خوفا على حياته، إلى مصر، ثم مكة فاليمن ليعود الى مصر ويدعو بها الى القائم بأمر الله العباسي.

ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ٢٣٤.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ٢٣٤ ـ ٢٣٨.

ابن كثير، البداية والنهاية: ١٢/ ٣٣٧. ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٧٧ و ٢١٥ ـ ٢١٧.

(٤) المقريزي، الخطط: ٢/ ٣٨٨.

أكثر الحاكم بأمر الله، في اواخر ايامه من الركوب على حمار والدوران حول القصر أو الصعود أحياناً إلى الجبل المقطم. أو الخروج وهو محمول على محفة فوق الاعناق، وأحيانا في عشاري (سفينة صغيرة) بغير عمامة. ومرة يركب حماره، وهو لابس زراعة صوف بيضاء، وفوطة على رأسه، ويخرج الى الصحراء[1]. وقد خرج ذات ليلة من عام ٤١١ هـ/ ١٠٢٠م، راكبا ومعه ركابيان وتسعة من العرب السويديين، على الرغم من توسلات والدته اليه بعدم الخروج في تلك الليلة[2]، فلم يأبه لتوسلاتها فخرج ولم يَعُد، واختفى كل أثر له.

٧ـ خلافة الظاهر لاعزاز دين الله

بعد اختفاء الحاكم بأمر الله على نحو ما ذكرته، دأبت « ست الملك» . أخته . على ترتيب امر تولية أبي الحسن علي ابن شقيقها، بدلا من ولي العهد «عبد الرحيم بن الياس»، المقيم بدمشق نيابة عن الحاكم بأمر الله.

وفي اليوم السابع، الموافق لعيد النحر سنة ٤١١ هـ/ ١٠٢٠م، ألبست أبا الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله أفخر الملابس، ووضعت على رأسه تاج (وفيه من الجوهر الشيء الكثير) المعز لدين الله جد أبيه، واركبته مركبا من مراكب الخليفة. ولما خرج الى باب القصر سلموا عليه مبايعين، ولقبوه «الظاهر لاعزاز دين الله»[3].

أعاد الظاهر لإعزاز دين الله البهجة للناس في الغائه الرسوم التي كان والده الحاكم بأمر الله قد فرضها، بالسماح بالاستماع الى الغناء، وإقامة الملاهي، والترخيص بشرب الخمر والفقاع، وأكل الملوخية وجميع

---

(١) المقريزي، الخطط: ٢/ ٣٨٨.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٢/ ١٠.

ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٩٠.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ٣٠٤.

ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٨٩ ـ ١٩١ و٢٤٧.

الأسماك[1]. وأشرف بنفسه على مصالح رعيته، واصلاح البلاد. فاستقامت له الأمور حتى وفاة عمته ـ ست الملك ـ ثم تحكّم بها الشريف الكبير العجمي، والشيخ نجيب الدولة الجرجرائي[2]، والشيخ العميد محسن بن بدوس، مع ابي الفوارس الخادم الأسود القائد معضاد، والذين قرروا ان لا يدخل على الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله احد غيرهم، بينما مظفر ـ صاحب المظلة ـ شمس الملوك، وابن حيران ـ صاحب ديوان الإنشاء وداعي الدعاة ونقيب نقباء الطالبيين وقاضي القضاة ـ لا يدخلوا على الظاهر لإعزاز دين الله الا كل عشرين يوماً[3].

اضطربت الحالة الاجتماعية في عهد هذا الخليفة، واشتد الغلاء، وفشت الأمراض، وكثر الموت في الناس. وانتشر اللصوص في كل مكان حتى تعرّض الحجاج في اثناء الطريق، وأخذت منهم أموالهم، وقتل بعضهم فتفاقم الأمر، وصاح الناس بالظاهر (الخليفة): الجوع، الجوع يا أمير المؤمنين، لم يصنع بنا هذا أبوك، ولا جدك، فالله الله في أمرنا[4].

عندها لجأ الخليفة إلى طلب القروض من المتموّلين في دولته، فلبّى طلبه بعضهم وامتنع آخرون، كما نَودي في البلاد بأن كل من يتعرّض له أحد من العبيد فليقتله. وفي الوقت ذاته سُيرت دوريات خلف اللصوص من العبيد الذين أُلْقي القبض على جماعة منهم وضربت أعناقهم[5]، ثم مَنع سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م، ذبح الأبقار السليمة من

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٤. ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٢٤٨.

(٢) الجرجرائي: هو علي بن أحمد الجرجرائي، وزر الظاهر لاعزاز دين الله وهو أقطع اليدين من المرفقين، وقد قطعهما له الحاكم بأمرالله سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣م. ومع هذا اختير وزيرا ولقب بـ «نجيب الدولة» وكان كاتبه القاضي عبد الله القضاعي. (ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٢٤٨).

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٤.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٤.

(٥) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٤

العيوب التي تصلح للحرث وغيره، وأباح ذبح ما لا يصلح للعمل ولا يحصل به النفع.

استقل بحكم الشام وحلب صالح بن مرداس الكلابي (اسد الدولة)، بعدما حاصر الأخيرة، وبها مرتضى الدولة ابو نصر بن لؤلؤة الحمداني، نيابة عن الظاهر لإعزاز دين الله، وأخذها منه. كما تغلّب حسان بن المفرّج ابن الجرّاح الطائي صاحب الرملة على غالبية بلاد الشام الجنوبية. لكن الخليفة الظاهر بعث بجيش كثير عليه القائد انوشتكين منتخب الدولة التركي، أمين الجيوش المعروف بـ«الدزبري»[1] الذي تمكّن من الانتصار على صالح بن مرداس وحسان بن المفرّج بن الجرّاح الطائي، فقتل صالح وابنه الأصغر، بينما هرب نصر بن صالح ابنه الأكبر إلى حلب، وفرّ حسان الطائي[2].

وعقد الظاهر لإعزاز دين الله هدنة مع الروم البيزنطيين، تَم بموجبها اصلاح جامع القسطنطينية وعيّن له مؤذنا. وفي المقابل اعاد بناء كنيسة القيامة التي خربت في ايام والده الحاكم بأمر الله. كما سمح الخليفة الفاطمي لمن أظهر الإسلام في أيام والده، الحاكم بأمر الله أن يَعود إلى النصرانية، فرجع الكثير منهم[3].

أخذ الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله البيعة لابنه ابو تميم منذ سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م، بولاية العهد. وتوفي الظاهر أخيراً بعلة الاستسقاء بعدما قضى في الخلافة الفاطمية اكثر من ست عشرة سنة وذلك سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ م.

---

(١) هو الامير المظفّر امير الجيوش عدة الامام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالي ابو منصور انوشتكين، مملوكا من بلاد ما وراء النهر، سبي الى بغداد ثم جيء به الى دمشق سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م فاشتراه القائد تزبر بن أوقيم الديلمي فنسب اليه الدزبري.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٥.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٥.

٨ ـ خلافة المستنصر بالله:

وليَ الخلافة أبو تميم مَعِدْ، الملقّب بالمستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله، بعد موت أبيه في منتصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ/ ٢٢ يوليو ١٠٣٥م، وله من العمر سبع سنين. فبقي في الخلافة اكثر من ستين سنة.

أقام أبو الحارث البساسيري الخطبة للمستنصر بالله في بغداد سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م اربعين مرة[١] لكن المعز بن باديس بن المنصور ابن بلكين قطعها كما قطعت الخطبة له في حلب ومكة والمدينة[٢].

وانتشر الغلاء في أيامه حتى عمّ جميع الأراضي المصرية، مدة سبع سنين الى ان أكل الناس بعضهم بعضا. فبيع رغيف الخبز الواحد بخمسين دينارا. وبلغ الأمر بالمستنصر الى ان استعار بغله يركبها من صاحب ديوان الانشاء، وخواصه ليس لهم دواب يركبونها. وإذا مشوا سقطوا من الجوع. كما اضطرت والدته[٣] وبناته الى النزوح الى بغداد خوفاً من أن يَمُتْنَ جوعاً[٤].

وإزاء هذا الغلاء جار الأمير بدر الجمالي سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م من عكا إلى مصر، ليتولّ تدبير الأمور للمستنصر بالله فاستبد بها[٥] ولم يبقَ للأخير سوى الاسم[٦].

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٨/ ٨٣ ـ ٨٤. وابن كثير، البداية النهاية: ١٢/ ٧٦.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٢/ ـ ٢٠.

(٣) يقال: ان والدة المستنصر بالله، كانت أمة سوداء لتاجر يهودي يدعى أبو سعد سهل بن هرون التستري، فابتاعها منه الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله واستولدها المستنصر بالله، المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٥.

(٤) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ١٢ ـ ١٥.

(٥) المقريزي، الخطط: ١/٣٥٦ . وأبو المحاسن، النجوم الزاهرة : ٥/ ٢٢ ـ ٢٣.

(٦) السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ٦٠٩.

واتفق ابن حمدان مع الشريف ابي طاهر حيدرة بن الحسن السيني ـ الذي كان قد نفاه بدر الجمالي من دمشق ودخل الى مصر ـ وحازم وحميد ابنا الجرّاح، بعدما أخرجهما الأول من حبس الخليفة، على أن يكون الشريف مكان المستنصر بالله في الخلافة لنسبه للصحيح. فانقسم عسكر مصر قسمين: قسما مع ابن حمدان، وقسما عليه، الى ان تخلّص منه المستنصر بالله بقتله[1].

وتحكّمت والدة المستنصر بالله، في أمور الحكم أيضاً، اذ استوزرت سيدها[2] أبا سعد التستري اليهودي لابنها. ثم دبّرت عملية قتل أبي منصور الفلاحي انتقاما، لضلوعه في مقتل ابي سعد بعدما شرعت في شراء العبيد السود الذين تسبّبوا بالفتنة التي ذهب ضحيتها عدد كبير من العبيد والأتراك. وقد انكر المستنصر بالله على والدته تدخّلها في شؤون الحكم ومناصرتها لطائفة العبيد[3]. ومات المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م، بعد ان أوصى بالخلافة لابنه البكر نزار[4].

٩ ـ خلافة المستعلي بالله

بويع أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله بالخلافة بعد موت أبيه سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م، يوم عيد الغدير، وله من العمر عشرين سنة، ولقّب بـ«المستعلي بالله»: وكان المستنصر بالله قد سمّى ولده البكر أبا منصور نزار لتكون له ولاية العهد بالخلافة. لكن الأفضل شاهنشاه، ابن امير الجيوش بدر الجمالي، تباطأ في أخذ البيعة له عند مرض المستنصر بالله، وصار

---

(١) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ١٣ ـ ٢٢.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ١٩.

(٣) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ١٧ ـ ١٨.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٣٢١.

يؤجّل حتى مات الخليفة، بسبب كراهيته لنزار. وتفصيل ذلك[١]: خرج الأفضل ذات يوم في حياة الخليفة المستنصر بالله، وهو راكب، ودخل من أحد أبواب القصر، فصاح به نزار المذكور: انزل يا أرمنيّ يا نجس، فحقد عليه الأفضل من وقتها، وصار كل منهما يكره الآخر.

وبعد موت المستنصر بالله، اجتمع الأفضل بالأمراء والخواص وخوّفهم من نزار، وأشار عليهم بولاية أخيه الصغير ابي القاسم أحمد. فرضوا بذلك باستثناء محمود بن مصّال اللكي[٢]، لأن نزار كان قد وعده بالوزارة وقيادة الجيوش مكان الأفضل. فلما علم باجتماع الأفضل بالأمراء والخواص اخبرَ نزار بالأمر.

بادر الأفضل بمبايعة ابي القاسم احمد، ولقّبه بالمستعلي بالله، وأخذ له البيعة من قاضي القضاة، ومقدّمي الدولة ورؤسائها وأعيانها، ومن أخوي المستعلي بالله: اسماعيل وعبدالله، وكتب سجلاً بذلك قُرأ على الأمراء. أما نزار فقد هرب مع شقيقه عبدالله وابن مصّال اللكي متوجهين نحو الاسكندرية، وفيها اخذ نزار البيعة لنفسه من واليها ناصر الدولة افتكين التركي ـ احد مماليك بدر الجمالي ـ بعد ان وعده بالوزارة[٣]. كما بايع نزار ايضاً جميع أهل الاسكندرية وقاضيها ابن عمار ولقّب بالمصطفى لدين الله.

إلا ان الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي لحق بنزار على رأس قوة

---

(١) ابن منجب الصيرفي، ابو القاسم، والاشارة الى مَن نال الوزارة، منشورات العلمي الفرنسي، ٢٧، القاهرة ١٩٢٤م.

(٢) ينسب محمود بن مصّال الى بلدة الك، وهي من نواحي برقة، بين الاسكندرية وطرابلس الغرب، ياقوت الحموي، شهاب الدين ابي عبد الله، معجم البلدان: ٥/ ٢٣، منشورات دار صادر ودار بيروت.

(٣) ابن القلانسي، ابي يعلي حمزة، ذيل تاريخ دمشق: ١٢٨، منشورات الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م.

من جيشه الى الاسكندرية. ودخلها عنوة. فقتل اعيانها، واعتقل افتكين وابن عمار ثم قتل الأخير، اما افتكين فقد قتله المستعلي بالله بيده، وبنى على أخيه نزار حائطاً مات تحته[1].

ولم يكن للمستعلي بالله مع الأفضل بن امير الجيوش حكم اذ كان معه، كما كان والده مع بدر الجمالي. وضعفت الدولة الفاطمية في أيامه، وانقطعت الخطبة لهم من اكثر مدن الشام، واستولى الافرنج على انطاكية وبيت المقدس والرملة. ومات المستعلي بالله في صفر سنة ٤٩٥ هـ/ كانون الاول/ دسمبر/ سنة١١٠١م.

١٠ ـ خلافة الآمر بأحكام الله

وُلّي أبو علي منصور بن المستعلي بالله أبي القاسم أحمد الخلافة، وهو صبي في الخامسة من عمره سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١م، بعد وفاة والده. وتلقّب بالآمر بأحكام الله. تحكّم في تدبير دولته وزيره الأفضل شاهنشاه ابن امير الجيوش بدر الجمالي لكنه عندما كَبُر عمل على تدبير مؤامرة قتل وزير الأفضل للتخلّص منه[2]. ثم جعل الآمر بأحكام الله القائد ابي عبدالله محمد بن مختار بن فاتك البطائحي وزيراً مكانه.

وفي أثناء خروج الخليفة الى جزيرة الروضة، وثب عليه، في الطريق، قوم ـ قيل: كانوا غلمان الأفضل ـ بسيوفهم، فضربوه وأصابوه بجراح بالغة. وحَمل في مركب الى القصر حيث مات في يومه، ولم يعقب[3]. ابتهج الناس لمقتل الآمر بأحكام الله بسبب سوء سلوكه.

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٨/ ١٧٣.
ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ١٤٥.

(٢) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٢/ ٤٥٠ و٥/ ٢٩٩.
ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٢١٨ و٢٢٢.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٨/ ٣٣٢.
ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/ ٣٠١ ـ ٣٠٢.

١١ ـ خلافة الحافظ لدين الله[١]

استلم ابو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد ابن الخليفة المستنصر بالله معد، بعد قتل ابن عمه الآمر ابي علي منصور الذي لم يخلف ولداً ذكراً، بل ترك امرأة حاملاً، كما نصّ على الحمل قبل موته، فوضعت الحامل بنتاً، فاختاروا الحافظ هذا[٢]. ولقّبوه بلقب الحافظ لدين الله الذي استضعفه وزيره ابو علي أحمد بن الأفضل أمير الجيوش، اذ دعا الوزير المذكور لنفسه على المنابر، ووضع الخليفة في الحجر، ومنعه من الظهور ومقابلة أحد إلاً بأمره. ثم نهب محتويات القصر قائلاً[٣]: «هذا مال أبي وجدي». ولم يكن للخليفة مع وزيره أبي علي أحمد الا الإسم.

ولم يستمد الحافظ لدين الله السلطة الا بعد وفاة وزيره المذكور الذي ذهب ضحية استبداده وتسلّطه. ثم وزر له جماعة منهم، يانس امير الجيوش، ثم ابنه الحسن، فبهرام الأرمني. وكان الخليفة قد أوصى قبل وفاته إلى ولده ابي منصور اسماعيل[٤].

١٢ ـ خلافة الظافر بأمر الله

بُويع أبو منصور اسماعيل بن الحافظ لدين الله بالخلافة بعد موت أبيه في جمادي الآخرة سنة ٥٤٤ هـ/تشرين الأول/اكتوبر ١١٤٩ م، وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر، ولقّب بالظافر بأمر الله. وزر له عباس الصنهاجي[٥]. فاستولى عليه لحداثة سنة وانشغاله باللهو والتفرّد

---

(١) هو أول خليفة فاطمي لم يَلِ والده الخلافة (ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٣٧).

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٣٧.

(٣) ابن الأثير الكامل في التاريخ: ٨/ ٣٣٢. وابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٣٩ و٢٤٧ ـ ٢٤٨

(٤) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٤١و ٢٤٥.

(٥) هو ابو الفضل عباس بن يحي بن تميم بن المعز بن باديس (ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٣/ ٤١٧ ـ ٤١٨ و٤٩١ ـ ٤٩٤).

بالجواري[١]. ثم دبّر الوزير عباس وولده نصر مقتل الخليفة الظافر بأمر الله وأخويه يوسف وجبريل، وابن عمهما صالح بن الحسن[٢]، وأقام ولده عيسى خليفة مكانه سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م.

١٣ ـ خلافة الفائز بنصرالله

بايع الوزير عباس لعيسى بن الخليفة الظافر بأمر الله وهو ابن خمس سنين، بعدما حمله على كتفه، وأخرجه للناس ـ في الوقت الذي بقيت فيه جثث القتلى الثلاثة ملقاة على الأرض ـ فقال لهم: «هذا ولد مولاكم وقد قتل عمّاه مولاكم، وقد قتلتهما كما ترون به، وأشار الى القتلى. والواجب اخلاص الطاعة لهذا الولد الطفل. فقالوا كلهم: سمعنا واطعنا، وصرخوا صرخة واحدة بذلك. ففزع الطفل ـ يعني الفائز عيسى ـ ومال على كتف عباس من الفزع. ثم سيّروه إلى أمه وقد اختل عقله[٣].

لكن هذا العمل من جانب عباس لم يُرض اهل القصر، فكاتبوا طلائع بن رزيك (الأرمني) والي منية بني خصيب [٤] ـ لأخذ الثأر. وهو ما جعل عباس ابنه نصر يجمعان الأهل والأمراء المؤيدين وأموالهما، ويسرعان في الهرب من القاهرة نحو بلاد الشام خوفاً من لقاء طلائع بن رزيك في حشده الكثير[٥].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/ ٣٣٧. وأبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٨٨.

(٢) يقول ابن القلانسي: ان اخو الخليفة (يوسف وجبريل) وابن عمهم صالح بن المحسن قتلوه وأخفوه لذلك قتلهم عباس انتقاما للخليفة. (ذيل تاريخ دمشق ٣٢٩)

(٣) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٠٨.

(٤) منية الخصيب: تقع على الشاطىء الشرقي للنيل وهي على اسم الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر في عهد الخليفة هارون الرشيد العباسي. ثم اشتهرت باسم المنية والمنيا اسمها الحالي. وهي قاعدة مديرية المنيا اعتبارا من سنة ١٣٤٩/ ١٨٣٣م (ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٠٩).

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق: ٣٣.

وهكذا صارت الوزارة الى طلائع بين رزيك حتى وفاة الخليفة الصغير الفائز بنصر الله في شهر رجب سنة ٥٥٥ هـ/ تموز/ يوليو سنة ١١٦٠م.

١٤ ـ خلافة العاضد لدين الله[١]:

بُويع ابو محمد عبدالله بن الأمير يوسف[٢]، ابن الخليفة الحافظ لدين الله عبدالمجيد بالخلافة، بعد موت ابن عمه الخليفة الفائز بنصر الله عيسى سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م، وهو ابن احدى عشرة سنة وعدة أشهر.

وزر العاضد لدين الله بعد مقتل طلائع بن رزيك ولد الأخير رزيك بن طلائع بن رزيك، وشاور بن مجير السعدي للمرة الأولى، وثم ضرغام بن عامر، فشاور ثانيةً إلى ان صارت إلى أسد الدين شيركوه[٣] ثم ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب الذي بقي في الحكم حتى وفاة الخليفة العاضد لدين الله، يوم ذكرى عاشوراء، العاشر من محرّم سنة ٥٦٧ هـ/ ١٣ أيلول/ سبتمبر/ سنة ١١٧١م.

وقد كان العاضد لدين الله مع صلاح الدين صورة، للأول الاسم وللثاني الحكم، الى ان خلعه، وخطب للمستضيء بأمر الله العباسي[٤]. وبموت هذا الخليفة انتهت الخلافة الفاطمية لتقوم مكانها دولة الايوبيين.

---

(١) لم يتول الخلافة الفاطمية من ليس أبوه خليفة سواه وسوى الحافظ لدين الله. (ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٣/ ٢٣٦).

(٢) يوسف: هو احد الاخوين اللذين قتلهما عباس الصنهاجي بعد مقتل الظافر بأمر الله. (انظر خلافة الفائز).

(٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٢/ ٤٨٠.

(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٤٠.

القسم الثاني

بناء مصر ـ القاهرة

تمهيد

استطاعت مدينة القاهرة بمدة قصيرة ان تضاهي بغداد العباسية، بعدما قامت فيها جميع معالم الحضارة، اذ ارتفعت فيها الدور والقصور، وانشئت الميادين والساحات، وبنيت القياسر والحوانيت والمناظر والمنتزهات، وشقت الطرقات والساحات. وساد الأمن فيها اكثر أيام الدولة الفاطمية. وأصبحت مركز الدولة ومقر الخلافة وعاصمة البلاد، على الرغم من بقاء مدينة مصر (الفسطاط) محافظة على مركزها التجاري والصناعي.

ونشطت الحركة العمرانية في القاهرة بعدما اختطت القبائل والطوائف الطارئة اليها الخطط والحارات، وقامت الخلافة الفاطمية ببناء القياسر والقصور والحوانيت والدور لتؤجرها الى أصحاب الحاجات بأجر معلوم، فكانت اول خطوة خطتها الدولة الفاطمية في العالم الإسلامي ببناء الوحدات السكنية.

ولما كان الهدف من انشاء مدينة القاهرة جعلها عاصمة للدولة الفاطمية، كان لزاماً علينا الرجوع الى بحث تاريخ بناء القاهرة، واتصالها بالأقسام التي كملتها فتألف منها جميعاً ما سُمّي فيما بعد بـ«مصر ـ القاهرة» ولا سيّما بعدما ازدهرت الحركة العمرانية في القاهرة، على أثر الحريق الذي تعرّضت له مدينة مصر (الفسطاط). فامتدت خارج اسوارها وبنيت المساحات التي كانت تفصل القاهرة عن مدينة مصر، فاتصلت المدينتان، وشكّلتا مدينة واحدة.

وكان لاقتراب الأبنية وارتفاعها فوق المساحات الفاصلة بين المدينتين، ان اختلطت مصالح السكان فيهما، وتوحّدت اهدافهم، وجمعهم المصير الواحد. وتخلّقوا بأخلاق واحدة، وتعوّدوا عادات واحدة، وجمعتهم الولائم والمواكب والاحتفالات الواحدة.

وهذا يؤدي إلى ضرورة كتابة هذا القسم الذي تبقى دراستنا ناقصة بدونه، لأن تحديد الأطر الجغرافية العامة لمدينة مصر ـ القاهرة، ومعالنها التاريخية يوثق الصلة ما بين السكان وبيئتهم الإجتماعية ويؤكد العلائق بين طبقات المجتمع ومستوى معيشة الناس في ظل الخلافة الفاطمية فوق بقعة من الأرض تمثّلت عليها مختلف العادات والتقاليد، واجتمعت فيها عناصر سكانية متضادة، تدفعها الى العيش معاً قوة السلطان، ويفرّقها التحاسد والتنابذ.

وسنبدأ أولاً في الحديث عن بناء القاهرة المعزية، وننتقل بعد ذلك الى الكلام على مدينة مصر (الفسطاط) وبقية الأجزاء التي ألّفت مدينة مصر ـ القاهرة، ثم القاهرة. وهذا السياق في الكلام على القاهرة قبل مدينة مصر (الفسطاط) لأن الأولى اخذت الإسم، وكونها فاطمية البناء ليس إلا.

الفصل الأول

بناء القاهرة

مرّ بناء القاهرة بمراحل تاريخية، أهمها مرحلتان:

المرحلة الأولى:

مرحلة قاهرة بانيها جوهر الصقلي، او قاهرة المعز لدين الله. لم تكن الا معسكراً صغيراً ارتفع في وسطها القصر الكبير (الشرقي) الذي بناه لمولاه الخليفة، المعز لدين الله، وفق التصاميم التي أمره بها، فوق رقعة من الأرض بلغت مساحتها سبعين فدانا.

فقد دانت البلاد المصرية لجوهر الصقلي ـ قائد الجيوش الفاطمية ـ بعدما تمكّن من التغلّب على الأخشيديين، وحدد الأمان لأهلها، وعبر مدينة مصر (الفسطاط)، ونزل بعساكره على الساحل الرملي الى الشمال منها، وشرع ليلاً في حفر اساس القاهرة[1] في السابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ/ ٢ تموز/ يوليو ٩٦٩م.

ووقع اختياره على ساحل مدينة مصر (الفسطاط) الرملي فيما بينها من الجنوب وعينْ شمس من الشمال وخليج أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) ـ الذي عُرف فيما بعد بالخليج الكبير. والخليج الحاكمي (الحاكم بأمر الله)، وخليج القاهرة ـ من الغرب.

وامتدت حدود مدينة القاهرة بعد ذلك الى الشرق حتى سفح جبل المقطم. ولم تكن بهذا الساحل غير البساتين وأماكن قليلة منها:

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ٣١٠.

ـ بستان الأخشيد، محمد بن طغج، المعروف بالكافوري (وكان يقع شرقي خليج أمير المؤمنين) ـ ومحله أيام علي مبارك (صاحب الخطط التوفيقية) فيما بين جامع الشعراني والسكة الجديدة قريباً من قنطرة الموسكي ـ [1] وبجانبه من الناحية الشرقية، الميدان الكافوري.

ـ ودير للنصارى يعرف بدير العظام ـ لأن فيه بعض من ادرك السيد المسيح كما ذكر المقريزي في خططه[2]. وبجانب هذا الدير بئر ماء تعرف ببئر العظام، أو كما تسميها العامة، على حد قول المقريزي في خططه ايضاً بـ«بئر العظمة»، ومنها ينقل الماء الى الجامع الأقمر الذي بُني في موضع الدير هذا.

ـ وموضع ثالث، يعرف بقصيّر الشوك، (بصيغة التصغير) كانت تنزله بنو عذرة في الجاهلية، وصار يعرف بقصر الشوك عند بناء القاهرة[3].

وبُنيت مدينة القاهرة على امتداد الأرض من المأذنة الجنوبية لمسجد الحاكم شمالاً، وإلى باب زويلة القديم جنوباً، ومن شاطىء الخليج غربا الى حدودها الحالية عند جبل المقطم شرقا[4]، فجاءت ذات شكل هندسي شبه مربّع تقريباً. فكان طولها على الخليج الفا ومائتي متر (٢٢٠٠م)، وعرضها الفا ومائة متر (١١٠٠م) وتبلغ مساحتها اذاً مليونا واربعمائة وثمان وعشرين الف متر مربع (١,٤٢٨,٠٠٠م^{2}) أو نحوا من ثلاثمائة واربعين فدّاناً، (على

---

(١) مبارك، علي باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر ـ القاهرة، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، طبعة مصورة من الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٩٥٩م، (الهيئة المصرية العامة للكتاب): ١/ ٣١

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٥٩

(٣) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٤) فييت، غاستون: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة الدكتور مصطفى العبادي، (نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر) بيروت ـ نيويورك ١٩٦٨م. مكتبة لبنان، ٣٧.

اعتبار الفدان اربعة آلاف ومائتين من الأمتار المربعة) منها نحو سبعين فداناً بُني عليها القصر الكبير (الشرقي) الذي امتدت واجهته الغربية، من المسجد الأقمر حتى مدرسة الملك الصالح أيوب، في حوالى ثلاثمائة وخمسة واربعين متراً[١].

وتشكّل ارض البستان الكافوري على الخليج، خمسة وثلاثين فداناً، وتشغل ايضاً ارض الميدان في الشمال الشرقي من القصر الكبير مثلها. وأُقيمت فوق الأرض الباقية، البالغة مائتي فدان، الحارات، التي وزعت على الفرق العسكرية، على جانبي الشارع، الذي اخترق المدينة من الشمال الى الجنوب، وعرف بأسماء مختلفة منها: قصبة القاهرة، وأشهرها اخيراً شارع النحّاسين.

وبدأ جوهر الصقلي في حفر أساس عاصمة الفاطميين الجديدة والقصر الكبير، فيما دخلت العساكر الفاطمية بلاد مصر، يوم الثلاثاء في السابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ/ تموز/ يوليو ٩٦٩ م. وعندما اصبح في اليوم التالي، حضر المصريون لتهنئته، فوجدوه قد حفر أساس القصر ليلاً، وكانت فيه ازورارات فلم تعجبه، لكنه لم يغيّر فيه شيئاً، وقال: «قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة»[٢]. وتركه على حاله بعدما كان قد أدخل فيه دير العظام الذي بني محله الجامع الأقمر وقامت كل قبيلة من القبائل التي جاءت معه باختطاط خطة (حارة) عرفت بها، فمثلاً: حارة زويلة، والحارة البرقية . . . الخ. كما بني الى الجنوب من القصر الجامع الأزهر[٣].

---

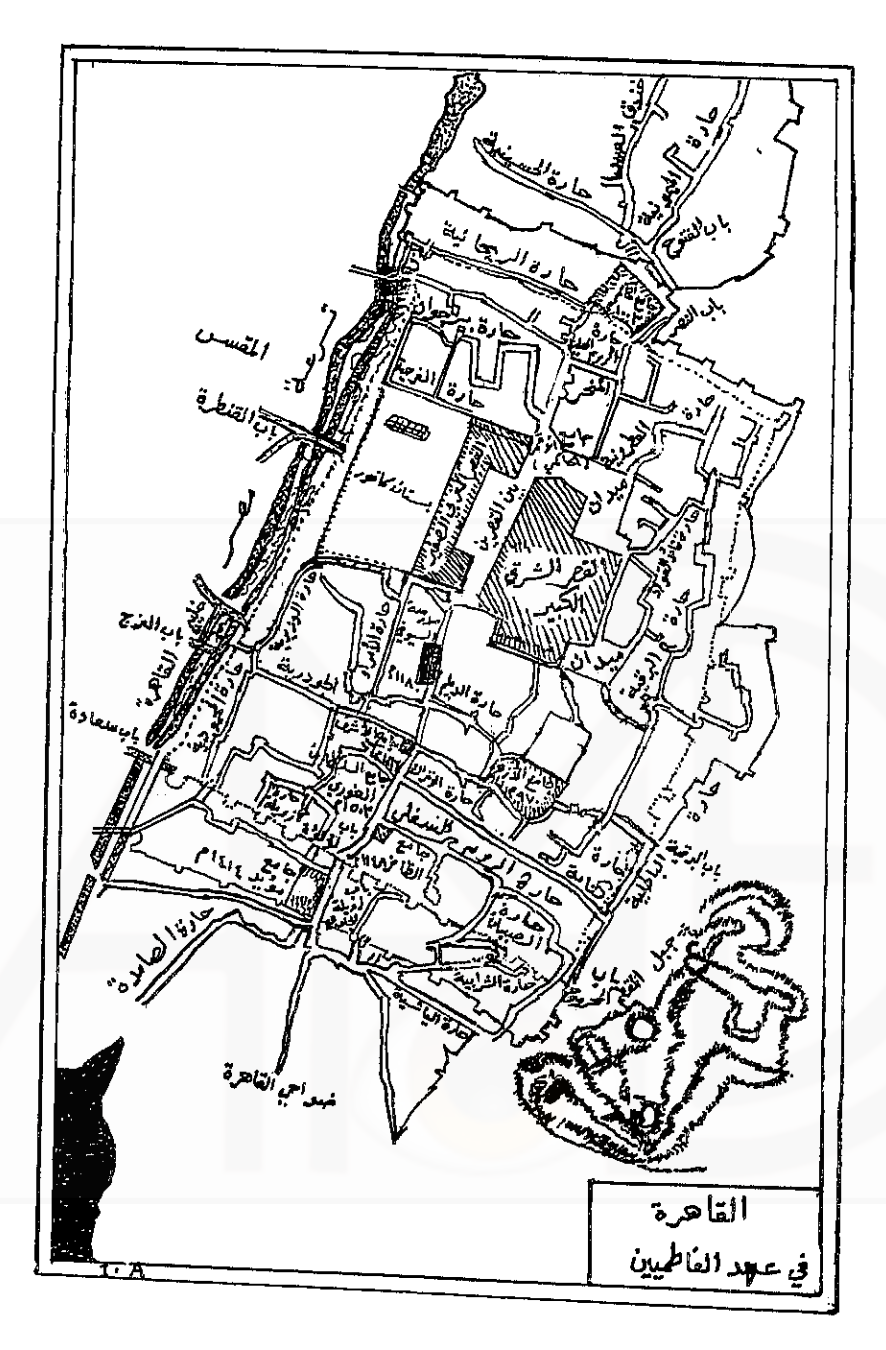
(١) مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٧و٢٠٦.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦١.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٣١.

مبارك: خطط التوفيقية: ١/ ٣٦٦.

(٣) انظر موضع الجامع على الخريطة رقم ١.



القاهرة في عهد الفاطميين

وهكذا انشأ جوهر الصقلي حاضرة جديدة للفاطميين في الديار المصرية، وأحاطها بسور كبير من اللبن، ضمّ الأحياء التي تكوّنت منها القاهرة المعزية والقصر الجامع، ليجعل منها حصناً ضد هجمات القرامطة، تتحصّن به عساكره، فيقاتلهم من دونها. وكان السور من الناحية الغربية بعيداً عن الخليج نحو ثلاثين مترا. وزيادة في الحيطة عمد جوهر الصقلي إلى حفر خندق من الناحية الشمالية (البحرية) خارج السور ليمنع اقتحام عساكر القرامطة القاهرة وما وراءها. فأصبحت محاطة بالخنادق من جميع الجهات، لأن عمرو بن العاص كان قد حفر خندقاً شرقي قبر الإمام الشافعي من الجهة الجنوبية، وكان من الجهة الشرقية خندق اليحاميم اول الجبل الأحور المعروف باليحاميم، وخندق آخر من غربيها وهو الخليج (خليج امير المؤمنين)[1].

وفتح جوهر الصقلي في سور القاهرة عدّة أبواب منها: من الجهة الجنوبية، بابا زويلة المتجاوران ويصلان بالسالك عبرهما الى مدينة مصر (الفسطاط)، أحدهما المجاور للمسجد المعروف بسام بن نوح سمي «باب القوس» وقد دخل منه المعز لدين الله الى القاهرة عند مجيئه من المغرب[2]، لذلك تفاءل الناس به واتخذوه معبراً في دخولهم وخروجهم، بينما تشاءموا من الباب الثاني، وامتنعوا من الولوج عبره، وقد زال هذا الباب، ولم يبقَ له من أثر، أمّا الباب الأول فقد بقي عقده فقط. وسمّي البابان ببابي زويلة نسبة الى قبيلة زويلة احدى قبائل البربر التي جاءت مع جوهر الصقلي عند فتح القاهرة.

---

(١) مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٥.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١٣٧.

والخطط: ١/ ٣٦١، ٣٨٢.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٣٧.

مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٦.

وجعل في الجهة الشرقية بابين ايضا: هما الباب المحروق، وباب البرقية، وهو خارج حارة البرقية، التي انشأتها قبيلة برقة، والتي تعرف اليوم بالدراسة[1].

وأقام في السور من الجهة الشمالية بابين ايضا: الأول منهما باب النصر القديم، ويقول عنه علي باشا مبارك في «الخطط التوفيقية»[2] أنه كان بجوار زاوية القاصد، والثاني باب الفتوح القديم، وهذا كان بجوار حارة بين السيارج التي في خارج السور، وبينهما جامع الحاكم من الخارج ايضاً.

وركب في الجهة الغربية، باب سعادة، الموصل الى درب سعادة ـ ومحله الحد القبلي لمنزل الأمير منصور باشا، وبقرب الميدان الكائن امام هذا المنزل كما يذكر علي باشا مبارك[3]، باب القنطرة، وسُمّي كذلك لأنه بني فوق القنطرة التي بناها جوهر الصقلي على الخليج عند مجيء المعز لدين الله الى القاهرة، وباب ثالث يعرف بباب الفرج، ورابع باب الخوخة، وقد زالت هذه الأبواب الثلاثة الأخيرة[4].

وانتهى جوهر الصقلي من بناء السور حول القاهرة سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م، ولكن هذا السور اعاد أمير الجيوش بدر الجمالي بناءه مرة ثانية في سنة ٥٨٠ هـ/ ١٠٨٧م، على عهد الخليفة المستنصر بالله، وبُنيت الأبواب فيه من

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦٢.
مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٦.

(٢) مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٦.
وأما موضع جامع الحاكم فانظره على الخريطة، رقم ١.

(٣) مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٦.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٨٠ و ٣٨٤.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ١/ ٣٧.
فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة: ٥٠.

حجر، وجعل عرضه عشرة اذرع، وأضاف امير الجيوش بدر الجمالي الى القاهرة المعزية، بذلك السور، أقساماً جديدة فبلغت مساحتها اربعمائة فدان، بزيادة ستين فدانا[١].

وهدم السور، وابتدأ في عمارته صلاح الدين (يوسف بن أيوب) سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ على عهد العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين، وفي سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣م. وانتدب للإشراف على عمل السور، الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، فبناه بالحجارة. وان قصد صلاح الدين أن يجعله يدور حول مدينتي القاهرة ومصر وقلعة الجبل، لكن لم يكتمل لوفاة صلاح الدين، فبلغ طول ما بُني منه تسعة وعشرين ألفاً وثلاثمائة ذراع وذراعين بالذراع الهاشمي، أي اثنين وعشرين الف متر تقريبا[٢].

وسمّاها جوهر الصقلي «المنصورية»[٣] تيمّنا باسم «المنصور» والد مولاه المعز لدين الله، الا ان جوهراً لّما اراد وضع أساس المدينة جمع المنجّمين وأمرهم أن يختاروا طالعاً سعيدا لوضع الأساس، بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم ابداً، فاختاروا: طالعاً لحفر الأساس، وطالعاً لرمي حجارته، وجعلوا بدائر السور قوائم من خشب، ربطوا ما بين كل قائمتين حبلاً فيه اجراس، وقالوا للبنائين: إذا تحرّكت الأجراس، ارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة. ووقف المنجمون ينتظرون الوقت المناسب وتعيين الطالع.

---

(١) مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٥٤ و ٢٠٦.

حسن، الدولة الفاطمية: ٥٣٠.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٨٠.

ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٤٠.

وبهاء الدين قراقوش هو وزير صلاح الدين على عهد السلطنة الايوبية.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٧٧.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٤١.

فاتفق وقوف غراب على قائمة من تلك القوائم فتحرّكت الأجراس، وظنّ عمّال البناء، ان المنجّمين قد حركوها، فألقوا ما بأيديم من الطين والحجارة، فصاح بهم المنجّمون: لا، لا، القاهر في الطالع، وفاتهم ما قصدوه. لأن المريخ كان في الطالع، وهو عند المنجّمين القاهر ...[1].

ولّما أتى المعز لدين الله من المغرب، وتسلّم البلاد منه، سمّاها «القاهرة» بعدما اطلع على قصّة الطالع، فوافقهم على ذلك، لأنه كان مغرماً بعلم النجوم[2].

وقيل أيضا انها سمّيت بالقاهرة لانها تقهر: من شذّ عنها ورام الخروج على أميرها. او لما جاء على لسان المعز لدين الله عند مخاطبته رؤساء القبائل قبل مسير جوهر الصقلي لفتح بلاد مصر بقوله[3]: «والله، لو خرج جوهر هذا وحده، لفتح مصر، ولتدخلن الى مصر بالاردية من غير حرب، ولتنزلن في خرابات ابن طولون، وتبني (والكلام هنا موجّه إلى جوهر) مدينة، تسمّى القاهرة، تقهر الدنيا».

وكان ابتداء بناء القصر الكبير (الشرقي) مع وضع أساس سور القاهرة ليلة الاربعاء الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ/ ٣ تموز/ يوليو/ ٩٦٩م.

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٧٧.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٤١ ـ ٤٢.
ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس (منشورات دار الكتب)، القاهرة ١٩٦٩ م: ١٨١.
فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة: ٥٠.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١٩٧.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٤٢.
ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٨١.
حسن، الدولة الفاطمية: ١٥٥ و ٥٢٩

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٧٨.

وجعل له بابين، يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الاولى سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٦٩م. وفي سنة ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م[١]، أحاطه بسور عال حتى أن أقسام القصر: قصر الذهب، والقصر اليافعي، وقصر الافيال، وقصر الظفر، وقصر الشجرة، وقصر الشوك، وقصر الزمرد، وقصر الحريم، وقصر البحر، وكلها قاعات من القصر الكبير، اجمالا ولا تُرى من داخل المدينة لارتفاع الاسوار حولها.

ويصف ناصر خسرو قصر الخلافة الفاطمية، بعد زيارته لمصر - من صفر سنة ٤٣٩ هـ/ ٤ آب/ أوغسطس / ١٠٤٧ م.، الى اواخر جمادى الثانية ٤٤٢ هـ/أواخر تشرين اول/ اوكتوبر/ ١٠٥٠ م، فيقول[٢]: «ان به ثلاثين ألف آدمي، واثني عشر الف جارية (لعله من ضمنهم)، وهذا القصر يتكوّن من اثني عشر جوسقا (بهوا)، وله عشرة أبواب فوق الارض، لكل منها اسم على هذا التفصيل، وتلك فضلا عن أبواب اخرى تحت الارض: باب الذهب، باب البحر، باب السريح[٣]، باب الزهومة، باب السلام، باب الزبرجد (لعله باب الزمرد)، باب العيد، باب الفتوح، باب الزلاقة، باب السرية... وتحت الارض باب يخرج منه السلطان راكبا (على فرسه) وهذا الباب على سرداب يؤدي الى قصر خارج المدينة.

وكان بالقصر الكبير، الذي يشغل محل خان سرور والمدارس الصالحية

---

(١) القريزي، الخطط: ١/ ٣٨٤.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامه، نقلها الى العربية الدكتور يحيى الخشاب، (منشورات دار الكتاب الجديد)، بيروت ١٩٧٠ م، الطبعة الثانية: ٨٩ - ٩٠.

(٣) ذكر المقريزي في خططه، وأبو المحاسن في النجوم الزاهرة، بعض هذه الابواب مع اختلاف بسيط.

وذكر ناشر النجوم الزاهرة في ملاحظاته: ٤/ ٣٦، هامش رقم ٧: «ان الباب التاسع للقصر الكبير هو باب البحر» ولعلّه الاصح. وان السريح هو تحريف للريح او خطأ مطبعي.

والمدرسة الظاهرية وما يحيط بها من ابنية وأزقّة، عدة خزائن لحفظ ما تستدعيه رسوم الخلافة وابهتها، ولوازم القصر من الحلي وأدوات الزينة والامتعة والفرش والكسوات والادم والشراب والتوابل، وما تستلزمه العساكر البرية والبحرية، كالسلاح والخيم والدرق والبنود والسروج وأدوات العطور والطيب والجوهر التي يتجمّل بها الخليفة، مع خاصته وأتباعه.

وخصصت خزانة لنوع معينّ أعدت له. فأعد للكتب أربعون خزانة تحوي نحوا من مليون وستمائة الف كتاب من الكتب النادرة في سائر العلوم القديمة، ونسخ عديدة من القرآن الكريم، بـ «خطوط منسوبة زائدة الحسن، محلاّة بالذهب والفضة وغيرهما، كما نقل المقريزي في خططه عن المسبحي[1].

وممّا وجد في خزائن الفرش والامتعة، خريطة للعالم، على «مقطع من الحرير الازرق التستري القرقوبي، غريب الصنعة، منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير، كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها، شبه جغرافيا وفيه: صورة مكة والمدينة مبينة للناظر، مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق، اسمه بالذهب او الفضة او الحرير وبلغت النفقة عليه اثنين وعشرين الف دينار، وفي آخر ممّا نص بعمله المعز لدين الله التاريخ وهو: سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة[2].

ونقل المقريزي ما أخرج من خزائن الخيم فقال: «فيما أخرج من خزائن القصر عدة لم تحصَ من اعدال الخيم والمضارب والفازات والمسطحات والجركاوات... الخ. واخرج في جملتها القسطاط الكبير المعروف بالمدورة الكبيرة، المتولي عمله بحلب أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بالأيسر، في

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/٤١٧.

سني نيف وأربعين وأربعمائة، المنفق على خرقه ونقشه وعمله، وعدته ثلاثون ألف دينار، الذي عوده أطول ما يكون من صواري درامين الروم البنادقة، أربعون ذراعا، ودائر فلكة عموده أربعة وعشرون شبراً، ويحمل على سبعين جملا، ووزن صفريته الفضة قنطاران سوى انابيب عمده، ويتولى اتقان عمده ونصبه مائتا رجل من فراش ومعين[1].

وليس هذا الا النزر القليل مّما حوته خزائن القصر الكبير المتعددة، والتي امتدت اليها أيدي اللصوص في الشدة العظمى على أيام المستنصر بالله، حيث عمل أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٦٦ هـ/١٠٧٣م بعد أن اسندت اليه الوزارة، وصارت اليه السلطة المطلقة، على اعادة بعض المسروقات.

ويحرس هذا القصر كل ليلة، ألف فارس، منهم خمسمائة فارس وخمسمائة راجل، يدورون حول القصر وهم ينفخون بالأبواق ويدقون الطبول والكوس (الصنوج) من بعيد صلاة المغرب حتى شروق الشمس.

واتبع جوهر الصقلي بالقصر اصطبلا للخيول، عرب باسم «اصطبل الطارمة» كانت توضع فيه الخيول الخاصة بالخليفة ـ وموضعه في الجهة الجنوبية من القصر، ما بينه وبين الجامع الأزهر ـ وجعل أمام هذا الاصطبل ميدانا يفصله عن الجامع المذكور[2].

ولم ينس جوهر الصقلي اقامة مكان للعبادة، لممارسة الشعائر الدينية الفاطمية «الشيعية» التي تناهض الشعائر المصرية (السنية) باقامة هذه الشعائر في المساجد المصرية، وعدم اثارة الحساسيات الدينية على الأقل في

---

(١) المقريزي، الخطط، ١/٤١٨ ـ ٤١٩.

(٢) المقريزي، الخطط ١/٤٤٤ ـ ٤٤٥.

مبارك، الخطط التوفيقية: ١/٣٨ ـ ٣٩.

البداءة[1]. فلذلك عمد بعد الفراغ من بناء قصر الخلافة الكبير الى بناء الجامع الأزهر فوضع أساسه يوم السبت في الرابع عشر من رمضان سنة ٣٥٩ هـ/ ٤ نيسان/ ابريل ٩٧٠ م. وأتمّ بناءه حيث أقيمت الصلاة فيه لأول مرة في السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ/ ٢٢ حزيران/ يونيو/ ٩٧٢ م.[2].

وانتهى من بناء مصلى العيد خارج باب النصر، الى الشمال من المدينة في شهر رمضان سنة ٣٥٨ هـ/ تموز/ يوليو/ ٩٦٩ م. لأجل اقامة صلاة العيد فيه، وقد جدّده العزيزي بالله زمن خلافته وإتخذ في جانب منه مصلى للأموات وصار الباقي مقابر[3].

وأخذ جنوده يبنون البيوت لهم، فوق مساحات خصصت لكل قبيلة أو طائفة من الجند رافقت جوهر الصقلي في الوقت الذي ارتفعت منه اساسات القصر والجامع، داخل السور المحيط بالمدينة، بعد ان قسمت قسمين متساويين بقصبة (طريق) من الشمال الى الجنوب، على موازاة الخليج، ومنها تفرعت سائر الطرق الرئيسية في كل قسم، ناحية الشرق (الى الجبل) أو ناحية الغرب (الى الخليج)[4]. فاختطت كل قبيلة خطة (حارة) عرفت بها أو باسم قائدها، فكان لمدينة القاهرة في المرحلة الأولى عشر حارات:

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١١٣.

يراجع أمان جوهر وفيه اعطاء الحرية باقامة الشعائر الدينية.

(٢) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٧٣.

القلقشندي، ابو العباس أحمد: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، (منشورات دار الكتب المصرية)، ١٩١٣ ـ ١٩١٧، ٢/ ٣٦٤.

فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة: ٣٧.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٥١.

مبارك، الخطط التوفيقية ١/ ٣٩.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٧٣ وما بعدها.

زكي، عبدالرحمن، القاهرة: تاريخها وآثارها، القاهرة ١٩٦٦: ١٠.

١ ـ حارة كتامة[١]

منسوبة الى قبيلة كتامة، نزلوا بها عندما قدموا من المغرب مع القائد جوهر الصقلي ـ وموضعها على أيام صاحب الخطط التوفيقية المنطقة التي يقوم في وسطها حارة الازهري ومنطقة الدويداري، في الجنوب الشرقي من الجامع الأزهر.

٢ ـ حارة زويلة[٢]

هذه الحارة كانت أكبر حارات القاهرة، نزل بها أفراد قبيلة زويلة من البربر القادمين مع جوهر الصقلي من المغرب. وعرفت بعد ذلك باسم حارة اليهود.

٣ ـ حارة الروم[٣]

وهي حارتان: حارة الروم المشهورة، التي تقع في قسم الدرب الأحمر، وحارة الروم الجوانية، المنسوبة للاشراف الجوانيين[٤]، وتقع هذه في قسم

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامه: ٩٩.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/٤٦.
ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٨٠.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامة: ٩٩.
المقريزي، الخطط: ١/٣٦١ و ٣٧٥.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/٥٢.
ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٨٠.

(٣) ناصر خسرو، سفر نامة: ٩٩.
المقريزي، الخطط: ١/٣٦١ و ٣٧٣ و ٣٧٦.
ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/٤٢.
ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٨٠.

(٤) من الاشراف الجوّانيين: محمد بن أسعد بن علي بن معمر بن عمر أبو على الجوّاني، مؤلف كتاب «النقط لمعجم ما أشكل من الخطط» في مصر.

الجمالية ويطلق عليهما احيانا: حارة الروم العليا، وحارة الروم السفلى.

٤ ـ حارة البرقية[1]

عرفت هذه الحارة باسم جماعة من اهل برقة، نزلوها عند مجيئهم مع المعز لدين الله من بلاد المغرب.

٥ ـ حارة الجودرية[2]

وتنسب الى جماعة من اتباع جودر، خادم المهدي، يعرفون بالجودية كان عددهم اربعمائة ـ وموقعها في دائرة قسم الدرب الاحمر.

٦ ـ حارة الديلم[3]

نسبت الى سكانها من الديلم، الواصلين صحبة أفتكين المعزي، غلام معز الدولة البويهي (٣٤٤ ـ ٣٦٥ هـ/ ٩٥٥ ـ ٩٧٥م)، حين قدّم أولاده الى القاهرة مع جماعة من الاتراك، وعرفت احيانا بحارة الامراء، لانها كانت مسكنا للأمراء والاعيان.

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦١ و ٣٧٦.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٤٧.
مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٨.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامة: ٩٩.
المقريزي، الخطط: ١/ ٣٧٣.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٥١.
مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٨.

(٣) ناصر خسرو، سفر نامة: ٩٩.
المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦٣ و ٣٧٣.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٤٣.
ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٨٠.
مبارك، الخطط التوفيقية: ٢/ ٢٧ ـ ٢٨.

٧ ـ حارة برجوان[١]

نسبت هذه الحارة الى الخادم برجوان، من خدم القصر أيام العزيز بالله، وعمل مدبّرا للدولة، ونال الواسطة (الوزارة) على أيام الحاكم بأمر الله، بعدما تولّى أمور مصر والشام والحجاز والمغرب، الا انه قتل بأمر الحاكم سنة ٣٩٠ هـ/ ١٠٠ م. وموقع هذه الحارة المنطقة التي يتوسطها شارع برجوان في قسم الجمالية.

٨ ـ حارة الباطلية[٢]

تنسب هذه الى جماعة، جاءت الى المعز لدين الله، لما قسّم العطاء على الناس، فسألت العطاء، فقيل لها: فرغ المال، فقالوا: رحنا نحن في الباطل، فسموا الباطلية، وعرفت الحارة بهم، وموقعها في الجنوب الشرقي لجامع الازهر، بقسم الدرب الاحمر.

٩ ـ حارة الريحانية[٣]

سمّيت قديما بحارة الريحانية، نسبة الى طائفة من عسكر الخلفاء

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامة: ٩٩.
المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦٣ و ٣٧٥.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٤٨.
ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٨٠.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامة: ١٠٠.
المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦٣ و ٣٧٣.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٤٦.
مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٨.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦٢ و ٣٧٦.
ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٣٨ و ٤٩. ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٨٠.
مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٣٨ .

الفاطميين، نزلوا بعد انشاء القاهرة، فعرفت بهم، وفي عهد الدولة الايوبية، سكنها بهاء الدين قراقوش الاسدي ـ وزير السلطان صلاح الدين (يوسف بن ايوب) ـ باني سور القاهرة وقلعة الجبل، فعرفت به، ثم عرفت بحارة بيت السيارج وخارج السور.

١٠ ـ الحارة الحسينية[١]

وتشمل عدة حارات، عرفت فيما بعد الدولة الفاطمية باسم جماعة من الاشراف الحسنيين جاؤوا من الحجاز فنزلوا بها، وبنوا فيها المدابغ، وصنعوا الاديم المشبه بالطائفي (نسبة الى الطائف في الحجاز). ويبدو من كلام المقريزي انه كان يسكنها فرقة من الجيش الفاطمي أيضا تعرف بالحسنية، بالاضافة الى سكن عبيد للشراء والوزيرية (جماعة الوزير يعقوب بن كلس) وطائفة الارمن (جماعة أمير الجيوش الوزير بدر الجمالي).

ولم يقف دولاب البناء عند هذا الحد في القاهرة بمرحلتها الاولى، فقد شيّد العزيز بالله قصرا صغيرا، قبالة القصر الكبير الشرقي، من جهة الغرب، عرف بقصر البحر، أخص به سكنى ابنته ست الملك، اخت الحاكم بأمر الله، وجعل لها طائفة برسمها، سموا بالقصرية[٢]. وكان يتبع هذا القصر عدة أماكن، اهمها القاعة الكبيرة، مسكن ست الملك، وله عدة أبواب منها، باب الساباط، حيث كان من الرسم أن يذبح في هذا الباب أيام النحر وفي عيد الغدير، عدة ذبائح تفرّق على سكان القصور ودار الوزارة والاصحاب والحواشي ـ وموضع هذا الباب، باب سر المارستان المنصوري، (الملك المنصور قلاوون) الذي

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامة: ١٠٠.

المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦٣ و ٣٧٤.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٤٥ و ٤٦.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨.

يؤدي بالسالك الى حارة الخرنفش، حيث كان ميدان الخرنفش[١].

باب التبانين: كان هذا الباب بجوار باب الساباط من الجهة البحرية، ومحله مكان باب حارة الهرنفش. وقد أنشأ الحاكم بأمر الله في موضعه دار العلم وثمة باب ثالث، يدعى باب الزمرد، وموضعه ايضا صار اصطبل القطبية.

وأنفقت تغريد زوجة المعز لدين الله أموالا كثيرة على بناء مسجد لها بالقرافة[٢]، ثم ابتنت لها قصر القرافة سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م[٣]. وبنى العزيز بالله ايضا جامع الخطبة، خارج سور القاهرة بين بابي النصر والفتوح، وخطب فيه قبل اتمامه فسميّ بجامع الخطبة، لان العزيز بالله مات قبل ان يكتمل بناؤه، فأتمه ولده الحاكم بأمر الله ونسب اليه، وعرف بجامع الحاكم مع اعتنائه ببناء جوامع أخرى كجامع المقس وجامع راشدة. وسوف نتحدّث عن هذه الجوامع عند عرضنا للحياة الدينية في كتابنا التاريخ الفاطمي الاجتماعي.

وأنشأ الوزير يعقوب بن كلس، في أيام العزيز بالله، على ارض الميدان الكافوري، داره التي سميّت بدار الوزارة (وهي غير دار الوزارة الكبرى) - فصار موضعها فيما بعد درب سعادة - وقد اصبحت ما بعد وزارة الافضل ابن امير الجيوش بدر الجمالي دارا لعمل الحرير الديباج[٤]

---

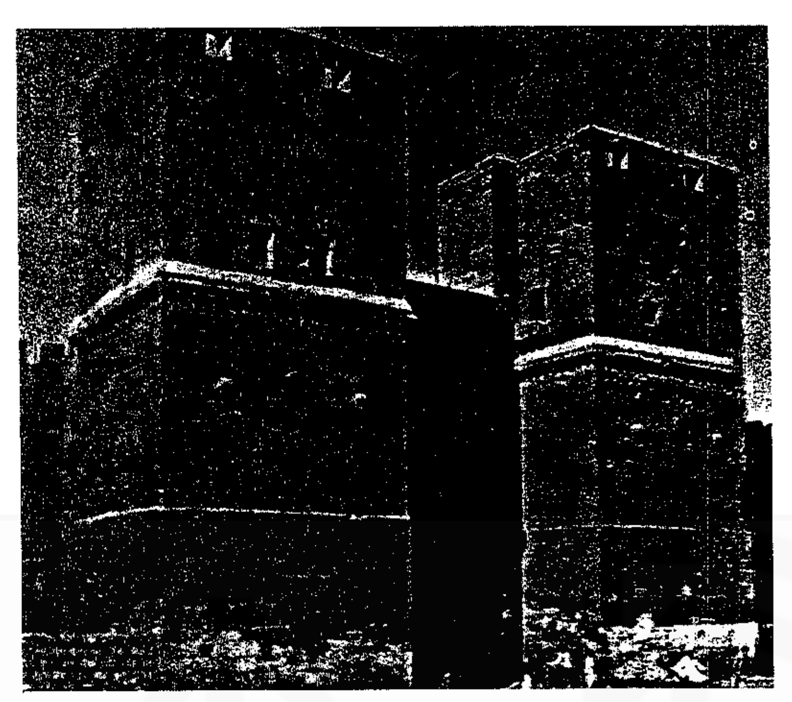
(١) الخرنفش: تحريف لكلمة «الخرشتف». وقد كان المعز لدين الله أول من بنى بهذا الميدان الاصطبلات بالخرشتف. والخرشتف: هو ما يتحجر، مما يوقد به على مياه الحمامات من زبل وغيره.

انظر مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٤٥.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٤١٥.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٤٨٦.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٦٤.



باب النصر



باب الفتوح

ولم يغب عن فكر الفاطميين، ترك فسحات وميادين وشوارع واسعة وطرقات تفصل الحارات بعضها عن بعض، فقد أبقي على الميدان الكافوري الكبير (١٤٧ ألف متر مربع)[١]، والساحة الكبيرة بين القصر الكبير الشرقي، والقصر الصغير الغربي، وتعرف بما يسمّى «بيت القصرين»[٢]. وكانت هده الساحة تتّسع لعشرة آلاف من العساكر. والى جانب الساحات والفسحات المتعددة أمام القصور والجوامع. كساحة قصر الشوك الواسعة، وساحة باب العيد، وساحة اصطبل الطارمة، والفسحات حول الجوامع وغيرها.

المرحلة الثانية:

وارتبط تاريخ بناء القاهرة في مرحلتها الثانية ارتباطا وثيقا باستتاب الامن في الديار المصرية، ولم يستتب الامن فيها الا بتسلّم امير الجيوش بدر الجمالي زمام الامور وقلّده للسلطة بعدما «خلع عليه المستنصر بالله بالطيلسان المقور وقلده وزارة السيف والقلم، فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يده .... وتتبع المفسدين، فلم يبق منهم أحدا حتى قتله، فاستقامت الاحوال وأعفى من الاموال لمدة ثلاث سنين فتحسّنت احوال البلاد كلها»[٣].

ولما كان امير الجيوش بدر الجمالي قد استقدم معه جماعة من عساكره الارمن لاشتراطه ذلك على المستنصر بالله، وأعاد تكوين فرق الجيش الفاطمي، نتج عنه حصول ازمة سكنية، فأتيحت الفرصة لبناء وحدات

---

(١) انظر الصفحة ٦١ ـ ٦٢ من هذا الكتاب.

(٢) ابن سعيد، القسم الثاني من الجزء الخاص بمصر من كتاب: المغرب في حلي المغرب والمشرق في حلي المشرق، تحقيق حسين نصار، بعنوان : النجوم الزاهرة.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٨٢.

سكنية جديدة، ولكن أين ما دام ان بناء مثل هذه الوحدات داخل سور المدينة كان غير ممكن، من هنا اتجه تفكيره الى اعطاء أوامره ببناء مساكن جديدة خارج سور المدينة القديم. وفعلا أمر الناس من العسكر والارمن (الواصلين معه)، ان يعمّر كل من استطاع ، الى عمارة ما شاء في القاهرة، من انقاض ما تخرب من مدينة مصر (الفسطاط)[1]. فأخذوا في نقل الانقاض واكثروا من عمارة الدور في القاهرة.

وبنت طائفة العبيد حارة لها بمحاذاة الخليج تجاه منظرة اللؤلؤة الى الجنوب، عرفت بحارة اللصوص، وقد سكنها العبيد من العسكر وغيرهم. وفي أيام وزارته بنى بدر الجمالي دار المظفر، وصارت دار وزارة ، فسكنها الى ان صارت بعده ال برجوان. واخد ايضا امير الجيوش بدر الجمالي سويقة (تصغير سوق) في أول الشارع الموصل الى باب القنطرة، عرفت بسويقة امير الجيوش، والشارع الذي يمر بها باسمه ثم حرّفته العامة الى «شارع مرجوش».

ثم هدم السوق القديم وأعاد بناءه في سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧م، من اللبن (الطوب) والأبواب من الحجارة، وعن هذا السور قال غاستون فييت[2]: «كان يحد الاسوار من الغرب طريق مزدوج لدورة الحراس. ومن الداخل كان السور مسقوفا، ومزودا بفتحات جانبية واسعة ليقوم الحراس بالمراقبة ورمي السهام منها، اذ بلغ عرض السور نحو عشرة أذرع. وازدادت مساحة القاهرة عمّا كانت عليه في أيام جوهر الصقلي بمقدار ستين فدانا، فأصبحت أربعمائة فدان (مليون وستمائة وثمانين الف متر مربع). وشملت الزيادات التي فيها بين بابي زويلة وباب زويلة الكبير، وفيما بين باب الفتوح عند حارة بهاء الدين، وباب الفتوح زمن

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٨٢.

(٢) فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة: ٥٠.

المقريزي، وزاد عند باب النصر أيضا كل الساحة التي تقع في مقابل جامع الحاكم الى باب النصر[1].

وجعل في السور الابواب الضخمة الثلاثة الباقية حتى اليوم: باب زويلة الكبير في الجنوب، وباب النصر وباب الفتوح في الشمال التي اتصفت بفن بناء معماري يختلف اختلافا كليا عن فن بناء المساجد السابقة[2].

وارتفعت المباني الجديدة في القاهرة كلّما ارتقى سدة الخلافة خليفة او تولى الوزارة وزير بديل، باقامة المناظر والمنتزهات او الدور اقتداء بالسلف واحياء للمآثر والمفاخر. فأقام الوزير الافضل ابن امير الجيوش بدر الجمالي دار الوزارة الكبرى ـ تجاه ساحة باب العيد، بجوار القصر الكبير الشرقي - ومحلها من حارة المبيضة الى حارة الجوانية (اي حارة الروم الجوّانية). وما زال وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد الافضل يسكنون بدار الوزارة هذه، والتي كان يقال عنها الدار الافضلية، والدار السلطانية، كما عرفت قديما بـ«دار القباب»[3].

كما بنى أبو عبدالله محمد بن فاتك المأمون البطائحي، وزير الآمر بأحكام الله، الدار المأمونية ـ التي اصبحت فيما بعد الدولة الفاطمية، المدرسة السيوفية.

ولم يقتصر البناء في القاهرة على المساحة الموجودة داخل السور وخارجه على بناء القصور ودور الوزارة او الحارات، انما اتجه الى بناء المرافق العامة

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٣٢١، هامش رقم ٣.
والخطط: ١/ ٣٧٩.

(٢) فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة: ٥٠.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٣٨.
مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٥٥.

والمتنزهات والبساتين. فقد كان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة ذكرها المقريزي في خططه، وقد توزّعت بين القاهرة وضواحيها ومصر (الفسطاط) والروضة والقرافة وبركة الحبش، الخ...

وأشهر المناظر: منظرة الجامع الازهر التي كان يجلس الخليفة فيها لمشاهدة ليالي الوقود. ومنظرة اللؤلؤة، المشهورة بقصر اللؤلؤة، وكانت تشرف على ارض الطبالة والبستان الكافوري على الخليج، اتخذها برجوان عند توليه الواسطة للحاكم بأمر الله الى ان قتل، فأمر الخليفة بهدمها، لكن ابنه الظاهر لاعزاز دين الله اعاد بناءها، وقد اتخذها الآمر بأحكام الله مسكنا له ولحاشيته طوال وفاء النيل، كما امر متولي المعونة بأن يكشف على المنازل المحاذية لها من الجهة القبلية بحيث لا يمكّن احد من السكنى في هذه الدور الا المالكين ومن كان مستأجرا ينقل منها ويدفع لاصحاب المساكن الأجرة لمدة سنة لتتخذها الحاشية مسكنا لها[١].

وكان بجوار منظرة اللؤلؤة منظرة الغزالة، التي اتخذها الامير القاسم والد الخليفة الحافظ لدين الله مسكنا له، ثم جعلت منزلا لمتولي الخدمة في الطراز أيام الخلفاء[٢]. وأقام العزيز بالله منظرة أخرى على الخليج عرفت باسم منظرة السكرة يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج.

وثمة منظرة تعرف باسم منظرة الدكة، وهي عبارة عن بستان يدخله الخليفة راكبا على فرسه ليسقيها والناس عن يمينه وشماله في الخيم والمضارب، بعد كسر الخليج، وقد اقفلت جميع المنافذ الى هذا البستان.

ولعبت منظرة المقس ـ الواقعة خلف جامع المقس لجهة الشمال ـ دورا قياديا ـ حربيا، اذ كان يشرف منها الخليفة على الاسطول البحري الذي يقوم

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٦٧.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٦٩.

بتمارينه أمام الخليفة. وهو جالس بها يستعرض الشواني (السفن الحربية) وهي مزينة بأنواع العدد والسلاح والرجال، ويلعبون في النيل قبل الاقلاع لغزو الافرنج، او عند استقبال الاسرى وعرضهم أمامه(١).

وكان من المناظر التي انشأها الافضل بن امير الجيوش بدر الجمالي: دار الذهب لينزل بها عندما يكون الخليفة، بمنظرة اللؤلؤة(٢)، ومنظرة دار الملك(٣)، وقد بدأ العمل بها في سنة خمسمائة وواحد. ولما اكتملت انتقل اليها من دار القباب (الوزارة الكبرى) بالقاهرة، كما نقل اليها الدواوين من القصر وجعل لها مجلسا للعطاء سماه «مجلس العطايا». وبنى ايضا منظرة بستان البعل، ومنظرة التاج، ومنظرة الخمس وجوه.

وكانت منظرة باب الفتوح(٤)، المشرفة على البساتين الجيوشية، مكانا معدا لجلوس الخلفاء الفاطميين وعرض الجيوش البرية، ووداعها قبل مسيرها في البر الى البلاد الشامية.

وانشأ الوزير ابو عبدالله محمد بن فاتك المأمون البطائحي دارا للصناعة على ساحل مصر القديم وأمر بأن تكون صناعة الشواني وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بها، وأضاف اليها منظرة ليكون لحلول الخليفة يوم تقدمة الاساطيل ورميها بالمنظرة المذكورة(٥).

وأجمل المتنزهات الآمرية، قصر الهودج الذي بناه، لمحبوبته البدوية في جزيرة الروضة (الفسطاط سابقا)، وكان الخليفة يتردّد اليه كثيرا، حتى انه

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٤٧٠.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٤٨٠.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٨١.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٤٨٣.

قتل على ايدي بعض النزارية[1] فوق الجسر الموصل الى الروضة[2].

وتردّد ان الآمر بأحكام الله بنى منظرة من خشب، ولها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبش، وقد زيّنت جدرانها بصور بعض الشعراء ومدائحهم وفوقها رفوف وضعت عليها صُرر مختومة في كل منها خمسون دينارا ليأخذها اصحابها من الشعراء بعد استراحة الخليفة لبعض الوقت وينصرفوا[3].

وأحسن مواضع الفرجة في ظاهر القاهرة، أرض الطبالة، أيام القرط[4] والكتان. وكذلك بركة الفيل ـ وموضعها الآن شبرا الخيمة ـ لانها دائرة كالبدر والمناظر فوق سطحها كالنجوم. كان الخليفة يركب اليها بالليل بعد ان تضاء السرج في المناظر حولها، لتنعكس الاضواء على صفحة المياه، فيكون لها بذلك منظر عجيب[5].

كما وجدت غربي الخليج بساتين امتدت حتى ضفاف النيل، يقصدها العاطلون عن العمل والمتنزهون للهو والتسلية. ويقصد الخليفة الفاطمي احيانا الى جنائنه بناحية الخاقانية في منطقة القليوب حيث يقضي فيها يوما

---

(١) النزارية: عندما مات المستنصر بالله، جمع الافضل ابن امير الجيوش بدر الجمالي، الامراء والخواص وخوّفهم من نزار، وأشار عليهم بتولية أخيه المستعلي بالله بدلا منه، فنفذوا رغبته بينما هرب نزار الى الاسكندرية، وأعلن نفسه خليفة بلقت «المصطفى لدين الله. . . مؤيدا من واليها وقاضيها. فحاربه الافضل وانتصر عليه ثم قتله. فانقسمت الاسماعيلية الى فرقتين: المستعلية، التي تقول بامامة المستعلي بالله، والنزارية التي تقول بامامة نزار وتطعن في أحقية المستعلي.

انظر ابو المحاسن: النجوم الزاهرة: ٥/ ٤٢.

(٢) المقريزي، الخطط: ٥/ ٤٢.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٨٥ ـ ٤٨٧.

(٤) القرط: هو البرسيم، ويعطى علفا للحيوانات.

(٥) ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٢٥ ـ ٢٦.

بين الورود والرياحين. وبقي البستان الكافوري الذي جعله الخلفاء الفاطميون متنزها لهم ينزلون اليه من القصر الكبير الشرقي عبر سراديب مبنية تحت الارض، يسيرون فيها بالدواب الى هذا البستان او الى منظرة اللؤلؤة. وقد توسّع المقريزي في وصفه لذلك.

وتشجيعا لحركة البناء خارج القاهرة بعدما اكتظت ارضها بالبنيان وضاقت مبانيها بالسكان، اقيمت مبان كثيرة بين مدينتي القاهرة ومصر (الفسطاط)، حتى صارتا لا يتخللها خراب، وكأنك تخال الناس وهم يسيرون من منازلهم، الى اعمالهم في مدينة القاهرة، او يعودون اليها من مصر (الفسطاط) مساء خلال شوارع مكتظة تتلألأ بالأنوار من المصابيح المضاءة، خاصة بعد ان جدد وزير الآمر بأحكام الله ابو عبدالله محمد بن فاتك المأمون البطائحي اوامره: بمنع الملاّك في هذه المنطقة من البناء او بيع اراضيهم الا لافراد يلزمون بالبناء، مستخدمين المواد المتخلفة من المباني القديمة في مصر (الفسطاط)[1]. وعمدت الدولة في حالة عصيان تلك الاوامر الى مصادرة الارض من ملاّكها، ممّا ادّى الى بعث نوع من الرخاء في المنطقة الواقعة بين باب زويلة الكبير وضريح السيدة نفيسة.

ووضع الفاطميون في صلب اهتماماتهم، انشاء المرافق العامة كالفنادق والاربطة والحمامات والدكاكين والابنية الاخرى، وكلها ملك الدولة، اذ ليس لاحد ان يملك عقارا او بيتا غير المنازل، وما يكون قد بناه الفرد لنفسه[2]. ويقول عطية مشرفة[3]: «ان الفاطميين قد أنشأوا «ديوان المفرد» لتسجيل العقارات المصادرة التي اصبحت ملكا للدولة بعد نزع ملكية اصحابها عنها لغضب الخليفة عليهم ومصادرة املاكهم». وخير مثال على

---

(١) فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة: ٣.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامة: ٨٨ ـ ٨٩.

(٣) مشرفة، عطية، نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين: ٤٠.

ذلك قيام المعز لدين الله فور وصوله الى مصر بالاستيلاء على املاك الدولة الاخشيدية، وضمها الى املاك الدولة الفاطمية، ليتم توزيعها فيما بعد من قبله او من قبل الخلفاء الفاطميين الذين يأتون بعده على خواصهم.

ولما قدّم أميرا لجيوش بدر الجمالي من عكا في أيام الخليفة المستنصر بالله وتسلم السلطة، أنشأ في ميدان القصر الغربي الصغير الذي يعرف اليوم بالخرنشف، دارا عظيمة، سكنها ولم يسكن بدار الديباج التي كانت دار الوزارة القديمة (بناها يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله). وعندما مات أمير الجيوش بدر الجمالي واستولى على السلطة مكانه ولده الافضل (شاهنشاه)، وأنشأ دار القباب، التي عرفت بدار الوزارة الكبرى، أقرّ اخاه بدار الوزارة القديمة الى ان مات وقبر بها فعرفت به. وبعد موته اتخذت دار المظفر دارا للضيافة للرسل القادمين من قبل الملوك، واستمرت كذلك حتى انقراض الدولة الفاطمية[١].

وأنشأ ابو عبدالله محمد بن فاتك المأمون البطائحي، وزير الآمر بأحكام الله، في سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م، دار الوكالة الآمرية بالقاهرة، بجانب دار الضرب. وقد خصصت للقادمين من العراقيين والشاميين وغيرهم من التجّار[٢]. هذا عدا القباب والفنادق العامة الكثيرة التي انتشرت في مدينة القاهرة، والحمامات العامة، التي منعت النساء من الدخول اليها، كما حظر على اهل الذمة، من النصارى واليهود، دخولها بدون ارتداء الملابس التي تميّزهم عن المسلمين، الى ان افردت لهم حمامات خاصة بهم على ايام الحاكم بأمر الله، وسوف نتطرّق الى ذلك في حينه.

ووجدت الاسواق الكثيرة في القاهرة، واغلبها كان متخصصا في نوع من السلع او الصناعات: كسوق الاقمشة، والعقاقير، والقصابين،

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.

والقزازين، والعطارين، والنجارين والبقالين، والشوايين... الخ، ولكن هذه الاسواق كانت ملكا للدولة كما ذكرت، وفي هذا الصدد يقول ناصر خسرو[١]: «انه كان يوجد بالقاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان، كلها ملك السلطات (الخليفة). وكانت تؤجر كلها بما يتراوح بين دينارين وعشرة دنانير في الشهر الواحد.

أمّا البيوت فكانت تشاد من الطوب (الاجر) او من الحجارة احيانا، وبعضها يتألف من خمس طبقات أو ست، كما انها تبنى متباعدة بعضها عن بعض بحيث تفصلها الحدائق والبساتين الغنّاء، وحتى اذا أجريت عليها بعض الاصلاحات او هدمت، لا تضايق الجيران[٢]. وكان الخليفة الفاطمي يملك منها ما لا يقل عن ثمانية عشر ألف بيت في مدينتي القاهرة ومصر (الفسطاط) يؤجرها للراغبين من الناس بأجر شهري، يحصّل عند آخر كل شهر بدون اكراه. وحتى نأخذ فكرة عن ارتفاع بدلات الايجار للبيوت يقول خسرو[٣]: «حين كنت هناك (القاهرة) أجّر منزل مساحته عشرون ذراعا في اثني عشر ذراعا (١٥× ٨م) بخمسة عشر دينارا مغربيا، وكان أربعة طوابق، ثلاثة منها مسكونة، والرابع خال، وقد عرض على صاحبه خمسة دنانير مغربية كأجرة شهرية، فرفض معتذرا بأنه يلزمه ان يقيم به احيانا، ولو انه لم يحضر مرتين في السنة التي اقامتها هناك».

وكان في القاهرة ذات القصور الكبيرة والساحات الواسعة والميادين الضخمة، وشوارع وطرقات قال عنها الرحّالة، ابن سعيد[٤]: «عاينت يوما

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامة: ٨٨ ـ ٨٩.

حسن، الدولة الفاطمية ٥٣٢.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامة: ٩١.

(٣) المصدر السابق: ٩١.

(٤) ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٢٤.

المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦٦.

وزير الدولة، وبين يديه أمراء الدولة، وهو في موكب جليل، وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين، ووفق الوزير، وعظم الازدحام، وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه، وقد كاد يهلك المشاة وكدت اهلك في جملتهم».

وحتى لا يحدث لموكب الخليفة، ما حدث لموكب الوزير، وما يواجهه الناس كل يوم، فقد يعمد قبل مرور موكب الخليفة الى كنس الطريق ورشها بالماء والرمل الاصفر، حتي لا تثير الارض شيئا من التراب الاسود. فاذا خرج، وقف صاحب الباب، والي القاهرة، والاسفهسلار (قائد الجيش) على رأس الطريق، لمنع المارة. كما يقف الوزير والامراء لانتظاره[1]، وقد زيّن له الاسواق زينة عظيمة[2].

وتسهيلا لعمل الحرّاس، وقطعا لدابر اعمال اللصوصية والسطو، اصدر الحاكم بأمر الله امرا تضاء بموجبه جميع ارجاء المدينة بما فيها الحوانيت والبوابات والميادين والطرق العامة والحارات المسدودة، ممّا جعل الناس يبالغون في استخدام المصابيح في الشوارع والازقة. فكانت الاضواء تظل مضاءة طوال الليل في الاسواق المسقوفة والمكشوفة على حد سواء[3].

ولم تخلُ القاهرة من عيوب ذكرها لنا ابن سعيد[4] بقوله: «ومن عيوب القاهرة انها في ارض النيل الأعظم، ويموت الانسان فيها عطشا، لبعدها عن مجرى النيل، لئلا يصادرها ويأكل ديارها. فسكان القاهرة يشربون من

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٠٣ و ٥٠٨.

(٢) ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب، تاريخ اخبار مصر، (منشورات المعهد العلمي الفرنسي بمصر)، طبعة هنري ماسيه، القاهرة ١٩١٩ م: ٢/ ٥٤.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٢٢.

(٣) فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة: ٣٩.

(٤) ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٢٥.

ماء النيل، الذي ينقله السقاؤون بالقِرَب[1] أو الروايا، على ظهور الجمال من النيل او من الآبار القريبة منه، لان ماء الآبار البعيدة عنه مالح وذلك عدا ما ينقل السكان من الماء على ظهورهم بالجرار النحاسية او القِرَب، حيث لا تستطيع الجمال ان تسير في الطرقات الضيقة بين الحارات[2]. كما كان يجري ري البساتين والاشجار بين القصور من ماء الآبار بواسطة السواقي التي نصبت لريها.

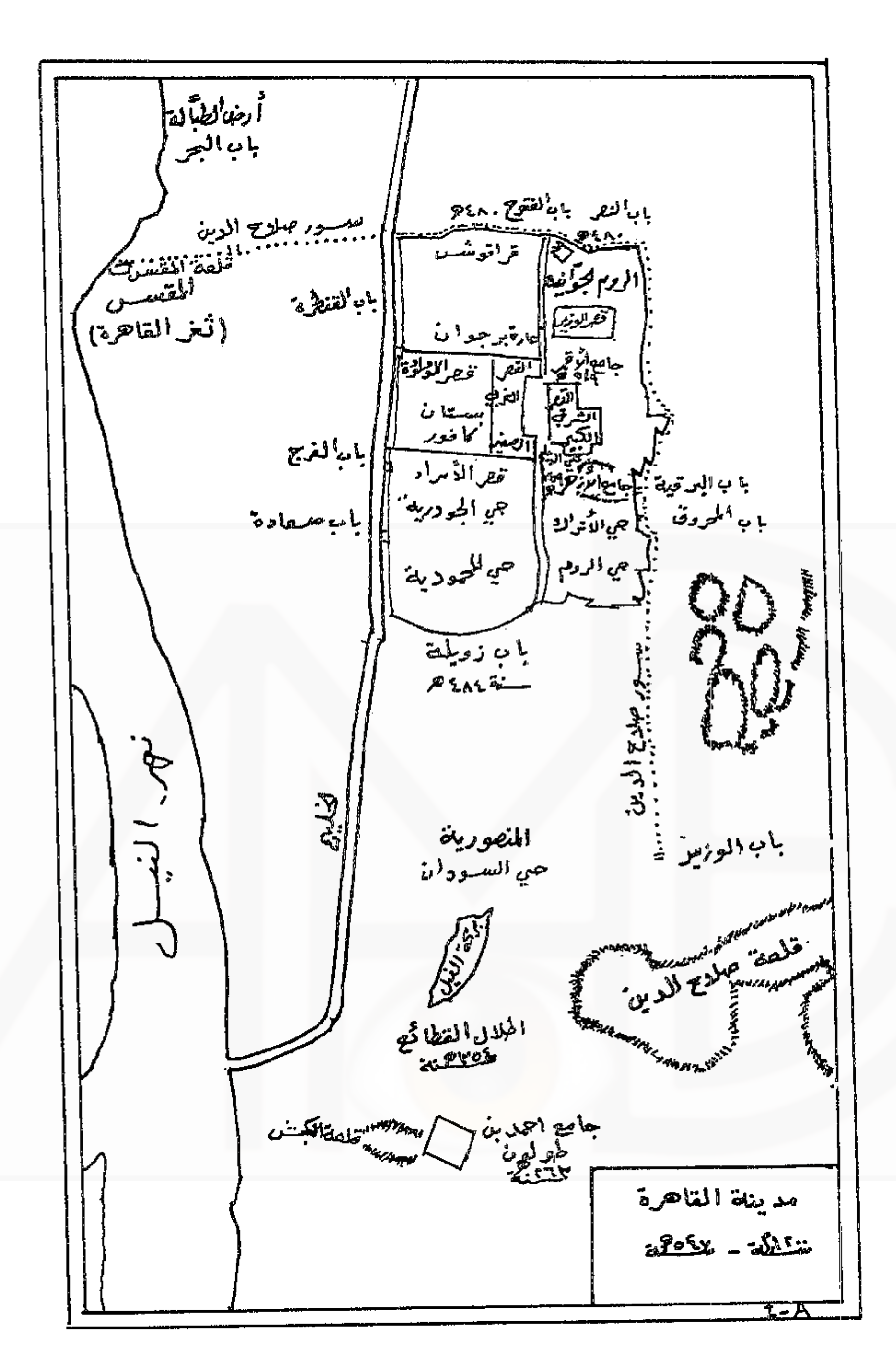
وبعدما بنيت الوحدات الجديدة خارج سور القاهرة مباشرة الى الجنوب، اتصلت المدينتان مصر (الفسطاط) والقاهرة وأصبحتا مدينة واحدة تضم، كما يقول ابن رضوان[3]: «والمدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء: الفسطاط والقاهرة والجزيرة (الروضة) والجيزة... والجبل المقطم في شرقيها. وما دمنا قد تحدثنا عن بناء القاهرة منذ تأسيسها حتى اتصالها بمصر (الفسطاط)، فسنتحدث عن الاجزاء الثلاثة الباقية مبتدئين بمدينة مصر (الفسطاط).

---

(١) القرب جمع قربة وهي ما يصنع من جلود الحيوانات، كالماعز، لحفظ السوائل مثل الحليب والماء والزيت.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامه: ٩١.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/٣٣٩.



مدينة القاهرة سنة ٥٤٧ هـ/ ١٢٠٠م

الفصل الثاني

بناء مصر (الفسطاط) والجزيرة والجيزة

بناء مصر (الفسطاط):

يطلق اسم الفسطاط او مصر القديمة على الاجزاء الثلاثة الآتية:

ـ فسطاط عمرو بن العاص.

ـ والعسكر الذي بناه العباسيون في ظاهر الفسطاط.

ـ والقطائع وهو ما بناه احمد بن طولون.

نشأت الفسطاط من تحوّل معسكر عمرو بن العاص، الذي جاء لفتح مصر، في اثناء حصار حصن بابليون ـ ويعرف اليوم بدير مار جرجس بمصر العتيقة ـ الى مدينة، بعد استبدال الخيم ومنشآت الحصير بالمباني. ونمت ضمن حدود ما كان يعرف بالحمراء في اوائل الاسلام، والآن بحفظ قناطر السباع والسبع سقايات، الى قلعة الجبل شمالا وقناطر السباع الى دير الطين على امتداد النيل غربا، ومن شاطىء النيل حتى الكروم والبساتين جنوبا، ومن القرافة بسفح الجبل الشرقي المعروف بالجبل المقطم شرقا[1].

وتبدأ قصة البناء، بفسطاط (خيمة) عمرو بن العاص، عند اقامة المضارب من الخيم، ومحاصرة جصن بابليون. فبعد سقوطه امر القائد بنزع خيمته، فاذا فيه يمامة برية قد افرخت بعدما عششت، ولما أعلم القائد

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/٢٨٦.

مبارك، الخطط التوفيقية: ١/٣٣.

بذلك، قال[١]: «لقد تحرم بنا بمتحرم» فأمر الفسطاط فأقر كما كان، وأوصى به من بقي من القبط. ولما فتح الاسكندرية أراد ان يسكنها ويتخذها مقرّا للمسلمين، لكنه كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب، يستأذنه في ذلك. فلم يوافق الخليفة وقال[٢]: «اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف... فرجع عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط.

وأخذت المدينة اسمها من فسطاط عمرو بن العاص الذي كان مضروبا في موضع الدار التي عرفت على ايام المقريزي بـ«دار الحصار» عند دار عمرو الصغيرة. الا ان غاستون فييت قال[٣]: «ولقد أخذت هذه القصة مأخذ الصدق الى ان اكتشفت بردية مكتوب عليها باللغتين اليونانية والعربية، وظهرت العلاقة بين الكلمة العربية «الفسطاط» والكلمة اليونانية «Phossatonª»، ومعناها «المعسكر الذي يحيط به خندق». ولعله المعنى الاصوب، لان المسلمين حين اختطوها تركوا فضاء يفصل ما بينهم وبين البحر لتسرح به دوابهم. وبقي الامر كذلك حتى ولّي معاوية بن ابي سفيان فأقطع الفضاء، حيث بنّيت الدور[٤].

لما وصل عمرو بن العاص، الى موضع فسطاطه، بعد عودته عن الاسكندرية، اختط مدينة الفسطاط، قاعدة لمصر[٥] وبنى جامعه، واجتمعت

---

(١) زيدان، جرجي، تاريخ التمدّن الاسلامي (لا.ت.) ٥ أجزاء: ٢/ ١٨٠.

(٢) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن ابو القاسم، فتوح مصر وأخبارها، (نشره هنري ماسيه ـ المعهد الفرنسي للعاديات الشرقية)، القاهرة ١٩١٤ م: ١/ ٩١.

السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ١٣٠. يذكر نصّا في المعنى نفسه.

(٣) فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة: ١٦.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٢٩٦. السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ١٣١.

(٥) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب، ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف أسعد داغر، (منشورات دار الاندلس) بيروت ١٩٧٣ م، الطبعة الثانية. =

القبائل حوله، بعضها الى بعض ليكونوا مجموعة متماسكة، واختطوا لهم خططا (حارات) حول خيمة القائد، بعد ان كلّف عمرو اربعة من كبار رجاله أن ينزلوا المسلمين في الخطط بحسب قبائلهم، فكان لهم نحو من عشرين خطة، وهي[1]: خطة أهل الراية، خطة مهرة، خطة تنحيب، خطط لخم، خطط اللفيف، خطط أهل الظاهر، خطط غافق ، خطط الصدف، خطط الفارسيين، خطة مذحج، خطة غطيف، خطة وعلان، خطة يحصب، خطة رعين، خطة ذي الكلاع، خطة المغافر، خطة سبأ، خطة الرحبة، خطة السلف بن سعد، خطة بني وائل وخطة القبض.

واشتهرت هذه الخطط جميعها، بالخطط الحمراء[2]: الدنيا والوسطى والقصوى.

فالحمراء الدنيا: كانت خطة بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، ومنها خطة تراد من الازد، وخطة فهم بن عمرو بن قيس عيلان، ومنها ايضا خطة بني بحر ابن سوادة من الازد.

والحمراء الوسطى: وتنسب هذه الى بني نبه وهم قوم من الروم، اسلموا قبل معركة اليرموك، ورافقوا عمرو بن العاص عند فتح مصر بمائة رجل، ومنها خطة هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر، ومنها ايضا خطة بني سلامان من الازد، وخطة عدوان.

أما الحمراء القصوى: فهي خطة بني الازرق وكان روميا حضر الفتح مع عمرو بن العاص مشتركا باربعمائة رجل، وخطة بني روبيل، وكان هذا يهوديا، فأسلم وشارك في الفتح في الف رجل، وخطة بني يشكر (واليه ينسب جبل يشكر) ابن جزيلة ابن لخم.

=ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٢/٣٩٦.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ١/٦٤ ـ ٦٥.

(١) المقريزي، الخطط: ١/٢٩٦ ـ ٢٩٨.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/٢٩٨.

وكانت هذه الحمراوات جل عمارة مصر في زمن الروم، فاذا الحمراء الاولى والوسطى هما اليوم خراب، وموضعهما فيما بين سوق المعاريج وحمام طن من شرقيهما الى ما يقابل المراغة شرقا. والحمراء القصوى، تعرف بخط قناطر السباع، وبخط السبع سقايات، وبحكر الخليلي، ومنها أيضا خط الكبش والجامع الطولوني والعسكر الى حيث قنطرة السد وبستان الطواشي.

ويصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو الفسطاط بقوله[١]: وتعتبر الفسطاط مدينة كبيرة (ثلث بغداد) ومقدار نحو فرسخ، على غاية من العمارة، ذات رحاب في محالها، وأسواق عظام، ومتاجر فخام... وترتفع البيوت حتى خمس وست طبقات، وربما بلغت سبعا.

ويذكر ابن حوقل[٢]: قد يسكن في الدار الواحدة (المقصود البناء وليس الشقة) المائتان من الناس. كما غرس بعضهم الاشجار والورود والازهار، فوق سطح الدور. ورفعوا اليها المياه. وثمة شوارع تضاء ليلا ونهارا لان الضوء لا يصل اليها.

ويشرب اصحاب الابنية المجاورة للنيل من مائه الذي يرفع بالحبال في اسطال، حتى قدّر انه كان بها أكثر من ستة عشر الف سطل (١٦ الف سطل)[٣]. في حين كان يحمل السقاؤون الماء الى البعيدة منها، من النيل على الإبل او على اكتافهم. وكان يملأ بعض الناس قدورًا من النحاس الدمشقي، حتى ان امرأة كما يقول ناصر خسرو[٤]: «كانت تملك خمسة

(١) ناصر خسرو، سفر نامة: ١٠١.

(٢) ابن حوقل، ابو القاسم محمد البغدادي الموصلي، المسالك والممالك، طبعة بيروت ١٩٥٧ م: ١٣٧. ناصر خسرو، سفر نامة: ١٠١.

(٣) زيدان، التمدن الاسلامي: ٢/ ١٨١.

(٤) ناصر خسرو، سفر نامة: ١٠٤.

آلاف قدر، تؤجر الواحد منها بدرهم في الشهر، على أن يُعَاد اليها سليما».

ويدأ بناء العسكر في سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠م. بعدما وصلت عساكر العباسيين، للحاق بآخر الخلفاء بني أمية ـ مروان بن محمد ـ الذي ولى منهزما الى مصر، من بني العباس[١]. وقد نزلت جيوشهم، بقيادة صالح ابن علي، وأبي عون عبد الملك بن يزيد في الصحراء المشهورة بالحمراء القصوى، حيث جبل يشكر، وكانت هذه فيما سبق، عمائر وخطط لبني الازرق، وبني روبيل، وبني يشكر بن جزيلة.

وأنشأ العباسيون في هذه الصحراء دارا للامارة ومسجدا، فعرف بجامع العسكر، عندها شجّع العباسيون الناس على البناء، فامتدت الابنية حول دار الامارة والمسجد حتى شغلت كامل المساحة التي تفصل العسكر عن الفسطاط، فاتصلتا[٢]. وصار امراء مصر ينزلون به، اذ أصبح مدينة قائمة بذاتها، ارتفعت فيها الدور، وأقيمت الاسواق، وجعل بها شرطة (الشرطة العليا)، حتى ان أحمد بن طولون عندما جاء من العراق الى مصر نزل بدار الامارة في العسكر، الى ان بنى قصره بالقطائع. وكان موضع مدينة العسكر، ما بين قناطر السباع وحدرة ابن قيحة الى كوم الجارح حيث الفضاء.

وبدأ بناء القطائع في ولاية أحمد بن طولون على امارة مصر في الحادي والعشرين من رمضان سنة ٢٥٤هـ/ ١٧ ايلول/ سبتمبر/ ٨٦٨م. وذلك انه لما ثبت اقدامه بالامارة، وكثرت امواله وعبيده ورجاله، وضاقت به دار الامارة بالعسكر. ركب الى جبل يشكر وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى، وابتنى

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ١/ ٣٢٦ ـ ٣٢٨.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٠٥.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ١/ ٣٢٨،

موضعها، القصر والميدان وجامعه المشهور، الى الشرق من العسكر والفسطاط، ثم أمر عبيده وأصحابه ان يبنوا لانفسهم حوله[1].

فاقطعت القطائع لطوائف غلمانه وعبيده، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها، فوجدت القطائع التالية: قطيعة النوبة، وقطيعة الروم، وقطيعة الفراشين (الخدم)، ولكل فئة من الغلمان قطيعة تعرف بهم، أما القوّاد فابتنوا لهم في مواضع متفرّقة. فعمرت القطائع بأحسن البنيان، واخترقتها الطرقات والممرات، كما بنيت فيها المساجد والحمامات وسائر المرافق العامة، كالطواحين والافران، وأقيمت الاسواق المتخصصة بأصناف معيّنة من البضائع: كسوق العيارين الذي جمع البزازين والعطارين، وسوق الفاميين الذي يجمع الجزارين والبقالين والشوايين، وسوق الطباخين، ويجمع ايضا الصيارف والخبازين والحلوانيين، عدا الاسواق الاخرى[2].

أنشأ احمد بن طولون قصره وجعل له ميدانا كبيرا، حتى طغى اسم الميدان على القصر. وكان به عدة أبواب منها[3]: باب الميدان، يخرج ويدخل منه معظم الجيش. وباب الصوالجة[4]، ومنه يدخل الناس. وباب الخاصة، وهذا مخصص لخاصة ابن طولون فقط. وباب الجبل ويصل الى جبل المقطم. وباب الحرم الذي لا يدخل منه الا من كان خصيا من الخدم او الحريم. وباب الدرمون المنسوب الى حاجب أسود

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٣١٤ ـ ٣١٥.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٣/ ١٤ ـ ١٦.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٣١٥.

(٣) المقريزي، الخطط: ٣١٥ ـ ٣١٦.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٣/ ١٦.

(٤) وهو الباب الذي يخرج منه لاعبو الصوالجة، اي ضرب الكرة بعصى «الصولجان» وهي كانت رياضة محببة الى ابن طولون وخاصته، حتى انه خصص لها ملعبا كبيرا عند سفح الجبل.

يقال له الدرمون. وباب دعناج نسبة الى حاجب يجلس عنده يقال له دعناج. وباب الساج المصنوع من خشب الساج. وباب الصلاة الذي يؤدي السالك عبره الى جامع أحمد بن طولون، وعرف هذا الباب بباب السباع لانه ركب فوقه صورة سبعين من جبس، ومنه يخرج الناس.

وكانت طريق أحمد بن طولون الى القصر واسعة، فقطعه بحائط، وجعل به ثلاثة أبواب كبيرة متصلة ببعض، حتى اذا ركب يخرج لحراسته عسكر كثيف في صفوف منتظمة، ثم يخرج هو من الباب الاوسط بمفرده، من غير ان يختلط به أحد. وتفتح هذه الابواب الثلاثة معًا في مناسبات ثلاث: يوم العيد، ويوم عرض الجيش، ويوم الصدقة. وما عداها فيتم برسوم معلومة[1].

وجعل للقصر مجلس يشرف منه احمد بن طولون، يوم العرض، ويوم الصدقة، لينظر من اعلاه من يدخل ويخرج، وفوق باب السباع مجلس آخر، يشرف منه، على القطائع ليرى حركات الغلمان، وتأهبهم وتصرفهم في حوائجهم، ويشرف منه ايضا على البحر وعلى مدينة مصر (الفسطاط).

وبنى ابن طولون جامعه المشهور فوق جبل يشكر، ومارستانة في المعسكر، والاصطبلات وغيرها من المرافق العامة. ولما مات قام من بعده ابنه خمارويه، فحوّل الميدان الكبير بأكمله الى بستان غرسه بمختلف انواع الاشجار والورد والرياحين وأجرى به الماء في السواقي، وكما جذوع النخل نحاسا مذهبا، وسرّح فيه مختلف انواع الطيور وخاصة منها ذات الاصوات الحسنة والريش الجميل، وأقام في قاعة من داره صورته وصور خطاياه والمغنيات اللاتي تغنينه بأبهى ما يكون. ولاستراحته من التعب والسهر، وحتى يأخذ قسطا من النوم بعد الارق، فقد صنع له بركة من الزئبق ينام فوقها على فراش من الحرير المشدود الى حلقات من الفضة[2].

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٣١٥.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/٣١٦ وما بعدها.

نستطيع القول بعد هذا العرض الموجز بأن هذه المراكز الثلاثة: مصر (الفسطاط)، والعسكر، والقطائع، انما أنشئت في الاساس لاغراض عسكرية، ثم ما لبثت ان نمت وتطوّرت هذه الوحدات وازدهر العمران فيها، وانتشرت بانتشار سلطة منشئها، واستمرارية هذه السلطة. وكانت قاعدة الحكم تنتقل على التوالي من وحدة الى اخرى. الا ان مصر (الفسطاط)، ظلّت المركز الذي اعتمد عليه سكان العسكر والقطائع لتحوله من معسكر للجند الى مدينة يسكنها الاهالي واصحاب الحرف اليدوية والصنائع، فازدهرت حركة البناء فيها، وانتشرت حتى مجرى النيل. بينما صارت القطائع الى زوال، اذ لم يبقَ سوى المعسكرات بعدما دخل محمد بن سليمان سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م، الى مصر[١] على رأس قوة من جيش العباسيين، وأزال قصر ابن طولون والمراستان، فعادت قاعدة الامارة من جديد الى المعسكر، ورجعت العظمة الى دار الامارة فيه، بعد ان كان أحمد بن طولون قد حوّلها الى ديوان الخراج، حتى مجيء جوهر الصقلي القائد الفاطمي وفتحه لمصر وبنائه للقاهرة[٢].

لم يؤثر بناء القاهرة على مصر (الفسطاط)، والعسكر، اول الامر، لانها كانت مبنية على شاطىء النيل، بينما القاهرة بعيدة عنه، لكن تعاقب المصائب على مصر (الفسطاط) اثناء خلافة الحاكم بأمر الله، والمستنصر بالله، من حريق وتخريب ومجاعة وامراض، وخاصة الحريق الذي امر به اخيرا شاور بن مجير السعدي، وزير العاضد لدين الله، أدى الى خراب الأجزاء الواقعة بين جامع عمرو بن العاص والقاهرة، فانفصلت عنها،

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ١١/ ٣٩٢.

القرطبي، عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبري: ٥ و ٦.

(٢) زيدان، تاريخ التمدّن الاسلامي: ٢/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

فييت، القاهرة مدينة الفن والتجارة: ١٦ و ٢٧.

وأصبحت مجرّد مركز اداري لمصر العليا ونمت القاهرة وتطوّرت على حساب الفسطاط، كونها مقر الخليفة ورجال أعماله وعساكره[١].

ـ الجزيرة (الروضة)

تقع الجزيرة، في مجرى نهر النيل عند انقسامه الى فرعين على ساحل مصر (الفسطاط)، اذ تعرف بـ«جزيرة مصر» و «جزيرة الفسطاط»، كما تعرف بـ«جزيرة المقياس»، لان اسامة بن يزيد التنوخي، عامل الخراج بمصر، على عهد خلافة سليمان بن عبد الملك، أقام مقياس النيل على أرضها[٢]. ولما تتمتع به تلك الجزيرة من موقع حصين طبيعيا، فقد أنشأ أحمد بن طولون سنة ٢٢٣هـ/ ٩٨٤م، حصنا بها، الا ان مياه النيل جعلت الحصن يتآكل شيئا فشيئا، حتى جاء اليوم الذي ازال فيه الاخشيد قلعة ابن طولون في سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٤م، كما نقل «دار الصناعة» ـ صناعة الشواني الحربية والمراكب النيلية التجارية ـ الى ساحل مدينة مصر الغربي، فأصبحت متنزها، فعرفها الناس حينذاك بـ«جزيرة الحصن»[٣].

وعرفت أخيرا بـ«جزيرة الروضة» وما تزال، لان الافضل بن امير الجيوش، بدر الجمالي عمّر له قصرا وسط بستان سماه «قصر الروضة» وأحيانا «بستان الروضة» في سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٧م، وبنى فيها الخليفة الآمر بأحكام الله «قصر الهودج» لمحبوبته البدوية، كما قتل فوق الجسر المؤدي الى هذا القصر في الروضة[٤].

لكن البناء ازداد في الجزيرة كثيرا، حتى وضع الصالح ايوب يده عليها

---

(١) مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٤٠.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٢٧، حاشية رقم ١.

(٣) زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي: ٢/ ١٨٠، هامش.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٨٥.

بكاملها بعد ان هدم كنائسها وجوامعها، واخلاها من الناس، وجعلها قلعة لدولته[١].

ـ الجيزة:

أبت جماعة من قبائل العرب، عند فتح مصر، الا ان تبقى في الجيزة، لما استقر عمرو بن العاص في مصر (الفسطاط). وامتنعت عن الانتقال اليه واختطت لنفسها في تلك المحلة خططا، وبنى يافع بن الحرث من قبيلة رعن، في وسط الجيزة، «الحصن» بناء لطلب الخليفة عمر بن الخطاب الذي كتب الى عمرو بن العاص قائلا[٢]: «كيف رضيت ان تفرّق عنك اصحابك، وتجعل بينك وبينهم بحرا... فاجمعهم اليك ولا تفرقهم، فان أبوا واعجبهم مكانهم، فابن عليهم حصنا من فيء المسلمين».

ومع هذا كرهت طائفة منهم أن تبني نفسها داخل الحصن، بل اتخذت لها في الفضاء خارج الحصن، واشتهر من هذه القبائل[٣]: همدان، التي اختطت لنفسها الى الشرق، وحاشد بن نوف الغرب، اما بنو عامر بن بكيل، وبنو حجر بن بكيل ايضا، فاتجهوا نحو الجنوب، وأقام الحبشة بمحاذاة الشارع الكبير. ثم كثر البناء حتى اتصل بعضه ببعض لاسيما على عهد الخليفة عثمان بن عفان عندما وفد على القبائل بعض من ذويها.

وكانت الاتصالات تتم بين هذه الاجزاء: مصر (الفسطاط)، الجزيرة، الجيزة، عبر جسور من السفن الراسية في عرض مجرى فرعي النيل، ففوق

---

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٦/ ٣٢٠ و ٣٤٠.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر: ١/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ١٣٦.

جسر من ثلاثين سفينة يمر المرء من الفسطاط الى الجزيرة، ومن هذه الى الجيزة، فوق جسر مماثل[1].

ولم تصبح المدينتان واحدة ـ مصر (الفسطاط) والقاهرة ـ الا اعتبارا من بداءة العهد الايوبي تقريبا، على أثر حريق الفسطاط الذي استمر لهبا ودخانا اسود ينبعث منها... لتمام أربعة وخمسين يوما، والنهاية من العبيد ورجال الاسطول وغيرهم من هذه المنازل يعبثون في طلب الخبايا[2].

وقتذاك خربت مصر (الفسطاط) لتبقى، كما يقول ابن جبير[3]: «آثار من الخراب الذي احدثه الاحراق الحادث فيها وقت الفتنة، عند انقسام دولة العبيديين (كسائر المؤرخين الفاطميين)، وذلك سنة أربع وستين وخمس مائة هـ/ ١١٦٩م.

لكن نمو القاهرة واتساعها كعاصمة للبلاد، ومركز للخليفة او السلطان، لم يؤثر برأي ابن جبير في جعل الحياة تنبض من جديد في شرايين، العاصمة القديمة العمرانية (فأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل، وهي مدينة كبيرة»[4].

استعملت الدواب كوسيلة للانتقال بين القاهرة ومصر (الفسطاط) حتى أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. فهذا رحالة اندلسي

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامة: ١٤٠.
ابن حوقل، المسالك والممالك: ١٣٧.

(٢) ابن الاثير، الكامل: ٩/ ٩٩.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ٢٩٦.
والخطط: ١/ ٣٣٨.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٥٠.

(٣) ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الاندلسي، رحلة ابن جبير، (منشورات دار صادر ـ ودار بيروت)، بيروت ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م: ٢٩.

(٤) المصدر السابق والصفحة نفسها.

يقول بعد زيارة القاهرة[1]: «لما استقريت بالقاهرة، تشوّقت الى معاينة الفسطاط، فسار معي اليها أحد أصحاب القرية، فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة للركوب جملة عظيمة، لا عهد لي بمثلها في المغرب، فركب منها حمارا وأشار اليّ أن أركب آخر، فأنفت من ذلك جريا على عادة خلفته في بلاد المغرب، فأخبرني انه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها، فركبت».

ويصدقنا القول الرحالة الفارسي المعاصر، حين يذكر[2]: «ويركب أهل السوق، وأصحاب الدكاكين الحمر المسرجة في ذهابهم وايابهم من البيوت الى السوق. وفي كل حي على رأس الشارع، حمر كثيرة عليها برادع مزينة، يركبها من يريد، نظير اجر زهيد، وقيل انه يوجد خمسون الف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى. ولا يركب الخيل الا الجند والعسكر، فلا يركبها التّجار او القرويون او اصحاب الحرف والعلماء». وتتساوى القاهرة والفسطاط في العيوب، فهي واحدة تقريبا[3]. طرقات ضيقة مظلمة، كثيرة التراب والزبالة، وجوّ مغبر.

عرفت هاتان المدينتان فيما بعد باسم «مصر ـ القاهرة»، أو «القاهرة ومصر القديمة»، و «القاهرة» شاملة كامل الاقسام والاجزاء التي قدمنا نبذة تاريخية لتأسيسها.

---

(١) ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٣١.

المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦٦.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامة: ١٠٥.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٦٦.

القسم الثالث

نظم الحكم

تمهيد

يشمل القسم الثالث من هذه الدراسة النظم الفاطمية: السياسية، والإدارية، والمالية، والقضائية.

ينعكس النظام السياسي على الحياة اليومية أيام الفاطميين في إيجابياته وسلبياته. فتظهر الايجابيات في بقاء السلطة بيد الخليفة، ومباشرته اياها مباشرة او بطرق غير مباشرة، لما فيه خير البلاد والعباد. وتبدو سلبيات النظام السياسي عندما تتحوّل السلطة الى يد الوزراء، وغيرهم من الأمراء، الذين يتولونها بطرق ملتوية وغير شرعية عن طريق الاغتصاب والمؤامرات التي يسعون اليها، فيلحق من جرائها الضرر كل الضرر بالبلاد والعباد. وتفيدنا دراسة النظام السياسي في معرفة مظاهر الأبهة والعظمة التي ترافق عملية اخذ البيعة، وانتقال الخلافة الى الخليفة الجديد مع ما يصاحب الانتقال من أمور أخرى.

وتوضح دراسة النظام الإداري صور الحياة الاجتماعية التي كان يحياها المجتمع الفاطمي في ظل التقسيمات الإدارية، وحسب الدواوين التي كانت موجودة آنذاك، ووفق القوانين الموضوعة.

وتمكنّنا دراسة النظام المالي الفاطمي معرفة الواردات والنفقات. وإرادات الدولة التي تأتي عن طريق: الخراج، والجزية والزكاة، والمواريث العشرية، والمستغلات، والمصادرات، والاحباس والمكوس. في حين تذهب النفقات على وجوه عدة منها: الرواتب والهبات والاعطيات، ونفقات اعداد الجيش والأسطول وتسليحهما، ونفقات الخزائن، والأعياد والمواسم وهبات المساجد والمكتبات وغيرها.

أما إلقاء نظرة ولو سريعة على النظام القضائي وما تتبعه من نظام الحسبة، والشرطة، وإدارة السجون، قد يكمّل الصورة الاجتماعية الفاطمية في إبراز معالم القضاء، والاحكام القضائية. وابراز صورة القضاء على حقيقتها دون لف ومواربة يجعلنا نتبيّن النتائج المترتبة على أحكامهم وأوضاع المجتمع في ظل تلك الأحكام من عدل وأمن وطمأنينة، او فلتان امني وتسيّب قانوني، وحرية في التصرّف حسب الهواية

الفصل الأول

النظام السياسي

اولاً: الخلافة:

قضت السياسة الفاطمية في مصر بأن يمارس الخلفاء سلطات اوتوقراطية غير محدودة على الرعايا. لكن ممارسة هذه السلطات كانت تختلف من خليفة إلى آخر بحسب قوته او ضعفه. فالخليفة رأس الدولة المهيمن على الأمور الإدارية والمالية والدينية فيها، تصدر عنه الأوامر، واليه تنتهي المشورة والفتاوى الدينية والقضائية. فسيطر الخلفاء سيطرة كاملة وشاملة على جهاز الحكم في مصر منذ تأسيس القاهرة في اوائل النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حتى أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حيث بدأت سلطة الخلفاء تخف تدريجياً حتى انتهت الى زوال الدولة الفاطمية على عهد العاضد لدين الله.

انقسم العهد الفاطمي في حكم مصر الى دورين تاريخيين اختلفا اختلافاً كليا في من كان صاحب السلطة السياسية: فالدور الأول هو دور حكم الخلفاء: المعز لدين الله، والعزيز بالله بن المعز لدين الله، والحاكم بأمر الله ابن العزيز بالله، والظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله، أما الدور

الثاني، فهو دور الخلفاء الضعفاء الذين حكموا اسميًا وهم: المستنصر بالله ابن الظاهر لإعزاز دين الله، المستعلي بالله بن المستنصر بالله، والآمر بأحكام الله بن المستعلي بالله، والحافظ لدين الله بن أبي القاسم محمد بن المستنصر (وهو أول خليفة لم يل ابوه الخلافة)[1]. والظافر بأمر الله بن الحافظ لدين الله، والفائز بنصر الله بن الظافر بأمر الله، وأخيراً العاضد لدين الله بن يوسف بن الحافظ (وهو أيضاً أبوه لم يل الخلافة)، وبه انتهت الدولة الفاطمية.

نجحت السياسة الفاطمية في دورها الأول نجاحاً كبيراً لبقاء السلطة بيد الخلفاء. وقد أُحيط شخص الخليفة بهالة من الرهبة والقداسة، لأن حكمه من الله نزّل وَحياً، ويورثه علم الأنبياء والمرسلين، ويطلعه على كل ما كان وما سيكون على حد قول احمد أمين[2].

وفي اعتقادهم، ان الله اصطفى الخليفة الفاطمي بعلم التأويل، فهو وحده الذي يعلم بواطن الاشياء، ووحده القمين بفهم القرآن الكريم والسنة والشريعة، والقادر بمفرده على تفسيرهما، كونه مستودع العلم الشرعي، تنتقل هذه الصفة منه الى ولده وطريق الميلاد الطبيعي، كما انتقلت من الله تعالى الى النبي محمد، فالإمام علي، فالأئمة من نسل فاطمة الزهراء من

---

(١) قال ابن خلكان: ولم يتولّ الامر من ليس أبوه صاحب الامر من بيتهم سواه (الحافظ) وسوى العاضد عبدالله، وكان سبب توليته، ان الآمر لم يخلف ولدا وخلف امرأة حاملا، فماج اهل مصر وقالوا: هذا البيت، لا يموت امام منهم حتى يخلف ولدا ذكرا وينص عليه بالامامة، وكان الآمر قد نص على الحمل، فوضعت له المرأة بنتا. ولهذا السبب بويع الحافظ بولاية العهد.

ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٣/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) أمين أحمد، ضحى الاسلام، (منشورات دار الكتاب العربي)، الطبعة الرابعة، بيروت (لا.ت.): ٣/ ٢٢٠.

بعد[١]، لذلك فهو (الخليفة) معصوم عن الخطأ، طاعته واجبة، وقوله حق.

من أجل كل هذا كان يصحب اعتلاء الخليفة الفاطمي سدة الخلافة، مظاهر في غاية الابهة والعظمة، يجتمع فيها الأمراء والقضاة، ورجال الدين وكبار رجال الدولة. وإذا ما جلس على عرش الخلافة، أصبح من الصعب إيجاد حد فاصل بين ما يفصل فيه من الأمور الدينية، أو المسائل السياسية والإدارية، لأن بيده السلطتين الدينية والزمنية. من هنا جاء تعظيمهم لخليفتهم وتقديسه (نظرية الحق الإلهي المقدس) والمغالاة في ذلك، كأن يترجّل من كان راكباً، ويركع عند رؤيته ويسجد حتى لمن يريده، معتبرين تقبيل ردائه شرفاً عظيماً[٢].

يعتبر الخليفة رأس الدولة، فتشمل سلطته السياسية، قيادة الجيش، باعتباره القائد الأعلى له، ورأس السلطة التنفيذية، فهو الذي يعيّن الوزراء والولاة والأمراء، وسائر الموظفين، ويقطع الاقطاعات. وهو القاضي الأعلى (رأس القضاة). ويتولى ديوان المظالم أحياناً، ويسمّي قاضي القضاة، والكتّاب العدول والشهود وغيرهم، وله حق اقالتهم او صرفهم ومصادرة أموالهم. وتتكرّس سيادته الدينية، في ذكر اسمه على المنابر ونقشه على السكة والطراز. وهو الذي يحّث على الجهاد، ويستعرض الجيوش البرية والبحرية ليباركها، ويدعو لتخفيف ويلات الكوارث الطبيعية إذا نزلت ببلاده، كالزلازل والفيضانات او انتشار الوباء او الجراد وما شابه ذلك... والخليفة صاحب الحق بالثواب أو العقاب، بالمكافأة أو بالعزل من المناصب مع مصادرة الأموال والأملاك إذا اتضح انها جمعت بطرق غير مشروعة[٣].

---

(١) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ٥٨ ـ ٦٢.

(٢) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/٥١ ـ ٥٤.

المقريزي، الخطط: ٢/٢١٨ ـ ٢١٩. السيوطي، حسن المحاضرة: ١/٦٠٢.

Canard, M Fatimides, Cit, P.: 877 A.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٥٩.

إذا استثنيا خلافة المعز لدين الله وولده العزيز بالله، نجد أن خلافة باقي خلفاء الدور السياسي الأول، قد بدأ الضعف يتسرّب إليها وتحاك المؤامرات حولها: منها ان العزيز بالله قبل موته، كان قد جعل أبا الفتوح برجوان (عند ابن الأثير ارجوان)(١) وصيا على ابنه الحاكم بأمر الله، ومدبرا للدولة، فثار الكتاميون بزعامة ابي محمد الحسن بن عمّار، مطالبين باسناد الوزارة الى زعيمهم، فكان لهم ما ارادوا، واستولى الحسن بن عمّار عليها وتلقّب بـ«أمين الدولة»(٢). وهو اول من تلقب في الدولة الفاطمية، فأشار عليه ثقاته بقتل الحاكم بأمر الله وقالوا(٣): «لا حاجة الى من يتعبدنا». فلم يفعل احتقاراً له واستصغاراً لسنه. وتسلّط الكتاميون على الدولة، ومدّوا أيديهم الى أموال الرعية، حتى ثارت ضدهم، وأبعدت ابن عمّار عن الوزارة، واستلم برجوان الواسطة(٤)، إلى ان غضب عليه الحاكم بأمر الله بعدما طغى وتجبر،

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ١٧٨.
ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١.
المقريزي، الخطط: ٢/ ٣ ـ ٤.
واتعاظ الحنفا: ١/ ٢٩٢.
آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري: ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٣/ ١٧٨.
ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٥٥.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٠ ـ ١٥.
متز، الحضارة الاسلامية: ٢/ ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ١٨٧.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٠ ـ ١٥.
(٤) تغيّر اسم الوزارة على عهد الحاكم بأمر الله وأبدل: بـ«الواسطة».

فدبّر قتله عن طريق طعنه بالسكين من قبل صاحب المظلة[١] ابو الفضل ريدان الصقلبي[٢].

انفرد بعدها الحاكم بأمر الله بتدبير أمور الدولة، وألغى الواسطة، وبدأ في سياسته الخرقاء يظلم الناس ويسبّح، فاضطهد اهل الذمة والمسلمين من غير الشيعة على حد سواء[٣]. حتى اتهم شقيقته «ست الملك» بارتكاب الفحشاء، فما كان منها الا ان دبّرت مؤامرة قتله مع ابن بدواس (سنفصّل ذلك في القسم الثالث، الفصل الأول) وأخذت مراسم البيعة الى ابن اخيها الصغير «الظاهر لاعزاز دين الله» متسلّطة على امور الدولة كافة مدة اربع سنين إلى حين وفاتها[٤].

ولم تترك السلطة كاملة للظاهر لإعزاز دين الله، لأن الشريف الكبير أبا طالب، الحسين العجمي القزويني، والشيخ نجيب الدولة أبا القاسم علي بن احمد الجرجرائي، والشيخ العميد محسن بن بدواس، قرّروا الا يسمح

---

(١) المظلة: عبارة عن قبة على هيئة خيمة تعلو رأس عمود، تُحمل فوق رأس الخليفة عند ركوبه في الاحتفالات، ولها مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، لذلك كان حاملها من أكبر الامراء. ويختلف لون المظلة باختلاف لون ثياب الخليفة.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٦٩ و ٤٧٣ و ٤١٢ ـ ٥١٣ و ٥١٥ و ٥٢١.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/ ١٨٧.

ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/ ٢٧٠.

ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٥٥ ـ ٥٦.

ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ٣٢٧.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) حسن، الدولة الفاطمية: ١٦٥.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١١٦ ـ ١٣٠.

ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٩٤ ـ ١٩٦.

السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ٦٠٣.

لغيرهم بالدخول على الخليفة. وراح هؤلاء الثلاثة يقضون ويمضون، ويشيرون ويفعلون في امور الدولة ما يرونه، مع اجتماعهم بالقائد الأجل معضاد دون الآخرين[١].

وما جرى للحاكم بأمر الله، جرى مثله للمستنصر بالله مع بعض الاختلاف فقد اخذ البيعة له، وزير ابيه علي بن احمد الجرجرائي[٢] وهو ابن سبع سنين[٣]، فبقي الجراجرائي في الوزارة حتى توفي سنة ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٥م، فخلفه ابو منصور صدقه من يوسف الفلاحي، وفي عهد هذا الوزير ازدادت سلطة ابي سعيد سهل بن التستري اليهودي الذي كان يعمل في خدمة ام الخليفة، مما افسح له المجال للتدخل بشؤون الحكم والإدارة، وضغطت سيّدته على ولدها الخليفة ليغض الطرف عن تجاوزاته، لأنها قبل زواجها من الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله كانت جارية في بيت التستري.

وشاءت الأقدار ان تهدد البلاد الأخطار من مجاعة ومرض ولصوصية، بسبب الجفاف ولخروج جند الخليفة من الأتراك عن ارادته، ممّا جعله يستنجد بأمير الجيوش بدر الجمالي لإصلاح الأمور وإعادة البلاد الى حالتها الطبيعية، فتسلّط امير الجيوش عليها[٤]. وأفضل وصف لحالة الخلفاء في الدور السياسي الثاني، ما قاله السيوطي[٥]: «لم يكن للمستنصر بالله ومن بعده من الخلافة سوى الإسم فقط، لاستيلاء وزرائهم على السلطة، وكافة

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/١٤٨.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٨/١١.

ابن العماد الحنبلي، ابي الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، (المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع)، بيروت (لا.ت.): ٣/٢٣٢.

(٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/٢٢٩.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/١٥٤.

(٤) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/٢٢ ـ ٢٣.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة: ١/٦٠٩.

الأمور، وحجرهم على الخلفاء. وتلقّبهم بألقاب الملوك، فكانوا معهم كخلفاء بغداد مع بني بويه وأشباههم». فمنذ تولي امير الجيوش بدر الجمالي السلطة، ضعفت سيطرة الخلفاء الفاطميين[1].

وإن حاول بعض خلفاء هذا الدور استعادة سلطتهم، وانتزاعها من ايدي الوزراء الذين تلقبوا بألقاب مختلفة، تدل دلالة واضحة على بدء سيطرتهم وتحكمهم بالخلافة الفاطمية، فإنه لم يكتب النجاح لهذه المحاولات لفترة طويلة[2]. إذ سرعان ما استعاد الوزراء سلطاتهم التي اكتسبوها بفضل ما اثقل كاهل الخلافة الفاطمية في هذه الفترة التاريخية، من اعباء سياسية وفكرية ودينية. وقد جاءت هذه الأعباء نتيجة للحروب التي لم تنقطع ضد الدولة العباسية والقرامطة والسلاحقة الأتراك. وأخيراً للصليبيين، وبفضل ربط الدعوات الشيعية بزعامة الإسماعيلية في القاهرة[3].

وزاد في ضعف السياسة الفاطمية وسيطرتها على مصر، ما قامت به الدولة لوقف الحركات الشعبية التململية ازاء حلول المجاعات والأوبئة، فكانت النتيجة، ضعف سيطرتها، وفلتان حبل الأمن الذي تسبّب في نقص الموارد المالية، وبالتالي عجزها عن دفع رواتب الجند، وتقلّص سيطرتها خارج الأراضي المصرية[4].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
حسن، الدولة الفاطمية: ١٥٠.

(٢) حمادة، محمد، الوثائق السياسية والادارية للعهود الفاطمية والاتابكية والايوبية، دراسة ونصوص (نشر مؤسسة الرسالة)، الطبعة الاولى، بيروت ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م: ٤٢ ـ ٤٣.

(٣) سعد، أحمد، تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي (مصر الفرعونية، الهيلنية، الامبراطورية الاسلامية، الفاطمية، من المغرب الى مصر، عهد المماليك، (منشورات دار ابن خلدون)، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٩ م: ٢٨.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى: ٦/ ٤٥٨ ـ ٤٦٣.

ومن الأمور التي اضعفت السيادة الفاطمية، تدخل النساء في امور الخلافة[1] وتعيين الوزراء واقالتهم، مع طغيان هؤلاء على شؤون الحكم، وحجرهم على الخلفاء، وتولية من يتوافق وسياستهم من الخلفاء، صغار السن، وغير الأصحاء احياناً. يضاف الى هذه العوامل، عامل الصراع بين افراد الأسرة الحاكمة، او انقسام الحزب الفاطمي (الاسماعيلي) الى حزبين، النزارية، والمستعلية، فجرى بين الحزبين نزاع حربي وجدل مذهبي، يتضح ذلك من الرسالة التي اذيعت لتبرير حق المستعلي بالله في الخلافة، ودحض دعوى أخيه نزار بها[2].

اتبع الفاطميون، في انتقال الخلافة من خليفة إلى آخر، مبدأ الوراثة، كما كان سائداً من قبل، في العصرين الأموي والعباسي. واعتقد ان مرد هذه السياسة الى اعتقادهم بأن الله تعالى: اصطفى الخليفة بعلم التأويل، وان هذه الصفة تنتقل منه الى ولده بطريق الميلاد الطبيعي[3]، وإلى آرائهم السياسية (اسماعيلية) التي تقول بظهور رجل (المهدي)[4]، من نسل فاطمة الزهراء يستعيد الحكم من العباسيين، فكان الخليفة اذا ما شعر بدنو اجله يسمي[5] ولي عهده، على ان تؤخذ له البيعة من جديد في الجامع بعد وفاة الخليفة، وقد يضطر الخليفة الجديد (الولد) احياناً إلى عدم الإعلان عن وفاة

---

(١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق: ٦٠.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/١١٦ و ٣/٢٢٠ ـ ٢٢٤.

(٢) الشيال، جمال الدين، مجموعة الوثائق الفاطمية، (منشورات دار المعارف)، القاهرة ١٩٦٥م: ٢٠٥ ـ ٢٣٠.

(٣) الكليفي، محمد بن يعقوب، كتاب الوافي، طبعة فارس، ١٢٨١ ه‍ ١/٨٢ ـ ١٣٥.

(٤) البغدادي، ابو منصور عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق، وبيان الفرقة الناجية منهم، (منشورات دار الآفاق الجديدة)، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٠ م: ٣٨ ـ ٤٣.

(٥) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/٥٢ ـ ٥٤.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/١١٢.

الخليفة السابق (الوالد)، مخافة القضاء على خلافته، وهو ما حدث للمعز لدين الله، إذ اخفى موت ابيه المنصور بنصر الله مدة، وللعزيز بالله الذي ستر موت ابيه المعز لدين الله من ١١ ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ/كانون اول/ دسمبر/ ٩٧٥م. وهو تاريخ وفاته الى ١٠ ذي الحجة من السنة نفسها[١].

وكان امتناع كل من الخلفاء القائم بأمر الله والمنصور بنصر الله عند اعلان وفاة والديهما لأسباب تتعلق بمصير الدولة. وعندما بدأ الضعف يتسرب الى الخلافة الفاطمية، خرج حق اختيار الخليفة من أيدي أصحابه، وانتقل الى أصحاب الحل والربط، اي الوزراء الذين اصبحت في ايديهم السلطة الفعلية. فالخليفة المستنصر بالله اختار لخلافته في الأمامة ابنه ابا منصور نزار كبير أولاده[٢]، لكن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي عمل على إبعاده وأخذ البيعة للمستعلي بالله. وسبب ابعاد نزار عن الخلافة، انه خرج يوماً في أيام ابيه المستنصر بالله، ورأى الأفضل راكباً، وقد دخل من احد ابواب القصر، فصاح به نزار: «إنزل يا ارمني يا نجس عن الفرس، ما أقل أدبك». فكبتها الأفضل في نفسه، وحقد عليه. فجمع الأفضل الأمراء والخواص عندما مات المستنصر بالله، وخوفهم من نزار، وأشار عليهم بتولية اخيه الأصغر المستعلي بالله بدلاً منه، فنفذوا رغبته، بينما هرب نزار الى الإسكندرية، حيث أعلن نفسه خليفة، وتلقب بـ«المصطفى لدين الله» مؤيداً من واليها وقاضيها. لكن الأفضل تغلب عليه

---

(١) ابو الفداء، اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه، المختصر في اخبار البشر، (الحسينية بمصر)، الطبعة الاولى: ٢/ ٨٠ و ٩٥.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٩٠ ـ ٩١.

(٢) مات المستنصر بالله ووزيره بدر الجمالي في سنة واحدة، عام ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م، فخلف الافضل شاهنشاه اباه بدرا، واتبع سياسته.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٣٢١.

وأتى به أسيراً إلى القاهرة حيث بنى فوقه حائطاً، فمات سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م. ثم قضى على أنصاره[١].

وكان من ابعاد تدخل الافضل في تولية المستعلي بالله، ان انقسمت الاسماعيلية الى فرقتين: فرقة تقول بامامة المستعلي، فعرفت بـ «المستعلية»، وفرقة تطعن في امامة المستعلي، وتقول بأحقية نزار، فسمّيت «النزارية». وهكذا انتهز الافضل فرصة ضعف الخليفة، المستعلي بالله، الذي يدين له بخلافته، واختار عند وفاته (المستعلي بالله) ابنه الآمر بأحكام الله، وهو طفل في الخامسة من عمره، فكان الافضل مع الخليفتين، المتوفي والجديد، السيد المطلق الصلاحية في تدبير شؤون البلاد والمتحكم في مصير العباد[٢].

وما فعله الافضل أن امير الجيوش، بدر الجمالي، اصبح قاعدة يلجأ اليها الوزراء الطامحون للانفراد بالسلطة، فلجأ عباس بن باديس الصنهاجي الى اقامة الفائز بنصر الله بن الظافر بأمر الله، في الخلافة سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م. بعد قتل أبيه، وله خمس سنين[٣]. وكذلك عمل طلائع بن رزيك عند وفاة الفائز بنصر الله دون عقب، على اختيار العاضد لدين الله اصغر اقارب الخليفة المتوفي. وعملا بنصيحة اصحابه[٤]: «لا يكن عباس

---

(١) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٢٧.

ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٣٥ و ٣٧.

المقريزي، الخطط: ٢/ ١٧٢

(٢)أبو الفداء: المختصر في اخبار البشر: ٢/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

المقريزي، الخطط: ٢/ ١٧٢ و ٣/ ٢٧. السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١٦ ـ ١٧.

(٣) ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٩٠.

المقريزي،اتعاظ الحنفا: ٣/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٤/ ١٧٥.

(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٩/ ٦٨.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

احزم منك حيث اختار صغيرا وترك من هو اسنّ منه، واستبد هو بالأمر، فراقت له هذه الفكرة وعهد بالخلافة الى العاضد لدين الله بعد ابن عمه الفائز بنصر الله، ثم تشبّه بأمير الجيوش بد رالجمالي وزوّج الخليفة على ابنته بالرغم منه طمعا في انتقال الخلافة الى بني رزيك.

ولم يقتصر التدخل في تنصيب الخلفاء على الوزراء فقط، بل تعدّاه الى النساء، فبينما عهد الحاكم بأمر الله،الى ابن عمه ابي القاسم عبد الرحيم بن الياس بن احمد بن المهدي سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣م، بولاية العهد من بعده، وكتب اسمه على الطراز. ودعي له على المنابر، وعينه سنة ٤١٠ هـ/١٠١٩ م، واليا من قبله على دمشق، فاننا نجد اخته «ست الملك» قد ابعدته عن الخلافة، بعد مقتل الحاكم بأمر الله، وعهدت الى ابنه الظاهر لاعزاز دين الله بالخلافة، مجبرة ولي العهد عبد الرحيم بن الياس على مبايعة الظاهر لاعزاز لدين الله، والسيف مصلّط فوق رأسه[1]. وكان لسياسة انتقال الخلافة بالوراثة، نتائج سلبية متعددة، منها: ان الخلافة لم تعد شورى كما كانت في ايام الخلفاء الراشدين، بل صارت ملكية وراثية واستطرادا فهذه الملكية الوراثية اوصلت الى العرش (سدة الخلافة) من هم غير اهل لتولي سلطات كهذه، سواء لناحية صغر السن او المرض، اضافة الى استهتار بعض الخلفاء ومجونهم تاركين الاحكام الى وزرائهم[2].

---

(١) يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا: ٥٧.

O'Leary, Delaey: A short history of the fatimid Khalifate, London, 1923, P. 180.

(٢) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٩٣.

أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ٨٨.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٨٨.

ابن اياس، بدائع الزهور، ١/ ٦٣ ـ ٦٥.

O'Leary: A short history of the fatimid, P. 231

واذا تساءلنا عن الدور الذي يمكن ان يلعبه اي خليفة من امثال هؤلاء في سياسة دولته، نتوصّل الى جواب بدهي، ما دام في هذه الفترة ان الخلفاء الفاطميين قد اصبحوا ألعوبة بيد الوزراء الذين قرّبوا الى سدة الخلافة من شاءوا، وأبعدوا من ارادوا لانهم، اي الوزراء، اصبحوا السلطة، أما الخلفاء، فلهم الاسم فقط[1].

ثانيا ـ الوزارة:

كان الخلفاء العباسيون أول من اتخذ الوزراء لادارة شؤون دولتهم، وأخذوا منصب الوزير عن الفرس، فكان اول وزير في الاسم ابو سلمة حفص بن سليمان الخلال، وزير ابي العباس السفاح ١٣٢/ ٧٥٠ م ـ ١٣٦ هـ/ ٧٥٤م[2]، فقبل ذلك كان الحاجب يقوم مقام الوزير[3]، ومع هذا لم تعرف مصر الاسلامية لقب الوزير (او الوزارة) لا في العهد الاخشيدي ٣٢٣ هـ/ ٩٣٤ مـ ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م، حيث وَزَرَ جعفر بن الفرات للاخشيد، فكان مقدما على سائر رجال الدواوين والقواد، يقف على بابه كثير من الحرس، واذا تقدّم بين يدي غلمان مسلّحون[4] وعندما فتح جوهر الصقلي مصر خاطب جعفر بن الفرات بالوزير بعد مراجعته في ذلك، باعتبار ان منصب الوزير لم يكن موجودا لدى الفاطميين، وكان الحاجب يقوم مقامه.

وهكذا لم يعرف الخلفاء الفاطميون، منصب الوزير الا في عهد العزيز بالله، حيث اتخذ يعقوب بن كلس وزيرا له سنة ٣٦٨ ه/٩٧٨م[5]، وان

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة: ٦٠٩/١.

(٢) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ١٠.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ٢٧٧/٣ و ٤٤٩/٥ و ١٤٨/١١.
السيوطي، حسن المحاضرة: ١١٢/٢.

(٤) متز، الحضارة الاسلامية: ١٤٧/١.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة: ١٢٩/١. Canard: Fatimides, cit,P. 877, B.

كان ابن كلس، وعسلوج بن الحسن قد حصلا من المعز لدين الله سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م، على بعض صلاحيات الوزير. وذلك عندما عهد اليهما بالخراج وجميع وجوه الاموال والحسبة والسواحل والاعشار والجوالي والاحباس والمواريث والشرطتين[١]، وجميع ما يضاف الى ذلك في سائر ولايات البلاد المصرية، وكتب لهما سجلا قرىء على منبر جامع ابن طولون، نهار الجمعة.

والجدير بالذكر ان جعفر بن الفرات[٢] اعتذر عن البقاء في مهام الوزارة بعد وصول المعز لدين الله الذي اشترط عليه عدم مغادرة الاراضي المصرية، لاستشارته في بعض الامور كلما دعت الحاجة الى ذلك[٣].

وكان جوهر الصقلي قد أقرّ الوزير جعفر بن الفرات السني المذهب في منصب الوزارة، ليأمن شر المصريين، ويكسب عطفهم وتأييدهم له، ولكن بعد ان عيّن خادماً يلازم الوزير ابن الفرات ليلا نهارا، ويصحبه في ذهابه وايابه ليكون عينا له عليه[٤].

---

(١) كانت في مصر شرطتين: شرطة عليا ومركزها العسكر (القطائع)، وشرطة سفلى ومركزها مصر (الفسطاط). ولما جاء الفاطميون نقلوا الشرطة العليا من العسكر وجعلوها بالقاهرة.

(٢) ابو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات المعروف بان خزامة، كان وزير بني الاخشيد بمصر مدة امارة كافور، ثم استقل كافور بملك مصر، واستمر ابن الفرات على وزارته، ولما توفي كافور استقل بالوزارة وتدبير المملكة لاحمد بن علي بن الاخشيد وقبض على جماعة من ارباب الدولة، كما قبض على يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله.

ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/ ٣٤٦.

(٣) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٢٥ ـ ٢٦.

ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/ ٣٤٦.

المقريزي، الخطط: ٢/ ٨٤.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١١٥ ـ ١١٩.

وكانت الوزارة في العهد الفاطمي، وزارتين، وزارة تنفيذ، ووزارة تفويض، يقتصر النظر في وزارة التنفيذ على ما يراه الخليفة، ويكون الوزير بين الخليفة والناس، فيمضي ما يأمره الخليفة به من تقليد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من مهم، وما تجدد من حَدَث[١].

ويستوزر الخليفة، في وزارة التفويض، رجلا يفوّض اليه تدبير الامور برأيه وعلى اجتهاده، فيتولى الوزير كل شيء بسلطات واسعة، ويفوض في امور الدولة، والتصرّف في شؤونها دون الرجوع الى الخليفة. وقد حدّد السيوطي صلاحية وزير التفويض بقوله[٢]: «الوزير نائب الخليفة، يفوّض اليه جميع أمور المملكة، وتولية من رآه من القضاة، ونواب البلاد، وتجهيز العساكر والجيوش، وتفرقة الارزاق الى غير ذلك». وان له «البسط والقبض والرفع والخفض والابرام والنقض والقطع والوصل، والولاية والعزل والتصرّف والصرف، والامضاء والوقف...».

ويقول عنه جرجي زيدان[٣]: «يتولى الوزير كل شيء يمضيه من الخليفة الا ثلاثة اشياء:

١ ـ ولاية العهد، فان للخليفة ان يعهد الى من يرى، وليس ذلك للوزير.
٢ ـ العزل: للخليفة الحق ان يعزل من قلده الوزير وليس للوزير ان يعزل من قلده الخليفة.
٣ ـ الاعفاء من الامامة: للخليفة ان يعفي الامة من الامامة وليس ذلك للوزير».

لكن هذه الاشياء الثلاثة خَولفت في عهد وزارة الافضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي، والوزير عباس، والوزير طلائع بن رزيك كما مرّ معنا.

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٥/٤٤٩.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة: ١/١٢١ ـ ١٢٣.

(٣) زيدان، التمدّن الاسلامي: ١/١٦١.

وحتى نعرف الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ، نورد ما ذكره الماوردي في كتابه «الاحكام السلطانية»[1] حيث قال انهما افترقا في حقوق النظر من اربعة اوجه:

الاول: «يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم وليس ذلك لوزير التنفيذ.

الثاني: انه يجوز لوزير التفويض ان يستبد بتقليد الولاة وليس ذلك لوزير التنفيذ.

الثالث: انه يجوز لوزير التفويض ان ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب وليس ذلك لوزير التنفيذ.

الرابع: انه لا يجوز لوزير التفويض ان يتصرف في امور بيت المال، يقبض ما يستحق، ويدفع ما يجب عليه، وليس ذلك لوزير التنفيذ».

وكذلك افترقا في شروط التقليد من أربعة أوجه:

الاول: «ان الحرية معتبرة في وزارة التفويض، وغير معتبرة في وزارة التنفيذ.

الثاني: ان الاسلام معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ.

الثالث: ان العلم بالاحكام الشرعية معتبر في وزارة التفويض وغير معتبر في وزارة التنفيذ.

---

(١) الماوردي، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، الاحكام السلطانية، القاهرة ١٩٠٩م: ٢٩.

حسن، حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام السياسي، القاهرة ١٩٤٥م: ٢/١٩٨ ـ ١٩٩.

الرابع: ان المعرفة بأمر الحرب والخراج معتبرة في وزارة التفويض وغير معتبرة في وزارة التنفيذ».

وهذا ما يساعدنا على القول ان وزراء التنفيذ ليس لهم استقلال بالامور حتى على عهد وزارة يعقوب بن كلس الذي استطاع ان ينتزع من العزيز بالله امرا، بأن تكون جميع المراسلات الرسمية باسمه، وان يكتفي الخليفة بتوقيعه على المراسيم[1]، فصارت المراسلات تتم على الوجه التالي:

«من يعقوب بن يوسف بن كلس وزير امير المؤمنين الى فلان...».

وتقلّد الوزارة الفاطمية ارباب الاقلام وارباب السيوف، واحيانا كثيرة كان بعض الوزراء يجمع بين صفات ارباب الاقلام وارباب السيوف. وقد فرّق القلقشندي بينهما فقال[2]: «ان الوزير اذا كان صاحب سيف، كان في مجلس السلطان قائما في جملة الامراء القائمين، واذا كان صاحب قلم، كان جالسا كما يجلس ارباب الاقلام: من كاتب السر وغيره».

ويعتبر الوزير يعقوب بن كلس اول ارباب الاقلام من وزرائهم، والمغربي وزير المستنصر بالله آخر من وزر لهم من ارباب الاقلام[3]، كما يعتبر بدر الجمالي وزير المستنصر بالله ايضا اول ارباب السيوف من وزرائهم، وصلاح الدين يوسف بن ايوب مؤسس الدولة الايوبية آخر وزير من ارباب السيوف[4].

ويجب الا ننسى ان بدرا الجمالي كان وزيرا للسيف والقلم في آن

---

(١) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر: ٤/ ٥٥.

السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١١٢.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ١١/ ١٤٩.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٤) المصدر السابق: ٣/ ٤٩٨.

معا[١]. واشتهر من الوزراء ارباب الاقلام ايضا، اليازوري، والتستري، وعلي بن الفلاح وغيرهم، ومن ارباب السيوف «برجوان»، وقائد القواد الحسين بن جوهر[٢] وغيرهما. وطغى لقب امير الجيوش على وزراء السيف الذين كانت بيدهم السلطة العسكرية والادارية معا، فهو وحده صاحب الحق في اعلان الحرب والسلم.

وتمكّن قادة العسكر في الدولة الفاطمية من الوصول الى السلطة وذلك في اواخر عهد المستنصر بالله عندما كتب سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م، الى امير الجيوش بدر الجمالي وهو يومئذ بعكا، يستدعيه للقدوم لنجدته واعانته، ويعده بتملك البلاد، والاستيلاء عليها، فاشترط عليه ان يأتي بعسكر معه وان لا يبقي احدا من عساكر مصر ولا وزرائهم، فوافقه المستنصر بالله على ذلك[٣]. واستأثر بالسلطة كاملة بعد ان قضى على امراء الدولة ومقدميها بنهاية وليمة أقامها لهم[٤]، فكان اول وزير جمع اليه السلطتين العسكرية والمدنية بما فيها حق التعيين في اكبر مناصب الدولة كقاضي القضاة وداعي الدعاة، التي كانت من حق الخليفة فيما سبق. واستمرت هذه الظاهرة حتى سقوط الدولة الفاطمية في نهاية سنة ٥٥٢هـ/ ١١٧١م، ولاول مرة تصبح الوزارة وراثية لان بدرا عهد بها الى ولده الافضل ليتولاها بعد وفاته[٥]. وأصبح ايضا بمقدور الوزراء العظام امر تعيين الخليفة الفاطمي او الحجر عليه، وحتى عزله فانقلبت بذلك الاوضاع السياسية في البلاد.

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) ابو الفداء، المختصر في اخبار البشر: ٢/ ٢٣١.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

(٣) ابن خلدون، كتاب العبر: ٤/ ٦٤.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٣١١.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٣١٢.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٣١٢. Canard: Fatimides, Cit, P. 877,B.

ويبدو ان من مهام الوزير إدارة الشؤون المالية، بالموازنة بين الواردات والنفقات، وهذا يقتضي فرض الضرائب، والاعفاء منها، والتوقيع عن الخليفة، والاشراف على الكتّاب ومراقبة الدواوين.

ويؤدي الوزير مهام بروتوكولية خاصة، كأن يرافق الخليفة داخل القصر، وأحيانا ينتظره مع غيره من الامراء والقاضي والمقرّبين... الخ، على باب القصر اذا اراد الخروج، او يرافقه في كسر الخليج، والاحتفالات العامة، ويلازمه في الاحتفالات الدينية داخل المسجد، واذا لم يحضر الوزير سماط رمضان ويجلس في صدره كان عليه ان ينيب ابنه او اخاه، والا تصدر صاحب الباب، السماط[1].

ولما كانت السياسة الفاطمية تفترض بالوزير ان يكون صاحب مقدرة في منادمة الخلفاء ومحاكاة الرعية، رأس ماله الامانة والصدق، ومن مهامه الكفاءة والشهامة[2]، لم تفرّق بين من يليها أكان مسلما ام من اهل الذمة، لذلك عرفت الدولة الفاطمية عددا من الوزراء الذميين، او الذميين الذين اسلموا حديثا طمعا في الوزارة او اية وظيفة ادارية، فمثلا: كان أبو الفرج يعقوب بن كلس يهوديا وأسلم، وقد قال عنه كافور الاخشيدي، لتفوقه في الامور المالية، ومهارته في الشؤون الادارية[3]: «لو أسلم لصَلُح للوزارة». فأسلم وهرب الى المغرب خوفا من حسد وزير كافور آنئذ (ابي الفضل جعفر ابن الفرات)، وترقى الى ان وزره العزيز بالله سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٦م، فاستقامت الامور وانتعشت البلاد. ولما اعتلّ ابن كلس، وأشرف على الموت

---

(١) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٢١.

(٢) المصدر السابق: ١٠.

(٣) ابن خلدون، كتاب العبر: ٤/ ٥٥.

ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٥٨.

آخر سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، ركب اليه العزيز بالله عائدا، وقال له[1]: «وددت أنك تباع فابتاعك بملكي، او تفتدى وافديك بولدي». وعندما توفي حضر الخليفة ودفنه، وقضى عنه دينه، وصلّى عليه، وألحده في قبره بيديه في حين كان العزيز بالله قد بناها لنفسه[2]. وكلّف العزيز بالله عيسى بن نسطوريس النصراني، بعد وفاة ابن كلس، النظر في الاموال، ثم رفعه الى رتبة الوزارة[3].

ورقّي فهد بن ابراهيم النصراني الى منصب الوزارة للحاكم بأمر الله بعد ان كان كاتبا، ولقّب بالرئيس، كذلك تقلّد الوزارة ابو نصر بن عبدون، الكاتب النصراني سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، فسمح له الحاكم بأمر الله ان يوقع عنه، كما رقي زرعة بن نسطورس المتوفي سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م، (وهو شقيق عيسى بن نسطورس وزير العزيز بالله) من كاتب الى الواسطة ايام الخليفة الحاكم بأمر الله.

وتولّى الوزارة على ايام المستنصر بالله، ابو سعد منصور بن ابي اليمن

---

(١) ابن القلانسي، الذيل: ٣٢.
ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/١٤٦.
ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٧٠/٣٣.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/١٥٨.

(٢) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٢١.
ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٧/١٤٦.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/١٥٨.
السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/١١٦.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٢/١٧٦.
ابن خلدون، كتاب العبر: ٤/٥٥.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/٢٩٥.
السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/١١٦

حورس بن مكرواه بن زنبور الذي كان نصرانيا وأسلم. وشغل أبو نجاح ابن قنا الراهب النصراني منصب الوزارة للآمر بأحكام الله، الذي أمر ان تعمل له ملابس خاصة من الصوف الابيض المنسوج بالذهب ليلبسها، ومن فوقها العفافير الديباج، وسمح له ان يركب الحمير بسروج محلاة بالذهب والفضة[1]، وهو صاحب العطر الذي تفوح رائحته من بعيد، يوميا[2]. وعهد الحافظ لدين الله بالوزارة، الى بهرام الارمني (النصراني) سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م، ولما مات حزن عليه الخليفة حزنا شديدا.

واضطرت هذه السياسة، في شغل المراكز الوزارية بالنصارى، الى ان يضع الخليفة تقليدا جديدا يعهد فيه الى القاضي القيام بأعمال الوزير عندما يكون هذا من اهل الذمة، لان على الوزير حسب العادات والتقاليد، ان يصعد مع الامام (الخليفة) المنبر ليزرر عليه المزرة (الستارة) الحاجبة له عن اعين الرعية وغير ذلك من العادات[3].

وكما استوزر الفاطميون اهل الذمة، فقد تولى الوزارة وزراء من السنّة مثل: رضوان بن ولخش على ايام الحافظ لدين الله، وأحمد بن الافضل بن بدر الجمالي وابن السلار الكردي الشافعي الذي استوزره الخليفة الظافر بأمر الله سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وكما انتقلت الوزارة من الاب الى الابن فالحفيد (مبدأ الوراثة في الوزارة الجمالية) فقد تولاها الاخ بعد اخيه: فلما توفي الوزير عبد الكريم بن عبد الحكم بن سعيد الفارقي[4] سنة ٤٥٣هـ/

---

(١) لم يكن يسمح لاهل الذمة على عهد الدولة الفاطمية باستعمال السروج المذهبة ولا الركاب المعدنية.

(٢) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٥٦ ـ ٥٨.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٢٦٧.

(٣) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٧٩.

(٤) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٤٨ ـ ٤٩.

١٠٦١م، تولى الوزارة اخوه، ابو علي احمد بن عبد الحكم بن سعيد الفارقي سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م، وكثيرا ما أقرّ ابن الخليفة وولي عهده، وزير والده عندما يعهد اليه بالخلافة.

وهكذا لم يفرّق الفاطميون بين ان يلي الوزارة مسلم (شيعي او سني) او نصراني او يهودي، فكانت العبرة للكفاءات المطلوبة، والعمل على ارضاء الخليفة (في الدور الاول) والرعية، بصدق ونزاهة، والا كان السجن مآل الوزير، كما حدث ليعقوب من كلس اذ سجنه العزيز بالله اربعين يوما وصادر من امواله خمسمائة الف دينار[1]، او المصادرة والقتل معا، او العزل والاعادة الى الوظيفة الاساسية، وهو ما حدث لوزير المستنصر بالله ابي الفرج بن المغربي الذي رد الى وظيفته قبل الوزارة، وهي كتابة الجيش، ولم يكن قبله وزير يعزل فيعود الى وظيفته الاولى[2]. وعزل أبو شجاع محمد بن الاشرف بن خلف سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٦م، بعد يوم واحد فقط من توليهما الوزارة[3]. وكانت هذه الفوضى في سرعة عزل الوزراء وكثرة تولية الآخرين سببا في كثرة السعاة في الوزارة[4]، فتبدأ حملة الطعن في حق الوزير بوصول المئات من الشكاوى ضده حتى يعزل، وهكذا، حتى ضعفت قوى الوزراء لقصر مدة حكم كل منهم، ووقع الصراع بين الاضداد، ثم انتقل الى عامة الشعب، فتلاشت الامور، وضعف الحكم وفسدت الادارة.

وذهب الوزير طلائع بن رزيك الى ان باع الولايات للامراء جاعلا لكل ولاية سعرا[5]، فتضرر الناس من كثرة تغيير الولاة وتتاليهم

(١) ابن خلدون، كتاب العبر: ٤/ ٥٣.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٧٠.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٥) المصدر نفسه: ٣/ ٢٢٢.

وعملهم على تحصيل ما دفعوه اضعافا مضاعفة من ابناء الولاية.

وارتكزت السياسة الفاطمية على اعتبار الوزير، صاحب الكلمة النافذة، بعد الخليفة لان الوزارة كانت من ارفع الوظائف عندهم، فقال عنها السيوطي[1]: «الوزارة تلي الخلافة، اذا انصف صاحبها، وعرف حقه»، لان الخليفة يشرفه بتدبير دولته فيجعله كافل القضاة، وهادي الدعاة. فكثيرا ما نرى الخليفة يدعو في تقليده فيقول[2]: «والله سبحانه يؤيد الدولة العلوية بعزماتك الثاقبة ويعيد عليها حقوقها بسيوفك القاضية، وآرائك الصائبة، ويجعل أمد عمرك طويلاً».

ويقتضي على الوزير بحكم منصبه التقيّد ببروتوكولات وبخاصة، من ناحية اللباس، كما كان عليه ملازمة الخليفة في قصره، ومرافقته عند ركوبه في اول العام، وأيام الجمع، وصلاة عيدي الفطر والاضحى، او لتخليق المقياس، وكسر الخليج، وسوف نتحدّث عن هذه الامور مطوّلا في مواضعها.

ويتصدّر الوزير، صاحب السيف، القاعة، اذا جلس للمظالم، ويجلس قاضي القضاة تجاهه، وعن جانبيه شاهدان من المعتبرين. وكان الوزير بالقلم الدقيق، ويليه صاحب ديوان المال، وبين يديه صاحب الباب، والاسفهسلار (قائد الجيش)، والنواب، والحجاب على طبقاتهم، وذلك يومين في الاسبوع[3].

ولا ادل على مكانة الوزير، من ان الخليفة نفسه، كان يتزوج من عائلته، كزواج المستعلي بالله من «ست الملك» بنت بدر الجمالي، وزواج

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٨٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠.

الخليفة العاضد لدين الله من ابنة الملك الصالح طلائع بن رزيك[1]. وكان الوزير اذا اصابه المرض، ركب اليه الخليفة لعيادته، وعند موته يصلّي عليه، ويواريه لحده بحضور قاضي القضاة[2]، وكثيرا ما كتب اسم الوزير على السكة مع اسم الخليفة[3]، او نقش اسمه في الطراز[4]، كما ادرج اسم ونعت الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالي وزير الآمر بأحكام الله على طراز ما يعمل في اعمال المملكة (الخلافة) من الملابس والفرش والآنية[5].

وتظهر مكانة الوزراء الممتازة من استعراض ألقاب الوزراء، التي عرفتها الخلافة الفاطمية اعتبارا من خلافة، المعز لدين الله، بألقاب منسوبة الى الدولة. فتلقب الحسن بن عمار الكتامي بـ«أمين الدولة» وهو أول من لقب من الوزراء الفاطميين[6]، والحسن بن صالح بن علي الروزباري الذي لقب بـ«عميد الدولة»، وبهرام الارمني الذي تلقّب بـ«تاج الدولة»، وابن ابي كدينة لقب بـ«ولي الدولة»[7].

وتسمّى بعض الوزراء بأسماء الملوك وألقاب الخلفاء، فهذا رضوان بن ولخش وزير الحافظ لدين الله، يلقب بـ«الملك الافضل» سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٦م، (ولم يلقب قبله وزير بهذا اللقب)، كما لقب طلائع بن رزيك

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٣٤.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣١٨.

(٢) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١١٦.

(٤) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٥٢.

المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٨٤.

حسن، زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧م: ١١٨.

(٥) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٦٣.

(٦) انظر الصفحة ٤١ من هذا الكتاب.

(٧) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١١٨.

بـ«الملك الصالح» في خلافة الفائز بنصر الله، ولقب ابنه رزيك بن طلائع ابن رزيك بـ«الملك العادل» كذلك تلقّب بهذا اللقب نفسه ابن السلار في خلافة الظافر بأمر الله، ولقب شاور وأسد الدين شيركوه وزيرا العاضد لدين الله بـ«الملك المنصور، أمّا صلاح الدين فلقب بـ«الملك الناصر»[١].

وأفرد التلقيب لبعض الوزراء، مثل ابن كلس سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٧م، فلقب بـ«الوزير الاجل»، ولقب ابو نصر بن عبدون سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، بـ«الكافي»[٢]، ولقّب زرعة بن عيسى بن نسطورس بـ«الشافي» سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م، وثنّي التلقيب للبعض الآخر، فنعت بهرام الارمني مثلا: بـ«سيف الاسلام» و بـ«تاج الدولة»، وأسد الدين شيركوه بـ«الملك المنصور» و «أميرا الجيوش»[٣].

وثلث التلقيب للبعض الآخر ايضا، فلقب ابو الفتح سليم بن محمد بن مصّال سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، بـ«السيد الاجل» و «المفضل» و «أمير الجيوش» في خلافة الظافر بأمر الله[٤]. ومن الوزراء من تلقب بأكثر من ذلك، فكان لقب اليازوري في خلافة المستنصر بالله: «الناصر للدين، غياث المسلمين،

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٩٤.
ابو الفداء، المختصر في اخبار البشر: ٣/ ٢٨ و ٤٦ ـ ٤٨.
المقريزي، الخطط: ٢/ ١٧٣.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٩٣.

(٢) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ١٩/ ٢١.
السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١١٨.

(٣) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٢٨.
أبو الفداء،المختصر في اخبار البشر: ٣/ ٤٧.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ١٤١ ـ ١٤٢ و ١٥٣.

(٤) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٥٨٩.
القلقشندي، صبح الاعشى: ٥/ ٤٤٢.

الوزير الاجل المكين، سيد الرؤساء، تاج الاصفياء، قاضي القضاة، وداعي الدعاة»، ولقّب ابو علي احمد بن الافضل بن بدر الاجمالي بـ«ناصر الحق، وهادي القضاة الى اتباع الحق، وولى الامم، مالك فضيلتي السيف والقلم»[1]. ولقب الحاكم بأمر الله، وزيره علي بن جعفر بن فلاح الكتامي بـ«وزير الوزراء، وذي الرياستين، والامير المظفر، وقطب الدولة»[2].

ان هذه الالقاب الطنّانة، ان دلّت على شيء، فعلى استبداد اصحابها بالسلطة دون الخلفاء الفاطميين، ممّا أدى الى زوال الخلافة، التي عملت على تشجيع منح هذه الالقاب، فكانت السبب في قيام الخلافات على المصالح بين اهل الدولة، ثم انتقل هذا النزاع الى ولاية الاقاليم، وخاصة ولاة اقليم قوص حيث تمر طرق التجارة مع البحر الاحمر، والذين زحفوا على القاهرة، وفرضوا انفسهم وزراء، وتكرّرت امثال هذه الحوادث بعد ذلك، ولكن على ايدي رجال الجيش[3]، بمعاونة جندهم، فقبضوا على زمام السلطة، وتحكموا في اختيار الخليفة.

وتدخّل في سياسة الدولة الفاطمية، وفي تغيير مجرى اتجاهها بعض الموظفين الكبار، بحكم مراكزهم، كصاحب السيف، وصاحب الرمح، وصاحب المظلة، وصاحب المجلس، وصاحب الباب (الحاجب) الذي كان يمنع الدخول الى الحضرة على من يشاء، ويسمح بالدخول الى من يريد،

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/٢٧ و ٦١.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/٢٣٨ ـ ٢٣٩.
السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/١١٧ ـ ١١٨.

(٢) الانطاكي، يحيى بن سعيد، صلة كتاب اوتيخا، ١٢٨.
متز، الحضارة الاسلامية: ١/١٥٥.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٩/٨١.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٢٧٠ ـ ٢٦١.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/٣٤٦ ـ ٣٦٢.

وهو صاحب السلطة في ذلك، كيف لا، ومركزه في الخلافة الفاطمية، يلي مركز الوزير مباشرة؟ فاستطاع بعضهم ان يتبوأ مركز الصدارة، ويصبح وزيرا امثال[1]: يانس الذي بقي وزيرا للحافظ لدين الله مدة تسعة اشهر، ولم يستوزر بعده احدا، وهو باني الحارة اليانسية لعساكره خارج باب زويلة. وكان ضرغام هو الآخر صاحب الباب، فثار على شاور بن مجير السعدي، ففرّ منه هذا الاخير الى الشام، فاستبد ضرغام بالوزراة الى ان استعادها شاور بمساعدة جيش الشام بقيادة شيركوه الذي ارسله نور الدين زنكي.

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ١٩٥ و ٢٦٤.
أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٢٤٠ و ٣٤٦.
مبارك، الخطط التوفيقية: ١/ ٥٩ ـ ٦٠.

الفصل الثاني

النظام الاداري

لما فتح جوهر الصقلي مصر، ودخل الفسطاط، وبنى القاهرة المعزية الى الشمال منها، حكم البلاد باسم المعز لدين الله، فعين الموظفين، ووقّع المراسيم والمنشورات (كتاب الامان لاهل مصر مثلا)، وجلس للنظر في المظالم، وحكم البلاد نيابة عن مولاه الخليفة اكثر من اربع سنين، كان فيها مطلق الصلاحية في كل ما يتعلق بالشؤون السياسية والادارية والقضائية والمالية والدينية حتى مجيء المعز لدين الله سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢م[١].

اولا ـ التقسيمات الادارية:

ان قواعد التنظيم الاداري الفاطمي لم تستقم، الا على ايدي الوزير يعقوب بن كلس[٢]. ومّما يؤخذ على سياسة التوظيف الادارية، اختيار الاشخاص من بين الاسر الكبيرة والغنية، فأصبحت هذه الوظائف فيما بعد شبه وراثية، فكثيرا ما شغل الابن منصب أبيه، ممّا كان سببا في التقاتل بين فئات الشعب وطوائفه. ويبدو ان الفساد كان قد عرف طريقه ايضا الى

---

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/ ٣٨٠.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٥١.

دوائر الدولة الفاطمية وموظفيها الذين توارثوا مراكزهم في الادارة، فعملوا على ابتزاز الاموال ومصادرة الاملاك، فحدا ذلك بالحاكم بأمر الله ليسارع الى اصدار سجل ينكر فيه «على الكتاب» ومن يجري مجراهم في اخذ شيء من الرشاوى ونحوها[1]، ومعاقبة بعض القضاة الذين امتدت ايديهم الى اموال الارامل واليتامى.

قسّمت الدولة الفاطمية اداريا الى ثلاث مناطق:

- شمال افريقية ويحكمها نواب عن الخليفة الفاطمي، عرفوا بالولاة.
- البلاد المصرية، التي اشرف الخلفاء على حكمها مباشرة.
- الشام وسائر فلسطين، التي حكمها نواب الخليفة ايضا.

أمّا الحجاز واليمن فقد تبعتا الخليفة الفاطمي في الامور الدينية فقط، واستقلتا في باقي الامور.

ومن أجل تحسين سير العمل الاداري، وتسهيلا لمراقبة الخلفاء واشرافهم، فقد قسمت البلاد المصرية الى اقاليم، ورأس الاقليم رئيس يعرف بالوالي، يشرف على اقليمه، ويعمل على ضبط الامن، واقامة العدل فيه، وعليه ان يقيم في مركز الاقليم حتى يشرف عليه اشرافا تاما، وينفذ الاوامر التي تصل اليه من الخلفاء او الوزراء بكل دقة، ويعلم بكل شاردة وواردة، والا كان نصيبه العزل من مركزه لانه المسؤول اولا وآخرا عن ادارته امام الخليفة. وهو يقوم بجمع الضرائب المفروضة على سكّان الاقليم بالاضافة الى ما يقومون به من اعمال السخرة، وتقديم انفسهم للخدمة العسكرية. ويمكن ان يجمع الوالي في عمله الاشراف على اكثر من اقليم، فمثلا: ولى جوهر، مزاحم بين محمد بن رائق «الحَوف والفرما»[2]، كما

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٥٩.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/٨٨.

ولي طلائع بن رزيك عمل اسيوط واخميم[1]. وجمع والي دمياط اليه تنيس، والدقهلية، والمرتاحية وقوص، وأخميم[2]. وقسم الاقليم الى كور، عين في الكورة نائب لرئيس الاقليم. واشتملت الكورة على عدة قرى، سمّي لكل قرية زعيم او زمام الاطيان ـ الاراضي الواسعة ـ وهو، اي الزمام، بمثابة العمدة اليوم[3].

ولما كانت دراستنا للحياة السياسية تنحصر في مصر ـ القاهرة، فلا يهمنا الحديث على الاقاليم (الاعمال) الفاطمية والكور، اذ سوف نتناول الاوضاع الادارية في اقليمي: القاهرة ـ العاصمة الفاطمية السياسية ـ ومصر (الفسطاط) ـ المركز الصناعي والتجاري، لانهما اصبحتا فيما بعد مدينة واحدة عرفت باسم مصر ـ القاهرة[4].

وان جاءت مرتبة والي الصعيد بعد مرتبة الوزارة[5] مباشرة لغناها، فاستطاع من تولاها احيانا كثيرة، ان يفرض نفسه على الخليفة في الوزارة، الا ان ولاية القاهرة وولاية الفسطاط تأتيان في الدرجة الاولى من حيث الاهمية. فكان لكل منهما مكان في الموكب الخليفي يسير فيه، ورتبة واليهما جليلة، غير ان رتبة الاول كانت تزيد على رتبة الثاني اذ هو والي العاصمة، مقر الادارة الحكومية، المدنية والعسكرية والدينية، بينما تساوى كل منهما في المرتّب فبلغ مرتّب كل منهما خمسين دينارا شهريا[6]. وليس أدلّ على

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٩٤.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٨٧.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٣/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧ و ٣١٢.

(٣) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ١٢١ ـ ١٢٢.

(٤) انظر القسم الاول من هذا الكتاب ٨٩.

(٥) ابو الفداء، المختصر في اخبار البشر: ٣/ ٤٠.

(٦) المقريزي، الخطط: ٢/ ٤٠٢.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٤ و ٤٨٧ ـ ٤٨٨ و ٥٢٥.

اهمية مصر ـ القاهرة سوى تواجد الادارات الرئيسية فيها مع تعددها، وهذه الادارات تتمثل بالدواوين.

ثانيا ـ الدواوين:

ألحق جوهر الصقلي الدواوين بقصر الخلافة، عندما استقل بحكم مصر نيابة عن مولاه الخليفة، ولما جاء المعز لدين الله الى مصر ونزل في قصره، أبقى دواوين دولته كما أنشأها جوهر الصقلي في القصر، أمّا يعقوب بن كلس فقد نقل، بعدما استوزره العزيز بالله، تلك الدواوين الى داره، التي عرفت عندئذ بدار الوزارة، فجعل ابن كلس طائفة من الحجاب ارتدوا الملابس الحريرية، وتقلّدوا السيوف، وتمنطقوا بالمناطق[1]. وعند موت ابن كلس سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م، اعادها العزيز بالله الى قصر الخلافة حيث بقيت فيه الى ان استوزر الحاكم بأمر الله ابو الفتح مسعود بن طاهر الوزان سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م، فنقل هذا الدواوين الى داره[2]. ثم أعيدت بعده الى مقرها بالقصر الى ان نقلها منه الافضل ابن امير الجيوش بدر الجمالي، الى داره التي عرفت بدار الوزارة الكبرى التي بناها سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، فبقيت فيها حتى قتل سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، فأعيدت الى القصر، واستمرت فيه الى ان انتهت الدولة الفاطمية[3].

وكان يعمل في تلك الدواوين موظفون من ذوي الثقافة الادبية العالية تزيوا بزي يخالف زي العلماء والفقهاء الذين لبسوا الطيلسان، فلبس الكتّاب في الدواوين الدراعة[4]. وكانت العطلة الاسبوعية على اغلب الظن يوم

---

(١) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ١٢٤.

(٢) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٣٣.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/٣٩٧.

(٤) الدراعة نوع من الجلباب، جمعها دراعات، وهي جلابية مشقوقة من النحر الى اسفل الصدر بأزرار وعري. ـ المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، طبعة لندن ١٩٠٦ م: ٤٤.

الجمعة[1]، فتقفل جميع دوائر الدولة ودواوينها لتأدية الصلاة الواجبة دينيا. ولم يمنع هذا من غلق الدواوين وتعطيل الاعمال اياما متلاحقة عند وفاة احد العظماء[2]. فمثلا عند وفاة الوزير يعقوب بن كلس امر العزيز بالله باقفال الدواوين مدة ثمانية عشر يوما حزنا عليه، وتكرّر تعطيل الدواوين لمدة ثلاثة ايام عند وفاة بهرام الارمني سنة ٥٣٥ هـ/ ١١٤٠م، وزير الحافظ لدين الله. وتمّ اغلاقها لفترة طويلة ايام الشدة العظمى[3].

ووجد في العاصمة الفاطمية الدواوين التالية:

١ ـ ديوان الانشاء والمكاتبات (الرسائل).

٢ ـ ديوان الجيش (الجند).

٣ ـ ديوان البريد.

٤ ـ ديوان الرواتب.

٥ ـ ديوان الخراج.

٦ ـ ديوان الخلص (يتولى النظر في حسابات الحاشية والخدّام).

٧ ـ ديوان الزمّام والنفقة.

٨ ديوان بيت المال (ويجمع: الصدقة، الزكاة، اموال المواريث، المصادرات، الخ...)

٩ ـ ديوان القضاء (ويتبعه: المظالم، الحسبة، الشرطة، الحجابة، نقابة الاشراف).

---

(١) متز، الحضارة الاسلامية: ١/ ١٣٦.
مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصرالفاطميين: ١٢٥.

(٢) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٢١.
السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١١٦.

(٣) المقريزي، اغاثة الامة في كشف الغمة (نشر مؤسسة ناصر للثقافة)، بيروت. ١٩٨٠: ٦٠.

١٠ ـ ديوان المجلس.

١١ ـ ديوان النظر.

١٢ ـ ديوان التحقيق.

١ ـ ديوان الانشاء والمكاتبات والرسائل:

أطلق على رئيسه اسم «صاحب ديوان الانشاء» و «كاتب الدست الشريف» ويخاطب بالشيخ الاجل، لان متولي هذا الديوان من اجل كتّاب البلاغة اللغوية[١]. وأطلق عليه احيانا «كاتب السر»[٢]، وهو يتلقى الرسائل الواردة من الولاة فيعرضها على الخليفة لبحثها واتخاذ ما يلزم بشأنها، ثم يأمر بالاجابة عنها. فكان محذرا على اي كان الدخول الى ديوانه والاجتماع بمعاونيه من الكتّاب، باستثناء خواص الخليفة، واذا ما انتهى الى مسامعه خبر يتعلق بالخليفة او الرعية، اسرع باطلاعه عليه، وكثيرا ما كان الخليفة يستشيره في اكثر الامور[٣].

وعني الفاطميون باختيار «صاحب ديوان الانشاء والمكاتبات» من بين بُلَغاء الكتّاب. لا فرق بين مسلم وذمي[٤]. ويورد لنا السيوطي اسماء بعض الكتّاب بقوله[٥]: «فكتب للعزيز بالله وزيره ابن كلس، ثم أبو

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/٤٠٢٠.
القلقشندي، صبح الاعشى: ١/١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٥/١١٣.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/٤٠٢.
القلقشندي، صبح الاعشى، ١/١٠١.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/٢٣٢.
مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ١٢٨.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/٢٣٢ ـ ٢٣٣.
القلقشندي، صبح الاعشى: ١/٩٥ ـ ٩٦.

عبدالله الموصلي، ثم أبو المنصور بن حورس النصراني الذي بقي كاتبا حتى مات في أيام الحاكم بأمر الله. كما كتب للحافظ لدين الله ابو الحسن علي ابن أبي اسامة الحلبي الى ان توفي، فكتب بعده ولده أبو المكارم الى ان توفي هو الآخر، وكان معه امين الدين تاج الرياسة ابو القاسم علي بن سليمان المعروف بابن منجب الصيرفي، كما كتب له ايضا ابن ابي الدم اليهودي.

ويجب ان يتمتع صاحب ديوان الانشاء بمزايا جيدة، فيكون: «صبح الوجه، فصيح الالفاظ، طلق اللسان، اصيلا في قومه، رفيعا في حسبه، وقورا، حليما، مؤثرا للجد على الهزل[1]. و«يكون من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة وزيادة العلم، وعارضة البلاغة، كتوما للاسرار، وفيا عند الشدائد[2]، لان الخليفة لا يثق بأحد من خاصته ثقته به فيستشيره في اكثر اموره، وربما بات عنده ليالٍ عدة[3].

ولما كانت الالقاب في العصر الفاطمي شائعة، دأب اصحابها على التمسّك بها لدى المكاتبة والتخاطب، لذلك اشترط على من يكون في ديوان الانشاء والمكاتبات ان يلمّ باللغة والنحو والصرف والبلاغة والاعراب، الى جانب معرفته برسوم الخلافة الفاطمية، حتى تصدر الكتب والسجلات عنه منزّهة من الاخطاء اللغوية، مشتملة على المعاني المقصودة بحيث تأتي «كاملة الفضيلة، خطأً ولفظا ومعنى واعرابا»[4]، فلا تكون موضع انتقاد منتقد

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) ابن خلدون، المقدمة (منشورات دار الكتاب العربي)، الطبعة الخامسة، بيروت (لا.ت.): ٢٤٦ ـ ٢٤٩.

بينما ابن مماتي يشدّد على دينه بقوله: «يجب ان يكون حرّا مسلما... الخ.

قوانين الدواوين (مطبعة الوطن)، ١٢٩٩ هـ/ : ٥و٦.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٢.

القلقشندي، صبح الاعشى: ١/ ١٠٢ و ٣/ ٤٩٠.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى: ١/ ١١٣.

واعتراض معترض، وحتى لا يأتي ذلك عفوا، فقد عيّن «ابن بابشاذ» المتوفي سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦م، ايام الخليفة المستنصر بالله في ديوان الانشاء والمكاتبات مراجعا يراجع ما يخرج منه انشاء ويصلح ما يراه خطأ في الهجاء والنحو واللغة[١].

وتوصل بعض اصحاب ديوان الانشاء والمكاتبات الى تسلّم منصب «الواسطة» فخلع على «أبي الفتوح موسى بن الحسن صاحب ديوان الانشاء والمكاتبات سنة ٤١٢ هـ/ ١٠٢١م[٢]. وتولّى «أبو الحسن طاهر بن الوزّان» الوزارة سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م، بعد ان كان كاتبا في ديوان الانشاء[٣]. ولم يرَ بعض الوزراء حين أسند اليهم منصب «ديوان الانشاء والمكاتبات» بعد الوزارة انتقاصا لكرامتهم، بل على العكس، فقد وجدوا في ذلك فرصة للبقاء داخل الحكم في منصب رفيع يطلع فيه على أسرار الدولة والخلافة. فهذا الوزير الروزباري يتولاه بعد الوزارة على أيام الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، وابنه المستنصر بالله، كما تولاه بعد الوزارة ايضا «ابو الفرج محمد ابن جعفر المغربي سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م، الذي كان اول من لقّب بـ«كاتب السرّ»[٤]. واذا ما جمع احدهم بين «الوزارة» و «ديوان الانشاء والمكاتبات» فكان يقوم بهما بنفسه كيعقوب بن كلس أيام العزيز بالله او يفوّض غيره في اعماله[٥].

وليس أدل على مكانته الرفيعة بين أصحاب الوظائف العالية، سوى

---

(١) امين، احمد، ظهر الاسلام، طبعة القاهرة ١٩٤٥م، الجزء الاول: ١/ ٢٠٥.

(٢) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٣٤.

(٣) المصدر السابق: ٥٣.

(٤) المصدر نفسه: ٤٨.

حسن، الدولة الفاطمية، ٢٨٢.

(٥) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٣٣.

القلقشندي، صبح الاعشى: ١/ ٩٣ و ١٠٣.

تخصيصه بحاجب من الامراء الشيوخ، وبفراشين، وله في مجلسه المرتبة اللائقة، والمخاد والمسند والدواة الاحسن بين مثيلاتها، يحملها بين يديه استاذ من استاذي الخليفة عند حضوره الى القصر، وهو اول: ارباب الاقطاعات، وأرباب الكسوة، والرسوم والملاطفات، ويبلغ مرتبه الشهري مائة وخمسين دينارا[1].

ويلي مرتبة صاحب ديوان الانشاء والمكاتبات:

أ ـ صاحب التوقيع بالقلم الدقيق على المظالم:

فهو يجالس الخليفة في خلواته بحضور استاذ من الاساتذة المحنكين[2]، ويقرأ عليه بعضا من آي القرآن الكريم، وأخبار الانبياء والخلفاء السابقين. ويحدثه عن مكارم الاخلاق، ويعلّمه أصول الخط وتحسينه، فهو لهذا يُختار من بين ذوي الخطوط الحسنة. وتأتي رتبته مباشرة بعد رتبة «كاتب الدست الشريف» في الرسوم والكساوى وغيرها. ويبلغ مرتبه مائة دينار في الشهر[3]، وله عند جلوسه دواة محلاة بالذهب ومسند وطراحة، لا يدخل عليه احد في موضعه من الديوان الا باذن من حاجبه. يجلس في المظالم الى

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٩٠.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٢.

(٢) الاستاذ المحنك من خواص خدم الخليفة، أرفع شأنا من غير المحنك. والمحنكون يدوّرون عمائمهم على احناكهم كما يفعل بعض العرب والمغاربة. وعدد المحنكين في القصر يزيد على الالف. ومن عاداتهم اذا ترشح استاذ منهم للمحنك حمل اليه كل استاذ من المحنكين بذلة كاملة من ثيابه وفرسا وسيفا فيصبح لاحقا بهم.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٧٧.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٢٦.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٢.

جانب الوزير صاحب السيف ليوقع بما يأمر به على العرائض في المظالم[1]، وله ايضا حق النظر في الشكاوى قبل انعقاد الجلسة[2].

ب ـ صاحب التوقيع بالقلم الجليل:

يهتم صاحب التوقيع بالقلم الجليل، بأخذ رقاع المظالم بعد ان يوقع عليها ويفرزها صاحب التوقيع بالقلم الدقيق لينظر فيها الخليفة او الوزير، فيضعها في صيغتها القانونية قبل ان تُعرض عليهما في الجلسات للتصديق عليها[3] ويقال له «صاحب الخدمة الصغرى»، وله ايضا الطرّاحة والمسند والفراش، انما بغير حاجب، ومرتبه ثلاثين دينارا في الشهر[4].

٢ ـ ديوان الجيش:

اهتم الفاطميون بالجيش عددا وعدة، منذ توجيه الحملات لفتح مصر، فاستطاعوا به فتح بلاد مصر، وبلاد الشام وسائر فلسطين بعدما كان خضع لهم كامل المغرب تقريبا. لذلك كان «صاحب ديوان الجيش» دائما من المسلمين، مرتبته تعلو مرتبة غيره، لجلوسه داخل عتبة باب المجلس بين يدي الخليفة، وله الطرّاحة والمسند، وبين يديه الحاجب، واليه مرجع شؤون الجند وعرض الاجناد وخيولهم والنظر في سائر امورهم واقطاعهم وراتبه الشهري اربعون دينارا[5]. وتوصل بعض اصحاب ديوان الجيش الى مرتبة

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٣٩١.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٢.

(٢) ماجد، عبد المنعم، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، القاهرة ١٩٥٣م: ٣/ ٤٩١ ـ ٤٩٢.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٩١ ـ ٤٩٢.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٢.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٢.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى: ٢/ ٤٩٢. المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠١.

الوزارة. فالروذباري كان «صاحب ديوان الجيش» قبل ان يتولى الوزارة[1] وكان الجيش الفاطمي يتألف من الجيش البرّي والاسطول البحري:

أ ـ الجيش البرّي:

تألف الجيش الفاطمي البرّي من فئتين: فئة الامراء، وطوائف الجند. امتازت فئة الامراء بما كان يخلع على بعضهم من اطواق ذهب توضع حول اعناقهم، وكان بعضهم الآخر يركب في المواكب جاعلا قضبا فضية كانت توزّع عليهم من خزانة الطيب والجواهر. اما طوائف الجند، فكانت هي الاخرى عبارة عن عناصر متعددة ومختلفة يأتي في طليعتها: المغاربة (الكتامية، والزويلية، والبرقية، والمصامدة، والباطلية)، فالمشارقة (الاتراك والديلم والغز والاكراد)، والمصطنعين (كالروم والفرنج والصقالبة) وعبيد الشراء (من أجناس مختلفة)، والعتقاء، مع العلم ان هناك طوائف من الاجناد كانت تنسب الى الخلفاء: كالحافظية (الحافظ لدين الله)، والآمرية (الآمر بأحكام الله)، وطوائف منسوبة الى الوزراء اهمها: الوزيرية (نسبة الى الوزير وهو في الحكم، كائنا من كان)، والجيوشية (أمير راجيوش بدر الجمالي وكانت اكثرها من الارمن)، والافضلية (الافضل ابن امير الجيوش بدر الجمالي)[2].

وتأتمر كل طائفة بأمر مقدميها وقوادها، بينما يترأس سائر هذه الفرق العسكرية قائد الجيش الذي يسمى«الاسفهسلار»[3] والعسكر «الاسفهسلارية»[4]، وبلغ مرتّبه مئة دينار شهريا.

---

(١) ابن منجب الصيرفي،الاشارة الى من نال الوزارة: ٣٥.

(٢) ناصر، خسرو: سفر نامة: ٩٤ ـ ٩٥.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٢.

(٣) الاسفهسلار، اسم لوظيفة من وظائف ارباب السيوف وعامة الجند والى صاحبها امر الاجناد، وهي كلمة اعجمية تعريبها قائد الجيش.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/٤٠٣. ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم: ١/ ١٩٣.

ولم يسمح تركيب الجيش على هذه الصورة بوجود نوع من الاستقرار والامن، اذ لم تمضِ سنوات قليلة على فتح مصر حتى قامت الاضطرابات التي تسبّبت في اثارتها فرق الجيش المغربية، وخاصة الكتاميون[1]، مّما جعل العزيز بالله، يسارع الى استخدام الاتراك والديلم، ويقلل من نفوذ المغاربة بعدها كثرت تعدياتهم على المصريين. لكن المغاربة سرعان ما استعادوا نفوذهم بموت العزيز بالله، وفرضوا شيخهم زعيم كتامة «الحسن بن عمار» في الوساطة[2]، الا ان برجوان الخادم مدبر الحاكم بأمر الله ناكد ابن عمّار حتى استطاع اقناع الخليفة بعزله، فخف شأن الكتاميين، وانحط نهائيا باعتماد الظاهر لاعزاز دين الله على العناصر التركية في جيشه، وحرسه الخاص.

وبدأ القتال بين الاتراك وعبيد الشراء من السودان، باعتماد الخلفاء الفاطميين على هذه العناصر الجديدة، لا سيّما عندما اخذت، والدة المستنصر بالله، على نفسها وهي امة سوداء، مساعدة العبيد[3]، فقامت بينهم حروب كثيرة، كما دبّ الخلاف بعد ذلك بين فرق الريحانية والجيوشية ايام الخليفة الحافظ لدين الله. والسبب الراجح في هذه الحروب، زيادة عطاء فرقة، وانقاص عطاء فرقة أخرى، وهكذا دواليك.

وكان جُل سلاح هذا الجيش، السيوف والاقواس، والمقاليع، والرماح والحراب، والخناجر، والاطبار (مفردها طبر، وهي آلة تشبه الفأس بحد

---

(١) سعد، تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي: ٢٨٥.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ١٧٨/٧

ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٥٥.

(٣) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٧.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ١٩.

ابن أياس، بدائع الزهور: ١/ ٤٨.

مزدوج)... وغيرها، حفظت ضمن خزانة خاصة عرفت بخزانة السلاح[١].

واعتمد الفاطميون على الخيل كثيرا، فانتقوا افضلها من ذكر وانثى[٢]، كما اعدوا لها الاصطبلات، وجعلوا من يعتني بها، ويهتم بعلفها، وأنشأوا في القصر خزانة للسرج وملحقاتها[٣].

ب ـ الاسطول البحري:

وجد الفاطميون انفسهم بحاجة الى اسطول يحمي شواطئهم من غارات الروم البيزنطيين، وهجماتهم على بعض مدن الشام وفلسطين الساحلية، فأنشأ المعز لدين الله وغيره من الخلفاء الذين أتوا بعده اسطولا في مدينة مصر (الفسطاط والعسكر)، والاسكندرية ودمياط، وصور، وعسقلان[٤].

ويذكر المقريزي نقلا عن المسبحي[٥]: «ان العزيز بالله بنى دارا لصناعة السفن بالمقس على النيل» وعمل المراكب التي لم يرَ مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا» الا ان حريقا اتى على هذه السفن في السنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م، فلم يبقَ منها غير ست قطع، واتهم بافتعال الحريق، الاسارى من الروم، الذين كانوا في دار بجوار دار الصناعة بالمقس، فتعرضوا لدى العامة نهبا وقتلا حتى جاوز من قتل منهم المائة وسبعة اشخاص[٦]، ثم شرع عيسى ابن نسطورس في بناء اسطول جديد.

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٤١٧.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٠١.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٧٧ و ٤٩٦.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠١ و ٤١٨ و ٤٢٤ و ٤٦١ و ٤٦٤.

(٤) المقريزي، الخطط: ٢/ ١٩٣.

زيدان، التمدّن الاسلامي: ١/ ٢١٦.

(٥) المقريزي، الخطط: ٢/ ١٩٥.

(٦) المصدر السابق: ٢/ ١٩٥. المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٢٩٠.

وبقيت صناعة السفن في جزيرة الروضة، الى ان أمر الاخشيد بنقلها الى ساحل مصر، حتى لا يحول بينه وبينها ماء. وفي عهد الآمر بأحكام الله انكر وزيره ابو عبدالله محمد بن قاتك المأمون البطائحي بقاء صناعة السفن على ساحل مصر وفي الجزيرة (الروضة) فأمر ان يكون انشاء الشواني والمراكب النيلية الديوانية في صناعة مصر فقط[1].

وبلغ عدد الجنود البحرية خمسة آلاف، منهم عشرة قوّاد، ينتخب هؤلاء قائدا أعلى، يسمّى «امير الجيش»، وتصرّف للقوّاد مرتبات شهرية تتراوح بين عشرة دنانير وعشرين دينارا[2]. اما الجنود فلهم مرتبات معيّنة اقلها ديناران في الشهر يضاف اليها الاقطاعيات، وتألف الاسطول الفاطمي من مراكب حربية متعددة الاشكال والاحجام والقوة:

ـ **الشواني**: مفردها «شونة» او «شيني» وهي مراكب كبيرة تعلوها الابراج او القلاع ويتخذ جنودها الاسلحة الحربية والكلاليب (الخطاطيف) والنفط وغيره[3].

ـ **الحراريق**: مفردها «حراقة» وهي مراكب حربية اصغر من الشواني، مزوّدة بالمنجنيق والاسلحة النارية، كالنفط والنار الاغريقية.

ـ **الطرادات**: وهي سفن حربية سريعة السير. تستعمل لنقل الخيول.

---

(١) المقريزي، الخطط: ٢/ ١٩٧

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤.

زيدان، التمدّن الاسلامي: ١/ ٢١٦.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٢٣.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٥١.

ـ **الاغربة والقراقير**: الاولى اسمها يدل على انها تشبه الغراب ولكن برأسها، اما الثانية ومفردها «قرقورة» فتستخدم في تزويد الاسطول بالسلاح والمؤن.

ـ **العشاريات**: مفردها «العشيري»، وهي ايضا مراكب حربية تسير في النيل على الغالب.

ـ **الشلنديات**: ومفردها «الشلندي» وهي ايضا مراكب مسطحة تستعمل لنقل السلاح والمقاتلين[١].

وللاسطول عادات وتقاليد درج عليها، لذلك تقام احتفالات استعراضية للاسطول يشرف عليها الخليفة الفاطمي بنفسه، من منظرة المقس، فيركب وبصحبته الوزير لاستعراضه وتوديعه[٢]، فيجلس في منظرة معدّة له على ساحل النيل بالمقس، حيث يأتي القوّاد بالمراكب وهي مشحونة بالرجال والاسلحة والبنود، فتقوم بعمليات المناورة كأنها في حرب، ثم يحضر بعد ذلك الرئيس والمقدّم بين يدي الخليفة، فيودعها ويدعو لهما، مانحا المقدّم مائة دينار والرئيس عشرين دينارا، وتتكرّر هذه الاحتفالات عند رجوع الاسطول من القتال.

لكن شاور، وزير العاضد لدين الله أمر باحراق هذا الاسطول في سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨م، بعدما أحرق مدينة الفسطاط[٣].

---

(١) ابن مماتي، شرف الدين أبي المكارم بن أبي سعيد: كتاب قوانين الدواوين (مطبعة الوطن) ١٢٩٩ هـ/ :١٦.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٢٣.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١٢٣. المقريزي، الخطط: ١/ ٤٨٠.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٩.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ٢٩٥.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٥٠.

٣ ـ ديوان البريد:

أولى الفاطميون البريد عنايتهم الزائدة، فجعلوه وسيلة اتصال بين الادارة المركزية في العاصمة، وسائر الولايات البعيدة، كما جعلوا من البريديين (سعاة البريد) عيونا للخليفة او الوزير لتزويدهما بأخبار الموظفين وأحوال الادارات الرسمية والولايات وتحرك الولاة، وتولى، نقل البريد، اشخاص يمتطون الخيل في المسافات البعيدة، او الحمام الزاجل، عبر خطوط، وربطت سائر اطراف الدولة الفاطمية بالقاهرة، لنقل الاوامر والتعليمات الرسمية فقط، في حين كانت مراسلات الرعية على نفقة اصحابها[١] وعهد الحاكم بأمر الله الى ابي عبد الله الحسين بن جوهر بالبريد وديوان الانشاء[٢] جاعلا الاشراف عليه من اختصاص صاحب ديوان الانشاء والمكاتبات. وامتاز من اختيروا لهذه المهمة بأخلاقهم الحميدة وكفاءاتهم العالية.

وكان السبب في اختيار البريديين من بين الاشخاص المشهود لهم بأخلاقهم وكفاءاتهم واخلاصهم للخلافة، لما يؤتمنون عليه من رسائل شفوية قد يحمّلها اليهم الخلفاء، او تكليفهم بمهام مراقبة الولاة والتجسّس عليهم، فذكر القلقشندي[٣] ان من صفات البريدي «أن يكون قديرا على تنميق الكلام، وتحسين العبارة... صحيح الفكرة والمزاج، ذا بيان وعارضة ولين.. صدوقا، بريئا من الطمع».

وكان صاحب ديوان البريد يشرف على البريديين والبراجين، وشؤون ارزاقهم، ومراقبة المراسلات الصادرة والواردة من جميع الاقاليم، ثم فرزها لتصل الى اصحابها، وتولى «عرض كتب اصحاب البريد في جميع النواحي

---

(١) مصلحة البريد، تاريخ البريد في مصر، وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد.

(٢) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٥٤.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ١/ ١١٥.

على الخليفة»[1]. وأولى واجبات «امير البريد»[2] كما سمّي احيانا «صاحب ديوان البريد»، السهر على تأمين ارسال بريد الخليفة بالسرعة، وتقديم التقارير الخاصة بالاعمال الادارية للحضرة، واعطاء اذونات السفر التي تجيز لحاملها، الحصول من المحطات المختلفة على الخيول اللازمة.

وخضع البريديون للتجربة أولا، فكان رجل البريد يجرّب بتكليفه حمل البريد العادي الى الولاة او النواب، حتى اذا لمسوا اخلاصه في العمل، سمحوا له بنقل الرسائل الهامة الى من هم أرفع مقاما كالملوك[3]. وتمييزا له عن سائر الموظفين، كان البريدي يحمل «شارة» من الفضة او النحاس الاحمر في حجم الكف، منقوش على احد وجهيها بعض العبارات الدينية، واسم الخليفة، فتكسبه مكانة محترمة، وتجعله موضع الرعاية والتقدير[4]. ويفترض في البريدي ان يكون ذا معرفة تامة بالطرق ووعورتها فيتجنب سلوك الجبال والوهاد ومجاري الانهار، فيؤدي مهمته بأسرع وقت على أحسن وجه[5].

واستعمل الفاطميون الحمام الزاجل في نقل اوامرهم ومخاطباتهم السريعة عبر المسافات البعيدة. لذلك أناطوا ادارة بريد الحمام بحكّام الاقاليم[6]،

(١) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد القاسم بن عبدالله: المسالك والممالك (ليدن)، ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٩م: ١٨٤.

(٢) مصلحة البريد، تاريخ البريد في مصر: ٣٩.

وسمّي «امير البريد» بـ«الديوادار» أيام المماليك.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ١/ ١١٥

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى: ١/ ١١٤.

مصلحة البريد، تاريخ البريد في مصر: ٢٦.

(٥) ابن خرداذبة، المسالك والممالك: ١٨٥.

(٦) مصلحة البريد، تاريخ البريد في مصر: ٤٢.

فعيّنوا أشخاصا (براجين) مهمّتهم الاعتناء بهذه الانواع من الحمام وتدريبها على حمل الرسائل بربطها تحت اجنحتها[١] لتوصلها الى ابراج (محطات) فيتولى نقلها الى مراكز تليها، طيور اخرى[٢] على ان يعلّق برقبة وقوائم الحمامة علامات فارقة تمييزا لها عن غيرها.

واعتُمد في الرسائل التي ينفقها الحمام الزاجل، الايجاز (كالبرقيات اليوم)[٣] على ان لا يدع البرّاج الحمام يطير في جو ممطر او بعد الغذاء الكافي[٤].

واذا حط الحمام بالبطاقة لا يقطع بيده الا الخليفة من غير واسطة، ولو كان الخليفة نائما، او كان يأكل، فلا يمهل حتى يفرغ من الاكل بل يترك الاكل ليحل البطاقة بيده، فلا يفوّت على نفسه، او على رعيته الامور الهامة[٥]. وذكر القلقشندي[٦]: ان العزيز بالله اشتهى يوما ان يأكل القراصية[٧]، فأرسل وزيره يعقوب بن كلس الى والي الشام يأمره باحضار الحمام المصري الموجود فيها وان يشد على كل طائر منها القراصية، ويطلقها

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ١٦٦.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ١٤/ ٣٩٤.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ١٦٦. مصلحة البريد، تاريخ البريد في مصر: ٤٤.

(٤) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.
مصلحة البريد، تاريخ البريد في مصر: ٤٤.

Lane Poole, Stanly, A short History of Egypt, in the middle ages. London 1901, P. 246.

(٥) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٣١.
السيوطي، حسن المحاضرة: ١/ ١٦٦.

(٦) القلقشندي، صبح الاعشى: ١٤/ ٣٩١.

(٧) نوع من الخوخ الاسود، ثمرته بحجم ثمرة الكرز

كلها في يوم واحد، فوصلت الحمائم وعلى أجنحتها القراصية البعلبكية، فقدمها ابن كلس للخليفة.

وكانت أهم خطوط البريد في مصر[1]:

١ ـ خط القاهرة ـ قوص، ويمر بمدن وقرى عدّة.

٢ ـ خط قوص ـ بلاد النوبة، مارا بأسوان.

٣ ـ خط قوص ـ سواكن.

٤ ـ خط القاهرة ـ الجيزة ـ وردان ـ دمنهور ـ الاسكندرية.

٥ ـ خط القاهرة ـ قليوب ـ المحلة ـ الاسكندية.

٦ ـ خط القاهرة ـ بلبيس ـ أشمون ـ دمياط.

٧ ـ خط دمياط ـ أشمون ـ العريش ـ رفح ـ غزة.

بينما كان الحمام الزاجل يطير ليؤمن المراسلات بين:

١ ـ القاهرة ـ الاسكندرية.

٢ ـ القاهرة ـ دمياط.

٣ ـ القاهرة ـ قوص ـ أسوان ـ عيذاب.

٤ ـ القاهرة ـ غزة ـ دمشق.

٤ ـ ديوان الرواتب:

يرأس هذا الديوان، كاتب أصيل بطراحة، يعاونه نحو عشرة أشخاص يثبتون أسماء جميع المرتزقين في الدولة، وكل عبد وجارية، اعتبارا من الوزراء وكبار الموظفين حتى الصغار منهم كالفراشين[2]. وكانت الدولة تدفع الرواتب اما عينا كالقمح والشعير وخلافهما، واما نقدا، فيعمل كتّاب

---

(١) مصلحة البريد، تاريخ البريد في مصر: ٣٥ ـ ٣٦ ـ و٤١

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٢٥ ـ ٥٢٧.

هذا الديوان على تسجيل المبالغ والمقادير المخصصة لارباب الرواتب[1]، واثبات أسماء من تستمر رواتبهم بعد حذف اسم من مات واضافة اسم من استجدّ، بكل دقة وانتباه، لما يحصل من تغيير في قوائم الرواتب من زيادة او نقصان.

ويبدو ان الفاطميين، قد احرزوا في مصر تقدّما كبيرا في الفن الاداري، لا سيّما على صعيد المحاسبين، وتراوحت الميزانية السنوية بين مائة الف دينار ومائتي الف دينار، ومن القمح والشعير عشرة آلاف اردب. وتعرّض الميزانية على الخليفة فور الانتهاء من اعدادها، فيعدّل فيها لجهة الزيادة او النقصان ان اراد زيادة راتب احد او انقاصه. وعندما عرضت الميزانية السنوية على الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م، كتب بخط يده[2]:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمدلله كما هو أهله ومستحقه».

اصبحت لا ارجو ولا أتقي الا الهي وله الفضل

جدي نبي وامامي ابي وديني الاخلاص والعدل

«ما عندكم ينفذ وما عند الله باق»[3]، والمال مال الله، والخلق عيال الله، ونحن أمناؤه في الارض. أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها، والسلام».

ولما عُرضت الميزانية على الخليفة المستنصر بالله لاعتمادها، كتب بخط

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٩٢.

(٢) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٢٩.

ونسب ابن خلدون هذا الى الخليفة الآمر بأحكام الله، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر: ٤/ ٧١.

في حين نسبه أبو المحاسن في «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٨١، للخليفة المستنصر بالله.

(٣) القرآن الكريم، الآية رقم ٩٦ من سورة النحل رقم ١٦.

يده عليها[1]: «الفقر مر المذاق، والحاجة تذلّ الاعناق، وحراسة النعم بادرار الارزاق، فيلجروا على رسومهم في الاطلاق، ما عندكم ينفذ، وما عند الله باق»[2]. وأمر كاتب الانشاء «ابن جبران» ان يحرّر الميزانية، كما هي، دون ان ينقص من أرباب الوظائف شيئا.

ويقول المقريزي[3] ان ديوان الرواتب كان ملحقا بديوان الجيوش، يعين فيه اوقات اعطياتهم ومقدار ارزاقهم، وتحت اسم كل جندي عمره ولون جبهته واوصاف حواجبه وعيونه وانفه وجاريه.

ثالثا ـ تقسيم الموظفين الى فئات بحسب الرتبة والراتب:

ويمكننا ان نصنّف الموظفين في الدولة الفاطمية بعد الاطلاع على سلسلة رواتبهم الى فئات خمس:

الفئة الاولى: أصحاب الوظائف التي تزيد رواتبها على مائتي دينار شهريا.

الفئة الثانية: أصحاب الوظائف التي تتراوح رواتبهم ما بين مائة ومائتي دينار شهريا.

الفئة الثالثة: أصحاب الوظائف التي تتراوح رواتبهم بين خمسين ومائة دينار.

الفئة الرابعة: أصحاب الوظائف التي لا تقل رواتبهم عن عشرين دينارا ولا تزيد عن الخمسين دينارا في الشهر.

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٩٥.

(٢) القرآن الكريم، الآية رقم ٩٦ من سورة النحل رقم ١٦.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠١.

الفئة الخامسة: أصحاب الوظائف التي لا تزيد رواتبهم عن عشرين دينارا في الشهر.

وهذا الجدول بأسماء الوظائف التي ذكرها لنا المؤرخون مع تحديد رواتب كل منها، وقيمة هذا الراتب بالجنيه المصري والفئة التي يمكن ان نصنّفه بها مع الاشارة ان هذا التصنيف هو من استنتاجنا لنعطي به صورة عن الاوضاع المعيشية للموظف في الدولة الفاطمية.

الفئة	الوظيفة	الراتب الشهري بالدينار	الراتب الشهري بالجنيه المصري	ملاحظات
الفئة الاولى	الوزير	٥٠٠٠	٣٠٠٠	
	اولاد الوزير[1]	٣٠٠	١٨٠	لكل ولد بصرف النظر عن العدد
	اخوة الوزير	٢٠٠	١٢٠	لكل واحد بصرف النظر عن العدد
الفئة الثانية	صاحب ديوان الانشاء والمكاتبات «امين السر»	١٥٠	٩٠	
	صاحب الباب «الحاجب»	١٢٠	٧٢	
	الاستاذون المحنكون زمام القصر صاحب بيت المال حامل الرسالة صاحب الدفتر شاد التابع	١٠٠	٦٠	

(١) في وزارة شاور السعدي تقرّر لولده شجاع بن شاور المنعوت بالكامل مبلغ ٥٠٠ دينار شهريا ثم باقي حواشي شاور من ٤٠٠ الى ٣٠٠ دينار في الشهر ما عدا الاقطاعات والكساوى.

الفئة	الوظيفة	الراتب الشهري بالدينار	الراتب الشهري بالجنيه المصري	ملاحظات
	صاحب المجلس			
	قاضي القضاة	١٠٠	٦٠	
	داعي الدعاة			
	زمام الاشراف والاقارب			
الفئة الثالثة	حامل السيف			
	حامل الرمح	٧٠	٤٢	
	صاحب ديوان النظر			
	طبيب الخليفة الخاص			عادة طبيين
	صاحب ديوان التحقيق	٣٠ ـ ٥٠	١٨ ـ ٣٠	
	والي القاهرة			
	والي الفسطاط			
	مقدمي صبيان الركاب			
	ازمة العساكر	٣٠ـ٥٠	١٨ـ٣٠	عدد المقدمين ١٢ بحسب الاقدمية
الفئة الرابعة	صاحب ديوان المجلس	٤٠	٢٤	
	صاحب ديوان الجيش	٤٠	٢٥	
	صاحب دفتر المجلس	٣٥	٢١	
	الفراشون بالقصور			عددالفراشين ١٥
	كتبة ديوان الانشاء	٣٠	١٨	
	صاحب التوقيع بالقلم الجليل	٣٠	١٨	

الفئة	الوظيفة	الراتب الشهري بالدينار	الراتب الشهري بالجنيه المصري	ملاحظات
	اصحاب الدواوين التي تتم فيها المعاملات	٢٠	١٢	
الفئة الخامسة	قرّاء الحضرة			الذين يتلون الآيات القرآنية المناسبة
	خطباء الجوامع	١٠ ـ٢٢	٦ ـ ١٢	
	الشعراء			لا يعتبر الشاعر موظفا
	حماة الاهراءات والمناخات	٥ ـ ١٠	٣ ـ ٦	
	والجوالي والبساتين والاملاك	١٥ـ٢٠	٩ ـ ١٢	
	صبيان الخاص	٥ ـ ١٠	٣ ـ ٦	
	(الركابية)	١٥ ـ ٢٠	٩ ـ ١٢	
	معاوني اصحاب الدواوين التي فيها المعاملات	٥ ـ٧ـ ١٠	٣ـ٢٠، ٤ ـ٦	
	الرشاشون داخل القصر			يتولى الرشاشون رش الماء وعددهم ٣٠٠
	القصر وخارجه ولهم عرفاء يتولى أمرهم			
	استاذ من الخواص	٥ ـ١٠	٣ ـ ٦	
	كاتب صاحب دفتر المجلس[1]	٥	٣ [2]	

(١) المقريزي، الخطط: ١/٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٢) بتقدير المؤرخ العلاّمة صموئيل برنارد في كتابه «وصف مصر» ان الدينار يساوي ١٥ فرنكا =

ولنعد النظر الى الجدول البياني، لسلسلة رتب ورواتب الموظفين في الدولة الفاطمية، ونقارن بين ما كان يقبضه هذا الموظف منذ ما يقرب من ألف سنة وبين ما يقبضه الموظف في جمهورية مصر العربية اليوم، على الا يغيب عن بالنا فارق قيمة الجنيه الشرائية في العصرين. فربما تبدو لنا الصورة أوضح ونتأكد من ان نسبة الرواتب الفاطمية كانت أعلى من نسبة رواتب اليوم في مصر خاصة اذا علمنا ان للرواتب ملحقات يمكن ان يستفيد منها اكثرية الموظفين. وهذه الملحقات عبارة عن الكسوة (الملابس) والمواشي واللحوم وبعض المواد الغذائية الاخرى.

واذا علمنا ان راتب الوزير كان خمسة آلاف دينار (٣٠٠٠ جنيه مصري) وهو ما لم يبلغه راتب اي وزير مصري في عصرنا الحاضر، فلا نلوم اصحاب المطامح والمطامع في آن معا، اذا تهافتوا على هذا المنصب الدسم، لا سيّما أن أولاد الوزير واخوانه وأقاربه يتقاضون رواتب مرتفعة جدا، علاوة عن الكسوة واللحوم والحبوب والاقطاعات عن الاراضي التي كان يقطعه اياها الخليفة وما كان يمنحه من ملابسه الخاصة في الاعياد والمناسبات الاخرى.

ونشير في نهاية عرضنا لديوان الرواتب، والصورة التي قدمناها في الجدول البياني لسلسلة الرتب والرواتب وقيمة كل منها بالجنيه المصري، الى أن هذا الجدول لم يشمل جميع أصحاب الوظائف في الدولة الفاطمية ليس

= و ٨٠ سنتيما اي ٦٠٩ مليمات.

ويساوي بتقدير علي مبارك في «الخطط التوفيقية» ٥٩٠ مليما.

لذلك نأخذ التقدير الوسط الذي عمل به الامير عمر طوسون في كتابه «مالية مصر من عهد الفراعنة الى الآن»، الاسكندرية ١٩٣١م: ٦١. وهو ٦٠٠ مليما للدينار الواحد أو ٦٠ قرشا فقط.

لسبب الا لان المؤرخين العرب كانوا قد اهملوا ذكر تلك الوظائف او ذكر قيمة مرتب كل منها. فمثلا لم يأتِ المؤرخون على ذكر قيمة راتب الولاة في الاقاليم، وذكر راتب قائد الجيش والقضاة في المناطق والعدول والشهود، وصاحب البريد، وصاحب الشرطة، وصاحب الحسبة وهذا على سبيل العدّ لا الحصر.

تبقى هناك دواوين اخرى كديوان الخراج، وديوان الضرب، (صك النقود) وديوان المواريث والاحباس، وديوان التحقيق، وديوان النظر، وديوان المجلس سوف نطلع عليها عند عرضنا للاوضاع المالية.

الفصل الثالث

النظام المالي

وازنت الدولة الفاطمية بين وارداتها ونفقاتها، فأوجدت عدة دواوين لمراقبة المداخيل والمصاريف، وأناطت امورها بالموظفين الاكفاء، حتى اذا لمست منهم تقاعسا في جمع الاموال او تبذيرا في صرفها، وتهاونا في ردع من تمتد ايديهم اليها صرفتهم بعد معاقبتهم واستبدلتهم بأفضل منهم.

أولا: واردات الدولة:

١ ـ الخراج:

لما فتح الفاطميون مصر، أقرّ جوهر الصقلي علي بن يحيى بن العرمرم شهرا على جباية الخراج، ثم أشرك معه رجاء بن صولاب[١]. وكان أكثر ما جباه جوهر في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، ثلاثة ملايين دينار وكسر[٢]، الا ان المعز لدين الله عزل جوهر الصقلي في سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، عن دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في سائر امورها، فور وصوله الى مصر[٣]، وقلّد الخراج، ووجوه الاموال، وسائر الاعمال في ارض مصر، يعقوب بن

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١١٨.

(٢) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٢٦.

(٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/ ٢٢٨.

كلس وعسلوج بن الحسن، وكتب لهما سجلا، قرىء يوم الجمعة على منابر جامع أحمد بن طولون[1]، وكلفهما وضع نظام جديد للضرائب، فزادت الضرائب بفضل السياسة المالية التي اتبعت، بدراسة الشكاوى المقدمة، وسياسة الحزم التي اتبعاها لتطبيق النظام الجديد. فما هي اذا الاصول المتبعة في جمع الخراج؟ ومتى يجمع الخراج؟ وكيف كان يتم تقديره؟

قال ابن عبد الحكم[2]: كتب عمر بن الخطاب، الى عمرو بن العاص، ان يسأل المقوقس: «من أين تأتي عمارتها وخرابها (مصر)؟» ، فقال المقوقس: «... من خمسة وجوه: أن يستخرج الخراج في ابان واحد عند فراغ اهلها من عصر كرومها، وتحفر في كل سنة خلجها، وتسد ترعها وجسورها، ولا يقبل محل اهلها، فاذا فرغ فيها عمرت، وان عمل بخلافه خربت».

أما ابن حوقل فقال[3]: «ولمصر عادة وسنّة لم تزل منذ عهد فراعنتها في استخراج خراجها، وجباية اموالها واجتلاب قوانينها، وذلك انه لا يتم استيفاء الخراج من اهلها الا عند تمام الماء وافتراشه على سائر اراضيها وتطبيقها، ويقع اتمامه في شهر توت.

بينما حدّد الكندي[4] تمام الماء بقوله: «اذا تم ست عشرة ذراعا فقد وفي خراج مصر، فاذا زاد بعد ذلك ذراعا واحدة زاد في الخراج مائة الف دينار لما يروي من الاعالي، فان زاد بعد ذلك ذراعا اخرى نقص مائة الف

---

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٢٧.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر: ١٦٦/١.

السيوطي، حسن المحاضرة: ١٥٠/١.

(٣) ابن حوقل، المسالك والممالك: ١٣٦.

(٤) الكندي، فضائل مصر، تحقيق ابراهيم احمد العدوي وعلي محمد عمر، الطبعة الاولى، ١٣٩١هـ/١٩٧١م: ٦٠.

من الخراج لما تستبحر من البطون (اي تصبح بطون الارض كالبحيرات).

ويتم تسديد الخراج حسبما ذكره ابن حوقل[1]، على خمسة اقساط:

القسط الأول: وهو ربع الخراج، يتم تسديده في شهر كيهك (كانون الاول).

القسط الثاني: يطالب الناس بالربع الثاني في شهر برمهات (آذار).

القسط الثالث: يتم فيه استخراج نصف الخراج وذلك في شهر برمودة (نيسان) وتسجيله في السجلات.

القسط الرابع: يتم استخراج الربع الثالث في شهر أبيب (تموز).

القسط الخامس: يسدّد الخراج كاملا في شهر عرى (آب).

يمكن جباية الخراج من الضريبة التي كانت مفروضة على المحاصيل الزراعية، الا ان هذه الضريبة لم تكن واحدة في كامل أيام الدولة الفاطمية، اذ اختلف في تحديدها. فابن حوقل يقول[2] بأن الخراج كان ثلاثة دنانير ونصف دينار عن الفدان الواحد (اي مائتين وعشرة قروش مصرية). فجعلها جوهر الصقلي سبعة دنانير (اي اربعمائة وعشرين قرشا)، وبلغت في أيام الخليفة الحافظ لدين الله أربعة دنانير (أو مائتين واربعين قرشا)[3]. ومرد الاختلاف في تحديد الخراج يعود الى ثلاثة عوامل: خصوبة الارض، ونوع المحصول، وطريقة الري.

---

(١) ابن حوقل، المسالك والممالك: ١٣٦ ـ ١٣٧.

البراوي، راشد، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، القاهرة ١٩٤٨م: ٢٨٨...

(٢) ابن حوقل، المسالك والممالك: ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٥.

وتمتد السنة القمرية (الهلالية) لحساب الخراج اذا فرض على كامل الارض المزروعة، وغير المزروعة، فيجمع الخراج على دفعتين: الاولى في اول رجب، والثانية في اول محرم[١]. اما اذا جمع الخراج من الجزء المزروع من الارض فيعتمد حينئذ السنة الشمسية (القبطية)، وفي ذلك يقول المقريزي[٢]: «وكانت العادة اذا مضى من السنة الخراجية أربعة أشهر، ندب من الجند من فيه حماسة وشدّة، ومن الكتّاب العدول، وكاتب نصراني، فيخرجون الى سائر الاعمال لاستخراج ثلث الخراج، على ما تشهد به المكلفات المذكورة». ويتم أحيانا فرض الخراج على المحصول وبتحديدات مختلفة كما ذكرناه اعلاه، فعندما يكون استحقاق الخراج عند جمع المحصول الزراعي وفق اختلاف نوعه بصرف النظر عن السنة الهلالية او الشمسي[٣]. والجدير بالاشارة ان اراضي مصر اعتبرت كلها خراجية يحق عليها دفع الجزية[٤].

وأورد ابن مماتي لائحة ببعض انواع المحاصيل وما يجبى من كل فدان (مساحة الفدان ٥٩٢٩ مترا مربعا) بالارادب او الدنانير حتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م.

---

(١) المقريزي، اغاثة الامة في كشف الغمة: ٥٨.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٨٦ و ٤٠٥.

(٣) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٢٧.

المقريزي، الخطط: ١/ ٢٧٣.

(٤) Artin, La propriété foncière en Egypte, le Caire, imprimerie Nationale, 1883, P,77, Magued, A, N, l'organisation financière sous les Fatimides, L'Egypte contemporaine, Vol. 53, N 308 Avril 1962, P.P. 49 - 56.

اسم المحصول	الضريبة على الفدان بالارادب	الضريبة على الفدان بالدنانير
القمح والشعير	٣	ـ
الفول	٢ ١/٢ ـ ٣	ـ
الحمص والجلبان والعدس	٢ ١/٢	٣
قطيعة الكتان		٣ ـ ٥
القرط		١
البصل والثوم		٢
قطيعة الترمس		٢ ١/٢
الكمّون والكراويا والسلجم		١
البطيخ الاصفر والاخضر (الاحمر)		١ ـ ٢
اللوبيا		٣
السمسم		١
القطن		١
القصب السكر ان كان رأسا		٥
القصب السكر وان كان خلفا		٢,٢٠ قراريط
القلقاس		٥
الباذنجان		٣
السمسم النيلي	١ ـ ٥	ـ
النيلة		٣
الفجل		٢
اللفت		١

اسم المحصول	الضريبة على الفدان بالارادب	الضريبة على الفدان بالدنانير
الخس		٢
الكرمب		٢
البصل		٢
الشجر والكرم		٣
القصب الفارسي		٣ (١)

يتبينّ مّما تقدّم، أن مقدار الخراج كان يتفق مع انتاج الارض، فاذا زاد الانتاج زاد الخراج، والعكس صحيح نقصانا، ويختلف مقداره باختلاف المحاصيل الزراعية. وبالمقارنة بين انتاج الفدان وقيمة الضريبة المفروضة عليه، فان نسبة الضريبة المئوية تبلغ:

متوسط انتاج الفدان	نسبة الضريبة المئوية
٨ ـ ١٠	٣٠٪ اذا كان المزروع قمحا او شعيرا.
	٢٥٪ الى ٢/١ ٦٢٪ اذا كان المزروع حمصا.
	١٧٪ الى ٢٦٪ اذا كان المزروع لفتا(٢).

ونثبت جدولا آخرا بمقدار الخراج المفروض على الماشية والحشرات النافعة:

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٢٥٩ ـ ٢٧٠ حسن، تاريخ الدولة الفاطمية: ٥٤٨.

(٢) البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين: ٣٢٢.

نوع الماشية	الضريبة بالدنانير	نوع الماشية	الضريبة بالدنانير
الراتب	٥	الكبش والنعجة	١
الجاموس			
الغالب	٣ـ٤	الثني والثنية	٢/٣
اللاحق	٢/١ ٢ ـ ٢	العبورة (العجوز)	١/٢
أبقار الخيس: الراتب	٢	الشقارى (الماعز كل ١٠٠ رأس	٢٠
النحل: كل ١٠٠ خلية	١٠أرطال عسل	وكل ٥ـ٦ قناطير شمع	٢٠ رطلا[1]

لم يُجْبَ الخراج كما ذكرنا واحدا، انما كان يرتفع أحيانا ويهبط احيانا اخرى تبعا للعوامل الطبيعية كارتفاع او انخفاض منسوب المياه في النيل او حدوث اضطرابات يفلت معها حبل الامن، او رفع الضريبة العقارية على الفدان وخلافه والجدول التالي يبينّ قيمة الزيادة ونسبتها:

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣٥٠ ـ ٣٥٣.

حسن، الدولة الفاطمية: ٥٤٨.

الخليفة	السنة	مقدار الخراج بالدينار	نسبة الزيادة او الانخفاض
	٣٥٨هـ/ ٩٩٩م	٣,٢٠٠,٠٠٠	-
	٣٥٩هـ/ ٩٧٠م	٣,٤٠٠,٠٠٠	٦,٢٥٪ زيادة
المعز لدين الله	٣٦٠هـ/ ٩٧١م	٣,٢٠٠,٠٦٠	-
	٣٦٢هـ/ ٩٧٣م	٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٥,٠٠٪ زيادة
العزيز بالله	٣٨٦هـ/	٣,٠٠٠,٠٠٠	٦,٢٥ انخفاض
الحاكم بأمر الله	٤١١هـ/	٣,٤٠٠,٠٠٠	٦,٢٥ زيادة
	٤٦٢هـ/	٠,٦٠٠,٠٠	٨٤,٣٨٪ انخفاض
المستنصر بالله	٤٦٦هـ/	٣,٨٠٠,٠٠٠	١٨,٧٥٪ زيادة
	٤٨٧هـ/	٣,١٠٠,٠٠٠	٣,١٢٥٪ انخفاض
المستعلي بالله	٤٩٥هـ/	٥,٠٠٠,٠٠٠	٥٦,٢٥٪ زيادة
الحافظ لدين الله	٥٤٤هـ/	١,٠٠٠,٠٠٠	٦٨,٧٥٪ انخفاض

نلاحظ من الجدول اعلاه هبوط الخراج في العصر الفاطمي الثاني بنسبة ٨٤,٣٨٪ ثم ارتفاعه بفضل الاجراءات التي اتخذها الوزير الافضل شاهنشاه ابن امير الجيوش بدر الجمالي في عهد المستعلي بالله حيث بلغت الزيادة ٥٦,٢٥٪، ولكنها سرعان ما تهبط على ايام الحافظ لدين الله بنسبة ٦٧,٧٥٪.

فكيف تتم جباية الخراج؟ ومَنْ يقدر الضرائب؟

يحدثنا المقريزي عن نظام الجباية بقوله[1]: كان متولي الخراج في مصر يجلس وحوله كتّابه في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وقت قبالة الاراضي، وقد اجتمع الناس من سائر أنحاء البلاد وسائر الطبقات. ويعلن بالمناداة في المسجد عن الاراضي الموضوعة للقبالة، ليتزايد الناس عليها،

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٨٢.

فاذا رست القبالة على رجل، يعمد الكتبة الى تسجيل اسمه والارض التي قبلها، ومقدار القبالة وذلك لمدة اربع سنوات، حيث يقوم بزراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه اعمالها بنفسه او من ينتدبه لذلك، ويسدّد قيمة الخراج في اوقاته بعد حسم ما انفقه على عمارة جسورها، وسد ترعها وحفر خلجانها.

تتم جباية الخراج عن الاراضي الزراعية اذا وفق ما يسمى «بنظام القبالة»، او «نظام الالتزام» وهو ما يلتزمه على نفسه شخص ما وقع عليه الضمان او الالتزام بتحصيل الضرائب المفروضة على قرية او عدة قرى، لاشتراكه في المزايدة العلنية في جامع عمرو ابن العاص او جامع احمد بن طولون، فيسمّى هذا الشخص «الضامن» او «الملتزم»، فمثلا: ضمن «علي بن عمر بن العداس» كورة بوصير في عهد المعز لدين الله، وضمن المعلم «زوين» مدينة القاهرة في عهد الظاهر لاعزاز دين الله[1]. وقد تأخر في زمن المعز لدين الله، قسم من الخراج على الضمان، وهو ما يسمى بالبواقي[2]، فتشدّد كل من يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن في طلبه[3].

ولم يعمل بنظام الالتزام لجمع الخراج فقط، انما تعداه هذا المبدأ الى جوازه على ايرادات كثيرة مثل الاحباس (الاوقاف) فقد ضمنها محمد ابن القاضي أبي الظاهر محمد بن أحمد سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م، بمليون ونصف المليون من الدراهم[4]. كذلك كل القطرون مضمونا حتى نهاية سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، بمبلغ محدود[5].

---

(١) المقريزي، الخطط: ٢/ ٣١.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٨٢.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١١٨. ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة: ١٢٦.

(٤) المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٩٥.

(٥) المقريزي، الخطط: ١/ ١١٠.

البراوي، حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي: ٢٨١.

وقد أصدر المأمون، وزير الخليفة الآمر بأحكام الله، عدة مراسيم لتنظيم شؤون الجباية والخراج، وكانت هذه المراسيم في مصلحة الضامن، لان العادة المتبعة في زمن الفاطميين، كانت تسمح بفسخ الضمان الاول، اذا تقدّم اي انسان آخر وزاد على قيمة ضمانه ولو بعد حين، فيعطى الضمان للثاني الذي زاد عليه[1]. فألغى الآمر هذه الطريقة لانها وان ألحقت بالضامن ضررا مباشرا، فانها انعكست ضررا غير مباشر على الرعايا لما يصيبهم من الزيادة التي يحصلها الضامن الثاني اضعافا مضاعفة.

وجاء بعضها في مصلحة اصحاب الاراضي، اذ تبيّن ان عددا كبيرا من الناس لم يسدّد ما توجّب عليه من الخراج عن اراضيهم لعدد من السنين، وعندما تقرّر مطالبتهم بما عليهم وصدر حكم القاضي بذلك، التمسوا من الوزير المأمون البطائحي اعفاءهم، لا سيّما أن قيمة هذا الخراج تزيد عن ثمن الارض التي يستثمرونها. فأعفاهم وأصدر بذلك مرسوما[2].

كما فعل سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م[3] سامح بموجبه اهل الخراج، من المعاملين والضمناء والمتصرفين عن بواقي الخراج الى آخر سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م، وذلك للفرق الحاصل بين السنة الهلالية والخراجية.

وأعفى ابو عبدالله محمد بن فاتك المأمون البطائحي مستأجري الرباع السلطانية بالقاهرة ومصر (الفسطاط) من (دور وحمامات وحوانيت ومعاصر

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٨٣ ـ ٨٤.
حمادة، الوثائق السياسية الفاطمية: ١٦٥ ـ ١٦٧.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٨٤ ـ ٨٥.
حمادة، الوثائق السياسية الفاطمية: ١٦٣ ـ ١٦٥.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٨٣.
حمادة، الوثائق السياسية الفاطمية: ١٦٣ ـ ١٦٤.

وطواحين وغيرها) من ايجار شهر رمضان كل سنة، اعتبارا من سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، احسانا هذا الشهر[١].

الا ان ما ينكر على هذه السياسة المالية في جباية الخراج، ما كان يلجأ اليه بعض الضامنين كما أسلفنا، لجمع الخراج، بالترهيب ببيع المحصول او الارض او اي شيء آخر حينا، وبالتعذيب حيناً آخر، وذلك كله بعلم الدولة ومعرفتها، التي كانت ترسل الجابي مصحوبا بأحد الرجال الاقوياء لتخويف الناس وتهذيبهم عند الحاجة[٢]. ففطن بعض الخلفاء لهذه الوسيلة المكروهة، ومنع استعمال مثل هذه الاساليب التعسفية. فكان صدور المراسيم لتحسين اوضاع الفلاح والضامن معا، وتحديد قيمة الضرائب، لعدم افساح المجال للضامن في زيادتها[٣].

وتعود اموال الخراج الى ديوان يعرف بـ«ديوان الخراج»[٤]، يرأسه أحد الموظفين الكبار، ويساعده بعض العمال والكتبة والجباة. وفي هذا الديوان يتم الاعلان من قبل رئيسه عن الضياع للضمان وجباية الاموال، التي تتمّ كما مرّ معنا، في جامع أحمد بن طولون في مصر (الفسطاط)، ثم نقل هذا الديوان الى القصر الخلافي في القاهرة، ويعود الى هذا الديوان، وفق ما فصلناه، امر مسح الاراضي المصرية لتقرير الضريبة المتوجبة عليها.

والجدير بالذكر هنا ذلك المرسوم الذي اصدره الافضل (ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الآمر بأحكام الله سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م، بتصحيح جباية الخراج المعمول بها قبل هذا التاريخ، حيث كان يُجبي الخراج على

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

حمادة، الوثائق السياسية الفاطمية: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٨٦.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٨٢.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٩٦.

المقريزي، الخطط: ١/ ٩٨.

حكمين: أحدهما يُجبى هلاليا، والثاني يُجبى خراجيا، ونسبته الى الخراج على اساس التقويم القبطي (السنة الشمسية).

فكان التصحيح الخراجي للجباية كما يقول عطية مشرفة[1]: «ان دلّ على شيء، انما يدل، على انه اكثر انقيادا الى المؤثرات الدينية منه الى المؤثرات العقلية والمصلحية، اذ من المسلّم به، ان السنة القمرية سنة لا يصح مطلقا اتباعها في الحسابات الزراعية الخراجية، ولا في الحسابات المصلحية السنوية، لعدم تكامل الفصول الاربعة فيها، ولانتقالها مع توالي السنين من شهر حتى تدور على الاشهر جميعها».

٢ ـ الجزية أو الجوالي:

وتسمّى ضريبة الرؤوس، يدفعها اهل الذمة من النصارى واليهود. وكانت مفروضة على الذكور البالغين، ويُستثنى منها الاطفال من الجنسين (الاناث والذكور) والنساء، والشيوخ، والرهبان، والعبيد، والمجانين، والفقراء الذين لا يكسبون أجرا. وكانت جباية الجزية تتم بحسب السنة الهلالية[2]، مرة واحدة في السنة، ويُراعى فيها غنى القادرين على دفعها، فقسمت تبعا لذلك على ثلاث طبقات: عليا، يدفع الشخص منها أربعة دنانير وسدس الدينار كل سنة... ووسطى، دينارين وقيراطين، وسفلى، دينارا واحدا وثلثا وربما وحبتين من دينار[3].

وتعرف هذه الضريبة بـ«الجوالي» (ومفردها جالية). فقد أطلق هذا اللفظ

---

(١) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ١٧٠.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٢/ ٤٦٢.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ٨٨.

(٣) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣١٧ ـ ٣١٩.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٥٨.

على كل من فُرضت عليه هذه الضريبة من أهل الذمة، ولو لم يجل عن بلاده، لان الخليفة عمر بن الخطاب كان قد أجلى اهل الذمة من شبه الجزيرة العربية، فصار كل من يدفعها يعتبر من الجوالي[١]. وفرضت هذه الجوالي على الذميين باعتبارهم تحت حماية الدولة الاسلامية[٢]. واستخرجت في أيام الفاطميين من أفراد الطائفة القبطية عن طريق بطريركهم الذي كان يعتبر في هذه الحالة «شيخ المشترك»[٣].

وجعلت جباية «الجوالي» او «الجزية» من اختصاص «ديوان الجوالي»[٤]، الذي يرأسه أحد العدول الكبار، يعاونه عدد من الموظفين لتنظيم جباية الجزية عن الذميين، وشطب اسم من يموت أو يسلم، من اللوائح بعد أن يؤخذ منه ما يقدّر عليه من أشهر السنة قبل وفاته أو اسلامه.

٣ ـ الزكاة:

تتوافق هذه، مع ضريبة الرؤوس على الذميين. قال المقريزي[٥]: «ان أول من جبى الزكاة بمصر، كان صلاح الدين الايوبي في الثالث عشر من ربيع الآخر سنة خمسمائة وسبع وستين هجرية / ١١٢١م، اي بعد موت العاضد آخر خلفاء الفاطميين، ويعود هذا التجني للخلاف المذهبي بين السنّة والشيعة، فالزكاة معروفة لدى الفاطميين[٦]، وكانت أموال الزكاة

---

(١) أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم الانصاري، كتاب الخراج، طبعة بولاق ١٣٠٢ هـ: ٢.

(٢) أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم الانصاري، كتاب الخراج: ٦٩ ـ ٧٢.

الماوردي، الاحكام السلطانية: ١٣٩.

(٣) ماجد، عبد المنعم، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر (التاريخ السياسي) (منشورات دار المعارف بمصر)، القاهرة ١٩٦٨م: ٣٨٤.

(٤) ابن مماتي، قوانين الدواوين، طبعة ١٩٤٣م: ٣١٧.

(٥) المصدر السابق: ٣٠٨. المقريزي، الخطط: ١/١٠٨.

(٦) المقريزي، الخطط: ١/ ٣٩١ ـ ٣٩٥.

تجمع وترفع الى بيت المال بعد أن يتم توزيع الانصبة على مستحقيها وفق الآية الكريمة: (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب والغارمين، وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله، والله عليهم حكيم)[١]. وفرضت الزكاة في الاسلام[٢]، فهي تؤخذ من الغني لتوزّع على الفقراء بحسب الآية(خذ من أموالهم صدقة تظهرهم وتزكيهم بها)[٣].

٤ ـ المواريث الحشرية:

وتعتبر من موارد الدولة، أموال من يموت ولا وارث له بقرابة او نكاح او ولاء، والباقي بعد الفرض، من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق فرضه جميع المال، ولا عاصب له (أي وريث من عصبه) فتعود جميعها الى ديوان المواريث الحشرية[٤]. ومن مات من المصريين خارج بلاده، وزّعت ثروته على أهله[٥]. وقد يموت بعضهم بعد ان يوصي بأمواله للخليفة، فيتنازل عنها لورثته[٦]. فهذا «جيش بن صمصامة» أوصى للخليفة الحاكم بأمر الله بتركته البالغة مائتي ألف دينار تقريبا، ولم يترك لاحد من أولاده منها درهما، فما كان من الخليفة الا ان ردّ التركة الى ولدي الموصي سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، قائلا: «قد وقفت على وصية أبيكما رحمه الله. فخذوه هنيئا مباركا فيه» وذلك بحضور اولياء الدولة ووجوهها.

---

(١) القرآن الكريم، الآية رقم ٥٩ من سورة التوبة رقم ٩.

(٢) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣٠٨ ـ ٣١٠.

المقريزي، الخطط: ١/١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣) القرآن الكريم، الآية رقم ١٠٣ من سورة التوبة رقم ٩.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/٤٩٦.

(٥) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/٥٨ ـ ٥٩.

(٦) المصدر السابق: ٢/٥٧

وكان أيضا من يموت من اهل الذمة وليس له وارث يرثه، ترد تركته لاهل ملّته، عملا بالحديث الشريف: «ان المسلم لا يرث الكافر، وان الكافر لا يرث المسلم».

ويتوخى كاتب «ديوان المواريث الحشرية» تنظيم الجداول بالاموال الخاصة بالمواريث الحشرية، التي تحمل الى بيت المال، وكتابة اللوائح اليومية بمن يموت في مصر (الفسطاط) والقاهرة من الحشريين او الذميين قبل العصر من كل يوم، ويستنسخ نسخا عنها ترسل الى كل من ديوان الوزارة وديوان النظر، ولمستوفي الدولة. ومن يموت بعد العصر، يضاف اسمه على لوائح اليوم التالي، أما بشأن من يموت خارج العاصمة (مصر ـ القاهرة)، فكان يجمع مباشرون اللوائح بهم ثم يحضرونها الى دار الخلافة[١]. وقد ألحق هذا الديوان بديوان الجوالي، فسمّي «ديوان الجوالي والمواريث الحشرية».

٥ ـ المستغلات:

وهي تؤلف المواد والسلع التي كانت تستغل لحساب الدولة الفاطمية، ومنها معدن الشب، وكان مقدار ما يستخرج منه اثني عشر ألف قنطار سنويا، والنطرون، ويستخرج منه أيضا ثلاثون ألف قنطار في السنة، تباع كلها للتجّار الاجانب. ولا يقدر احد على شرائه. فان عثر على أحد انه اشترى منه شيئا او باعه لحسابه، نكل به واستهلك ما وجد معه[٢].

واحتكر الفاطميون ايضا بيع محصول القرظ (ثمرة شجرة السنط) فخصص لذلك بعض المراكب بدار الصناعة لبيعها، وباعوا الفائض من

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣١٩ ـ ٣٢٤.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٦٠.

(٢) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣٢٥ ـ ٣٢٨.

المقريزي، الخطط: ١/١٠٩.

حاجة المطابخ من الاخشاب المقطوعة من الغابات في الاشمونين وأسيوط وقوص والمتبقية في الشون (المخازن)[1]. ويعتبر من المستغلات، الحوانيت والدور والقياسر والحمامات والافران التي كانت كلها ملك السلطان كما يقول ناصر خسرو[2]، وتئجر بما لا يقل عن دينارين في الشهر وتصل احيانا الى عشرة دنانير. وهناك تجارة القمح التي تخزّن في الاهراءات لاوقات الشدة حيث تباع بأسعار أعلى، ثم استبدلت هذه التجارة بتجارة الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل الذي لا يخف وزنه ولا يتغيّر لونه كالقمح.

٦ ـ دار الضرب:

لما دخل القائد جوهر الصقلي الى مصر بعساكر المعز لدين الله، أمر بفتح دار الضرب، وضرب السكة والدينار المعزي الذي نقش عليه، في أحد وجهيه: «دعى الامام معد لتوحيد الاله الصمد، المعز لدين الله أمير المؤمنين. ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» وعلى الوجه الثاني: «لا اله الا الله، محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، علي أفضل الوصيين، وزير خير المرسلين»[3].

وكما ذكرنا عند حديثنا على الاوضاع السياسية، فقد كان يضرب احيانا اسم ولي العهد على السكة الى جانب اسم الخليفة، فمثلا ضرب المستعلي بالله اسم ابنه وولي عهده على الدينار وسماه الدينار الآمري[4]. وأحيانا

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣٢٨ ـ ٣٣٠.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامة: ٨٨

(٣) الكرملي، الاب انستاس ماري، النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩م: ٥٨.
القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/٤٦٨.

(٤) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/١٥٤.

اخرى ضرب اسم الوزير، فالمستنصر بالله أمر بضرب اسم وزيره اليازوري على السكة مدة شهر[١]. وأصبحت السكة تختم بختم الخليفة لمعرفة الخالص من المغشوش عند التعامل بين الناس[٢].

وتركزت دور صك النقود وضرب العملة في المدن الكبرى ومراكز الاقاليم على أيام الدولة الفاطمية. فقد بنيت اول دار للضرب في العصر الفاطمي بمصر (الفسطاط) بجانب دار الشرطة في البيمارستان بسوق الحمام في سنة ٣٦١هـ/ ٩٧٢م، وبقيت تعمل حتى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م[٣]. وبنى المأمون البطائحي، وزير الآمر بأحكام الله، دارا للضرب سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م[٤]، بجهة القشاشين قرب الجامع الازهر، وسمّيت هذه الدار بـ«الدار الآمرية».

ونورد فيما يلي جدولا بأسماء دور الضرب العاملة في العصر الفاطمي بمختلف الانحاء التابعة لها[٥]:

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٦٦.

المقريزي، اغاثة الامة: ٥٥.

(٢) ابن خلدون، المقدمة: ٢٦١ ـ ٢٦٣.

(٣) الانطاكي، يحيى بن سعيد، صلة كتاب اوتيخا: ٣٤. المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ٩٤.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٥٠ واغاثة الامة: ٦١.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٥٧.

(٥) حسن، الدولة الفاطمية: ٢٩١، نقلا عن:

H.Lavoix: Catalogue de monnaies musulmanes. P.P. 517 - 531.

دار الضرب	الاقليم	بدء الضرب	نهاية الضرب
القيروان	افريقية	٣٠٣	٣٣٥
المهدية	افريقية	٣١٥	٤٢٠
المنصورية	افريقية	٣٤١	٤٥٤
صقلية	صقلية	٣٤٣	٤٥٦
عسقلان	فلسطين	٣٥٩	٣٦٤
مصر(الفسطاط)	مصر	٣٦١	٥٦٤
طرابلس	الشام	٣٦٨	٤٤٦
طبرية	الشام	٣٩٥	٤٦٠
زويلة	افريقية	٤١٤	-
حلب	الشام	٤٢٩	٤٤٤
صور	الشام	٤٣٠	٤٨٤
عكا	فلسطين	٤٦٢	٤٩٥
الاسكندرية	مصر	٤٦٩	٥٥٥
عسقلان	فلسطين	٥٠٧	-
أيلة	فلسطين	٥١٤	-
تيماء	فلسطين	٥١٤	-

وكان لدار الضرب اهمية كبرى، لما تعود به على الدولة من ايرادات بفضل ما يسبك فيها من الذهب الذي يحمل اليها، حيث يصهر ويصب في قوالب تقطع من أطرافها مباشرة المدير المسؤول فتصير سبيكة[1]. ثم تضرب نقودا مختلفة الاحجام والاوزان والقيم. وكان أكثر ما يعمل بها: دنانير

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

الغرّة، التي يوزّعها الخليفة في اول العام الجديد من كل سنة، وما يضرب من دنانير بمناسبة خميس العدس[١].

ولصاحب دار الضرب الحق في مراقبة الموازين والمكاييل التي يحملها أصحابها الى هذه الدار للكشف عليها، فان وجد فيها عيبا او نقصا او تلفا ما، أجبر أصحابها على استبدالها وشراء غيرها[٢] أو اصلاحها، ونظرا لاهمية ديوان الضرب كان يتولى مهمة الاشراف عليه قاضي القضاة، ويساعده عدد من العدول[٣].

كان الناس يتعاملون قبل الفاطميين الدينار «الراضي» (العباسي»، وبقي بعد الفتح على أيام جوهر الصقلي بالرغم من ضرب الدينار «المعزي»، وذلك لكون «الراضي» أكثر وزنا وأشد نقاوة من «المعزي»، (وذلك نسبة إلى المعز لدين الله)[٤]. لكن المعز لدين الله، أثناء خلافته بمصر، أجبر الصيارفة على التعامل بالدينار «المعزي» تحت طائلة التهديد بحرق محلاتهم، كما رفض ابن كلس جباية الخراج الا بالدينار المعزي، وامتنع عن قبول السداد بالدينار «الراضي». مما حمل الاهالي على التعامل بالدينار «المعزي»، وزاد في تعاملهم الاساليب القاسية التي اتبعت في زمن الخليفة المعز لدين الله، فمثلا صدرت الاوامر بتسعير الدينار «الراضي» بخمسة عشر درهما، والدينار «المعزي» بخمسة عشر درهما ونصف الدرهم. وجعل جوهر الصقلي

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٥٠.

ولنا عودة الى الكلام عن دنانير الغرة، وخميس العدس عند الكلام على الاحتفالات والاعياد الموسمية في كتابنا: التاريخ الفاطمي الاجتماعي.

(٢) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣٣٤.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٦٣.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٤٤٥.

(٤) مبارك، الخطط التوفيقية: ٢٠ ـ ٣٥.

الدينار الابيض بعشرة دراهم وأحيانا بستة دراهم وأحيانا اخرى بثمانية دراهم[1]. فخاف الناس من هذا الهبوط في سعر الدينار «الراضي»، فتراكضوا الى استبداله وبأقل من قيمته الحقيقية، بالدينار «المعزي» فحصلت الدولة من جرّاء ذلك على أرباح كثيرة.

وبدأ الناس في عهد الحاكم بأمر الله التعامل بالدراهم الفضية التي أنزلت الى التداول بعدما تبيّن اقبال الناس على اختزان الدنانير الذهبية، وكثرة استعمال الذهب، مع قلّة انتاجه، خوفا من حصول كارثة مالية لا يمكن مواجهتها، الا ان هذا لم يمنع من نشوء ازمة نقدية فور انزال الدراهم الفضية الى الاسواق والتداول بها بنسب متفاوتة قياسا على الدينار وذلك حسب الظروف. فتارة يكون سعر الدينار المصري اربعة وثلاثين درهما، وتارة يساوي ثمانية وعشرين درهما ونصف الدرهم، وتارة اخرى لا يساوي اكثر من عشرين درهما[2].

فاضطربت أمور الناس، وتدخلت الدولة برفع هذه الدراهم، وأنزلت من بيت المال في سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م، عشرين صندوقا فيها دراهم جديدة لتفرّق على الصيارفة، وقرىء سجل يمنع استعمال الدراهم القديمة خلال ثلاثة أيام واستبدالها اذا وجدت بدراهم جديدة من دار الضرب على أساس كل اربعة دراهم من القطع القديمة بدرهم من الجدد. فزاد اضطراب الناس على أساس كل اربعة دراهم من القطع القديمة بدرهم من الجدد. فزاد اضطراب الناس اكثر من ذي قبل، لكن ما أقدمت عليه الدولة من وسائل قمعية، كضرب الباعة بالسياط وتشهيرهم، القاء القبض على عدد آخر من باعة الفقاع (شراب يستخرج من الشعير يشبه الجعة او البيرة) والسماكين

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر: ١/ ٤٥ ـ ٤٦.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٩٠ و ٩٥ و ١٠٧.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٤٣.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٥٨.

لمخالفتهم التعامل بالدراهم الجديدة[١]، جعلهم يسكنون على مضض، واستقر سعر الدينار بثمانية عشر درهما من الدراهم الجدد[٢].

وضرب المستعلي بالله في سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، اسم ابنه ولي عهده على الدينار وسمّاه «الدينار الآمري»، ومنع التعامل بغيره[٣]. وضرب الآمر بأحكام الله في سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، الدراهم السوداء التي اشتهرت بـ«الآمرية»[٤].

وجرى التعامل في عصر الفاطميين اذا بنوعين من الدنانير، فكان التعامل بالدنانير المصرية وزنا على نظام العيار الذهبي، والعبرة في وزنها بالمثاقيل، على اساس وزن كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم، والمثقال الواحد يساوي اربعة وعشرين قيراطا، وكل قيراط يزن مقدار سبع حبّات شعير من الشعير الوسط[٥]. أما الدنانير غير المصرية، فهي الدنانير التي يؤتى بها من بلاد الروم او الافرنج، لذلك عرف بعضها بالدنانير الافرنجية، والبعض الآخر بالدوكات، لانها كانت تضرب في دوقية البندقية. وفي كلا الحالتين، كانت تحمل على أحد وجهيها صورة ملك البلاد وعلى الوجه الآخر صورة قديس. ويتم التعامل بها عددا لا وزنا[٦].

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٦٩.

البراوي، حالة مصر الاقتصادية: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٦٩.

للكرملي، النقود العربية وعلم النميات: ٥٩.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/١٥٤.

(٤) المصدر السابق: ٢/١٥٥.

(٥) يساوي الدينار المصري أيام الفاطميين: ١٨ درهما، او ١٢ مثقالا وست أعشار (١٢,٦م)، أو ٣٠٢ قيراط وأربعة أعشار القيراط (٣٠٢,٤ قيراط)، أو ٢١١٧ حبة شعير من الشعير الوسط.

(٦) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/٤٤٠ ـ ٤٤٣.

وكما كانت الدنانير نوعين، فالدراهم هي الاخرى نوعان: الدراهم النقرة، والدراهم السوداء (الآمرية). وهذه الاخيرة كان درهمها يساوي ثلث (١/٣) درهم النقرة. والدرهم النقرة كانت قيمته بالفلوس غير المطبوعة على السكة ثمانية وأربعين فلسا[١].

٧ ـ المصادرات:

تعتبر المصادرات موردا رئيسا من موارد الدولة الفاطمية المالية، وذلك لغنى من تصادر أمواله وممتلكاته. وقد بدأت أعمال المصادرات منذ بداءة عهد الفاطميين بمصر، فما ان ذكر الحسن بن عبيد الله بن طغج اسماء ارباب الاموال في مصر للخليفة المعز لدين الله حتى كتب الى قائده جوهر الصقلي باستئصالهم ومصادرتهم[٢].

وجرى سائر الخلفاء والوزراء الفاطميين هذا المجرى، فصادر العزيز بالله لوزيره يعقوب بن كلس خمسمائة ألف دينار[٣]. ثم أنشأ الحاكم بأمر الله ديوانا خاصا بالمصادرات برسم من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم، فسماه «الديوان المفرد»[٤] لاتساع أعماله في هذا الميدان. وشملت مصادرات الحاكم بأمر الله أملاك، الحسين بن جوهر، وصهره القاضي عبد العزيز بن النعمان وأموالهما وضمها الى الديوان المفرد[٥]. وضم الاوقاف الموقوفة على

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٤٣.
والفلوس عملة ورقية.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٢٦٢.

(٤) المصدر السابق: ٢/ ٨٢.
المقريزي، الخطط: ١/ ٢٦٤.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٨٢.

الكنائس والاديرة، وأدخلها في الديوان المفرد وكتب لسائر الاعمال بذلك، وأحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق والشرطة[١]، حتى انه صادر ما تملكه والدته واخته وخواصه من النساء والمباشرين والعاملين والضمان، وكبار مرؤوسيه، فبلغت كما يقول الدكتور البراوي[٢] المباني المصادرة وحدها مائتين واثنين وسبعين الفا من الدور والحوانيت.

وعندما أحس الآمر بأحكام الله بالقوة تآمر على قتل وزيره الافضل بن بدر الجمالي عام ٥١٥هـ/١١٢١م، وصادر املاكه وامواله، من مراكب وبغال وخيل ورقيق وحلي وجواهر، فاستغرق نقلها من داره الى بيت المال اربعين يوما، وقدرت هذه الثروة بستة ملايين دينار[٣]. ويجب الا ننسى مصادرات الراهب أبي نجاح بن قنا، الذي لم يبقَ احد الا وناله منه مكروه من ضرب ومصادرة مال، بعدما اطلق الآمر بأحكام الله يده في الناس حتى أتى بمصادراته على جميع رؤساء مصر وقضاتها وكتّابها وشهودها وسوقتها[٤].

ولما كانت الناس على دين ملوكهم، فقد سار على هذه السياسة، وزير الحاكم بأمر الله الروزباري فسلب ما في أيدي أرباب النعم والبيوت. ثم عملت والدته (الحاكم) على استعادة جميع الاقطاعات التي اقتطعت منها بعد وفاته. وبدأ امير الجيوش بدر الجمالي وزير المستنصر بالله عهده في الحكم بالمصادرات. اذ أجاز لجنده قتل أمراء عسكر الاتراك، واستيلاء كل منهم على مال كل أمير مقتول وداره واقطاعه. كما قضى بدر الجمالي نفسه على عدد كبير من الوزراء والقضاة والامراء[٥].

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٢٦٤.

(٢) البراوي، حالة مصر الاقتصادية: ٢٥٢.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/٦٦.

(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٩/ ١١١ ـ ١١٢.

ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٣١٢.

ودارت الدوائر ثانية، فتولى ابو علي أحمد بن الافضل الوزارة سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، فسجن الخليفة الآمر بأحكام الله نفسه، واستولى على جميع ما في القصر بحجة انها اموال ابيه الافضل ـ التي صادرها الآمر بنفسه بعد تدبير مقتل الافضل ـ وأمر بفتح مخازن الغلال وتوزيع ما فيها على الناس، فبلغت مئات الالوف من الأرادب[١].

واستولى ضرغام بن عامر اللخمي وزير العاضد لدين الله على الاوقاف للصرف على الجيش في السنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٣م، ثم صادر صلاح الدين مخصّصات العاضد وكنوز الفاطميين في القصر، وسجن من تبقى من العائلة المالكة، وأقطع الاملاك والاراضي افراد اسرته وجنوده، تماما كما فعل أمير الجيوش بدر الجمالي عندما أوعز لجنده فقتل الامراء المصريين والاستيلاء على ممتلكاتهم، فأنهى بذلك سيادة الفاطميين على البلاد المصرية[٢].

٨ ـ الاحباس:

ترصد الاموال المنقولة وغير المنقولة (كالعقارات) لينتفع بانتاجها بعض الاشخاص أو لتستثمرها دور العبادة ومرافقها العامة، فتسمى هذه الاموال «الاحباس» او «الاوقاف». وقد عمل الحاكم بأمر الله على حبس الاراضي الزراعية والمنازل والحمامات والرباع وغيرها[٣]. وأمر ايضا بحبس العقارات والكتب للازهر وجامع راشدة والمقس ودار العلم.

وتعدت الاحباس، الدور والاراضي الزراعية، لتشمل الطواحين والفنادق والحمامات والحوانيت وخلافها، فاستعملت مستغلاتها في نفقات الجوامع والمساجد والسقايات (ماء الشرب) وجعالات قرّاء القرآن الكريم

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ٦٢.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٣٣٠.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٥/ ٣٥٧.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

والعلوم الشرعية والائمة والخطباء والمؤذنين في هذه الجوامع والمساجد، وعلى مصارفات طلبة العلم في دار العلم ولوازمها[١].

يفترض بالاحباس، ان تكون للاعمال الخيرية، الدينية وغير الدينية، الا ان هذه القاعدة خولفت لقيام بعض الوزراء، أرباب السيوف على حبس الاراضي الواسعة على اولادهم او اقربائهم، متمثلين بالخلفاء في الدولة، مستغلين فرصة وصولهم الى الوزارة. وخير مثل على ذلك، ما اقطعه (حبسه) أمير الجيوش بدر الجمالي وزير المستنصر بالله على ذريته من جهات واسعة، فكان ذلك كافيا ليبقى اولاده واعقابهم تقلبات الدور. ويهيء لهم موردا ثابتا[٢].

وبلغت أموال الاحباس الفاطمية سنة ٣٧٣ هـ/ ٩٧٤م، مبلغ مليون ونصف مليون من الدراهم[٣]. وفي سنة ٤٠٢ هـ/ ١٠١٢م، حمل الحاكم بأمر الله كامل نفقات الاعمال الخيرية العامة على الجوامع والمساجد وسواها مما ليس له ايراد خاص من جملة مصاريف، ايرادات الاحباس[٤].

وأفرد ديوان للنظر في شؤون الاحباس يشرف على جباية الايرادات وتنظيم النفقات، اطلق عليه اسم «ديوان الاحباس». وقد شملت اختصاصات الاحباس العامة والخاصة. ويخدم اعيان كتاب المسلمين من الشهود والعدول. ولهم صلاحية الاشراف على الجوامع والمساجد والمشاهد والخوانق والسبل والزوايا والمدارس والاراضي والعقارات المحبوس عليها، والاحسان الى الفقراء ودفع نفقات االمصالح الخيرية والمستحقين وحمل الباقي من العائدات الى بيت المال.

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣٠٨ ـ ٣١٧.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ١١٠ و ٢/ ٢٩٥.

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٢٩٥.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٩ ـ المكوس:

ترجع ادارة المكوس الى الديوان الهلالي»، الذي يرأسه موظف كبير يعاونه عدد من الموظفين تشمل صلاحياتهم تنظيم جباية المكوس واعداد اللوائح بها، وهي كثيرة ومتنوعة حتى فرضت على المراعي وعلى ما يصاد من نهر النيل والبحيرات من سمك لتزيد في ايراد الدولة.

وتسد المكوس جانبا من نفقات الدولة المالية، بما كان يرد عن طريقها من أموال تفرض على البضائع الداخلة الى البلاد عن طريق التجار الروم، وما كان يفرض على الصناعة والتجارة المحليتين. وكانت نسبة الضريبة المفروضة على البضائع الواردة الى ثغور مصر مع تجّار الروم الوافدين اليها كانت مرتفعة في البداءة، فبلغت نسبتها ٢٥٪، ثم تدنّت الى ٢٠٪، وانخفضت في اواخر العصر الفاطمي الى ١٠٪.

ويعود ارتفاع نسبة المكوس في الدور الاول الى قوة الخلفاء وسلطات الوزراء، أما انخفاضها في الدور الثاني فيعود الى ضعف تلك السلطة، واضطراب حبل الامن والنزاع الطارىء بين الوزراء والقوّاد. وخير مثل على صحة ذلك، ما أورده يحيى بن سعيد الانطاكي عندما قال[١]: «ان عيسى ابن نسطورس عندما تولىّ الوزارة أحدث رسوما ومكوسا جائرة».

واذ احتاج الفاطميون الى شراء بعض السلع من تلك الواردة الى ثغور مصر، فان الدولة تدفع، بعد اسقاط (حسم) قيمة الضريبة المفروضة على بضائعهم، ثلثي ما يبقى من ثمنها، اذا زاد عن مقدار الضريبة[٢].

ويحدثنا المقريزي عن الغاء الحاكم بأمر الله للمكوس عن جميع الغلال الواردة الى السواحل والاسواق سنة ٤٠٣ ./ ١٠١٢ م، ثم اعادتها من جديد

---

(١) الانطاكي، يحيى بن سعيد: صلة كتاب اوتيخا: ١٠٨.

متز، الحضارة الاسلامية: ١/٢٠٧.

(٢) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣٢٥ ـ ٣٧٨.

في سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١٢م، مبقيا على الغاء مكس الرطب ودار الصابون، وقيمة ما كان يؤخذ عنها ستة عشرة الف دينار[١].

وصوّر لنا المؤرخون السّنة، ان الدولة الفاطمية كانت تفرض مكوسا كثيرة، لم يسلم منها غير الهواء، وأن هذه المكوس لم تلغ الا بقيام الدولة الايوبية على أيدي صلاح الدين، حتى ذهب ابن جبير الى القول[٢]: «ان المكوس التي ألغاها صلاح الدين كان من جملتها تلك التي يدفعها الحجاج في مدينة عيذاب في اثناء مرورهم بها في طريقهم الى الحج، ومقدارها سبعة دنانير ونصف الدنيار عن الشخص وتعود في الواقع الضرائب المفروضة على شرب ماء النيل، مع بعض المكوس الفاطمية الى الايام الاولى لفتح المسلمين للبلاد المصرية[٣]. وكانت مكوس الفاطميين قليلة اذا ما قيست بمثيلاتها أيام السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين[٤]، وبازدهار النشاط الصناعي والتجاري في العصر الفاطمي.

فرضت ضرائب كما قلنا على الصناعة والتجارة المحلية، من غلال زراعية ومنتجات صناعية، ورسوم على البائعين، مقابل استخدام الاماكن المخصصة للبيع وعلى كافة البضائع التي يشتريها او يبيعها التاجر حتى ولو كانت موادا اولية تستخدم في المنطقة المحلية. وشملت الرسوم المصانع، والمسالخ، والمذابح، والجسور، والموازين، والمكاييل، والسفن وغيرها، وقد فصّلها المقريزي في الخطط[٥]. ولهذا كانت قيمة المكوس المجباة من المدن

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/١٠٢ ـ ١٠٣.

ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٥٢.

متز، الحضارة الاسلامية: ١/ ٢٠٦.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير: ٣٠ ـ ٣١.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ١٠٣ ـ ١٠٥.

(٤) المصدر السابق: ١/ ١٠٥ ـ ١٠٩.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ١٠٣ ـ ١٠٦.

الصناعية مرتفعة، فبلغ خراج تنيس وحدها ألف دينار يوميا[1]، كما بلغت متأخراتها عن ثلاث سنين أيام الحاكم بأمر اللّه مليون دينار ومليوني درهم[2] بسبب عراقة هذه المدينة في صناعة المنسوجات الفاخرة. وارتفعت المكوس التي اسقطها صلاح الدين عن مصر (الفسطاط) والقاهرة الى «نيف ومليوني دينار ومليوني اردب[3]. ومنحت المكوس المجباة من الثغور على البضائع دافعيها تأشيرة دخول لمدة عام كامل معفاة من الرسوم مع حق الطواف ببضاعتهم على حدود البلاد[4].

ثانيا ـ نفقات الدولة:

تعددت وجوه الانفاق في الدولة الفاطمية بتعددد مواردها، وهي تدخل في باب النفقات العامة، وباب النفقات الخاصة، اي نفقات القصر على العائلة المالكة وحواشيها، وتندرج ضمن وجوه الانفاق الاقسام التالية: الرواتب، والهبات، والاعطيات، ونفقات الجيش والاسطول، ونفقات الخزائن، والاعياد والمواسم، ووهبات المساجد والمكتبات وغيرها.

١ ـ الرواتب:

فصّلنا ذلك في اثناء الحديث عن ديوان الرواتب ـ النظام الاداري، فيستحسن الرجوع اليه.

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامة: ٧٩.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ١٨١.

(٣) المصدر السابق: ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم: ٢١٣. ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٣١٩ ـ ٣٢٥. القلقشندي، صبح الأعشى: ٣/ ٤٩٥. المقريزي، الخطط: ١/ ١٠٩.

٢ ـ الهبات والاعطيات:

وفّرت ايرادات الدولة، ثروة ضخمة للفاطميين، ممّا جعلهم يعملون على تقليد العباسيين في وجوه البذخ والابهة وحب الظهور، فبزوهم في ذلك، وأسرفوا في نفقاتهم التي جرّت الخلفاء الفاطميين الى الفساد وبالتالي الوزراء، وانحطت اخلاق الناس، وتسرّب الضعف الى جسم الدولة حتى سقطت في النهاية.

وقد وهب الحاكم بأمر اللّه أمه، قبل موته، خمسمائة الف دينار ذخيرة لها[١]، وعمل من الطعام ما كفى اهل القاهرة ومصر (الفسطاط)، والطارئين من البلاد، ونثر مال عظيم، يوم أخذ الظاهر لاعزاز دين ا للّه البيعة لابنه المستنصر باللّه سنة ٤٢١هـ / ١٠٣٠م، فلم يبق احد لم يصله من خير تلك البيعة[٢]، كما نثر ولي العهد (المستنصر باللّه نفسه في سنة ٤٢٤ هـ/ ١٠٣٣م، في اثناء ركوبه من القاهرة الى مصر (الفسطاط)، على خاصته عشرين ألف دينار وعلى العامة خمسة آلاف دينار، فكان يوما عظيما[٣].

وأمر الخليفة، الآمر بأحكام اللّه، باعداد سماط اقامه لاهل الصوفية، فجيء بألف نصفية من خزائن الكسوات، فُرِقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة، ونثر عليهم صاحب بيت المال، من النافذة التي يطل منها الخليفة، ألف دينار، فتخاطفها الناس وعمل بعضهم على غربلة التراب للتفتيش عمّا يكون قد اختفى في الارض في اثناء المدافعة والاصطدام لالتقاطها[٤].

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/١١٦.

بينما يذكر أبو المحاسن في «النجوم الزاهرة»: ٤/١٨٧ و ١٩٣ ـ ١٩٤، «مبلغ ثلاثمائة الف دينار».

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/١٧٩.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٨٨٩،

(٤) المقريزي، الخطط: ١/٤٨٦.

وذكر ابن ميسر انه لما مات ا لافضل ابن امير الجيوش، بدر الجمالي، كان على قبره أربعمائة وعشرون شخصا من القرّاء والوعّاظ والمنشدين، فأمر الخليفة الآمر بأحكام اللّه، لكل منهم بثمانين دينارا رغم اعتراض أحد رجال حاشيته على المبلغ، فكان جملة ذلك نحو اربعة وثلاثين الف دينار، صرفت من بيت المال[١].

٣ ـ نفقات الجيش والاسطول:

وصلت الجيوش الفاطمية الى مصر بأعداد كبيرة، حتى قيل «لم يطأ مصر بعد جيوش الاسكندر من الجيوش اكثر من جيش المعز لدين اللّه[٢]، فبلغت حوالى مائتي ألف جندي. ويذكر لنا ناصر خسرو ان جيوش المستنصر باللّه كانت بحدود مائتي وخمسة عشر الف من البيادة[٣]وخمسة وثمانين الف من الخيّالة. أما الحرس فبلغ عددهم عشرة آلاف جلبوا من آسيا واوروبا وافريقيا[٤]، وكانت نفقة هذا الجيش كله من مال السلطات، ولكل جندي منه مرتّب شهري على قدر درجته. وتصرف ارزاقهم من الخزامة في وقت واحد بحيث لايرهق وال او واحد من الرعية بمطالبة الجند[٥].

وذكر المقريزي ان مقرر الاتراك في الجيش الفاطمي بلع أربعمائة الف دينار في الشهر[٦]. وتعدّت النفقات على الجيش، الرواتب، لتشمل نفقات

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٦٠.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور: ١/ ٤٦.

(٣) يعد جيش البيادة هذا: ٣٠ ألف نوبي، عشرة آلاف سوري وكردي وتركي، وثلاثين ألف من الأرقاء من وسط افريقيا والباقي من المصريين والمغاربة.

(٤) ناصر خسرو، سفر نامة: ٩٣.

O'Leary: A short history of the Fatimid Khalifate, p.p. 198 - 200.

(٥) ناصر خسرو، سفر نامة: ٩٥.

(٦) المقريزي، الخطط: ١/ ٩٤. =

الطعام واللباس والسلاح وما يبذله الخلفاء للقوّاد في سبيل تشجيعهم في اثنار الحرب او اكتساب تأييدهم وميلهم، وهذا ما فعله الحاكم بأمر الله عندما استمال مقدم جيش ابي ركوة وهو الفضل بن عبد الله بخمسمائة الف دينار وخمسة آلاف ثوب[١].

اما الاسطول الفاطمي، فبلغ عدد سفنه في اواخر الدولة الفاطمية، عشر شواني حربية عليها عشرة آلاف مقاتل[٢]. الا ان المقريزي ذكر ان هذا الاسطول تألف من: خمسين عشاريا وعشرين ديماسا، منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج، ولكل منها رئيس ونواتي لا يبرحون، ينفق عليم من مال «ديوان الجيش»[٣]. كما احتفظ الفاطميون في موانىء الثغور، كصور وعكا وعسقلان بعدد من الشلنديات والمسطحات يعمل عليها خمسة آلاف بحّار، وعشرة قوّاد تزيد نفقاتهم السنوية على ستمائة ألف دينار بمعدل عشرة دنانير للبحّار الواحد في الشهر[٤]. ووصل عدد قطع الاسطول الفاطمي في أوج عظمته الى خمسة وسبعين شينيا، وعشر مسطحات وعشر حمّالات (حاملة جنود وخيل)[٥]، المشاهرة والجرايات المقررة مدة ايام السفر تدفع لهم عن آخرها قبل ان تتأهب السفن للابحار. فقد خرج الحاكم بأمر الله عن المعهود في العطاء والاقطاعات سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م، حين اقطع النواتية الذين يجذفون به في العشاري

= في حين يذكر البراوي «حالة مصر الاقتصادية في عصر الفاطميين»، ٣٦٠ ان الارزاق بلغت ٣٣٦,٠٠٠ دينارا في الشهر.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ٣٣٧.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٩٤.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٤) يستحسن مراجعة «ديوان الجيش» و «ديوان الرواتب» في الصفحات ١٤٠ و ١٤٩ من هذا الكتاب.

(٥) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٨٣.

(نوع من السفن)، كما اقطع ايضا المشاعلية (المكلفون بأعمال الاضاءة)[1].

٤ ـ نفقات الخزائن والأعياد والمواسم:

درج الفاطميون على عادة توزيع الملابس على جميع خدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم من كبير او صغير، رفيع او وضيع، كسوات الصيف والشتاء من العمامة الى السراويل وما دونه من الملابس والمنديل، فكان مقدارها ستمائة الف دينار[2]. كما انتشرت اهراءات الغلال في عدة اماكن من القاهرة، يخزّن فيها ثلاثمائة ألف أدرب[3]، ووجد في خزانة البنود من درق وآلات الحرب وغير ذلك من الفضة والذهب والبنود، ما تبلغ نفقته بين سبعين ألفا وثمانين الفا من الدنانير[4]. . وارتفعت قيمة النفقة على خزانة الشراب ستة آلاف وخمسمائة دينار في السنة، وقيمة ما ينفق على خزانة التوابل سنويا خمسين ألف دينار[5].

أما دار الفطرة فكان مصروفها كل سنة عشرة آلاف دينار على ما يعمل بها بمناسبة «عيد شوال» من كل سنة، وما يلزم ذلك من دقيق وسكر وقلب فستق ولوز وبندق وزبيب وتمر وخل وعسل وسيرج وحطب وسمسم ويانسون وزيت وماء ورد ومسك وكافور وزعفران وثمن مواعين وأجرة وصنّاع وغيرها[6]، في حين يقول المقريزي: «ان

---

(١) ابن سعيد، القسم الخاص بمصر: ٢/ ٦٦.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٠٩.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٨٣.

(٣) المصدر السابق: ١/ ٤٦٥.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٤٢٤.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ٤٢٠.

(٦) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

نفقات دار الفطرة تبلغ سبعة آلاف دينار في السنة»[١].

ويزيد في نفقات الخزائن ما تقوم دار التعبئة بتوزيعه على القصور، ودار الوزارة والمناظر والحمامات وخزانة الكسوة ودار الضيافة وغيرها من الازهار والاثمار بما قيمته ثلاثة آلاف وستمائة وخمسين دينارا في السنة[٢]. وما ينفق على دار العلم مائتين وسبعة وخمسين دينارا في السنة[٣].

وينفق سنويا على مواسم الحج مبالغ كثيرة لحماية الحجاج، واثمان طيب وشمع وكسوة الكعبة واجرة الجمال، وتأمين مياه الشرب وخلافه. فذكر المقريزي[٤] ان ما انفق على قافلة الحج على عهد وزارة القاضي اليازوري مائتي الف دينار، واحتفالات جبر الخليج تصل نفقاتها الى ألفي دينار[٥]، وسماط شهر رمضان ثلاثة آلاف دينار[٦]. وسماط عيدي الفطر والاضحى وثمن الكسوة في عيد الفطر عشرين الف دينار[٧]، وعيد النوروز وخميس العدس خمسمائة دينار[٨]. وفي اول العام حيث يتم توزيع الغرة، تزيد نفقاتها على ثلاثة آلاف دينار[٩].

٥ ـ هبات المساجد والمكتبات وغيرها:

أولى الفاطميون المساجد والمكتبات عنايتهم لاعتبارها مراكز لنشر الدعوة

---

(١) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٢٦.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٢٢.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ٤٥٩.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ٤٥٠.
(٥) المصدر نفسه: ١/ ٤٧٧.
(٦) المصدر نفسه: ١/ ٣٩٨.
(٧) المصدر نفسه: ١/ ٤٣٦ و ٤٥٣.
(٨) المصدر نفسه: ١/ ٤٩٣ و٤٥٠.
(٩) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٥٠.

الفاطمية بين الناس. فتسابق الخلفاء على بناء الجوامع والمساجد وفتح المكتبات الكبيرة واغنائها بمختلف انواع الكتب الدينية والادبية والفلسفية والعلمية والتاريخية واعدادها وفرشها بما يتلاءم والغاية من انشائها.

وبذل الخلفاء للجوامع والمساجد الهبات وأقاموا لها الاحباس (الاوقاف) وفرشوها بمختلف انواع الحصر والسجاجيد، وزينوها بالمصابيح والتنانير الفضية فتلألأت بالأنوار الساطعة، وخصص الزيت اللازم للاضاءة، ورسمت النفقة على القوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم[1].

كانت هذه بعض وجوه الانفاق العامة عند الفاطميين، وكان الطابع الغالب عليها عدم تحديد قيمة الانفاق المخصصة لوجوه عديدة مّما مرّ معنا. فبالنسبة الى الرواتب، اهمل المؤرخون ذكر رواتب العديد من موظفي الدولة، وبالنسبة الى الجيش، لم تذكر رواتب الافراد بصورة واضحة، وكذلك قائد الجيش، ونفقة اعداد الجيش، وتدريبه ومقدار نفقة كسوة افراده وتسليحه. ولم تذكر نفقات حفر الترع وبناء الجسور وشق الطرقات وترميمها وكذلك نفقات البريد والعاملين فيه، ومقدار النفقات على الخدمات الصحية ونوعيتها، وتكاليف بناء القصور والمناظر والمشاهد، وبناء دور العبادة ونفقات المناسبات الدينية وغير الدينية وكلفة ما يخصص على الايتام والارامل والفقراء من الاحباس ونفقة الاحتفالات والاستقبالات للضيوف ونفقة دار الضيافة وما يتبعها.

كانت الدولة الفاطمية تقوم بدفع نفقات جميع وجوه الانفاق من بيت المال الذي يتولى العمل فيه موظّف كبير من الشيوخ العدول الثقات. يطلق عليه اسم «صاحب بيت المال» وأحيانا «متولي بيت المال»، يفوّض اليه الخليفة أمر شراء الاشياء وبيع ما يرى بيعه، وعتق العبيد، وتزويج الإماء

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامة: ١٠٩.

المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٨٣.

(ومفردها الامة) وانشاء ما يحتاج اليه الخليفة من المباني والسفن. وبلغ مرتبه الشهري مائة دينار[١].

وليس أدل على عمله من توقيع المعز لدين الله بيده الى محمد بن الحسين ابن مهذب[٢]، صاحب بيت المال بـ«تقدم يا محمد بابتياع، لنا ولمولاك عبدالله (ابن المعز) في كل يوم من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا وكذا، بسعر الناس، ولا تُعرّف الرسول لئلا تقع محاباة ولا مسامحة، وكذلك حوائج المطبخ»[٣]. فهو لذلك مفوّض في شؤون الخليفة المنزلية الخاصة. وله حق قبول او رفض تسليف الموظفين طالبي القروض[٤].

ولم تكن وظيفة «صاحب بيت المال» مالية فقط، فقد شمل عمله فرض مصلّي الجامع أيام ركوب الخليفة في يومي عيدي الفطر والاضحى والطراحات في المحراب، وتعليق سترين على المحراب، واحد عن اليمين والآخر عن اليسار، لحجب الخليفة عن انظار الناس، ويبقى في عداد من يكونون في خدمة الخليفة في الجامع، وبالايوان الكبير. وقد يتسلّم الوزارة، فالحسين بن طاهر الوزّان، قبل ان يخلع عليه الخليفة الحاكم بأمر الله بالواسطة، كان يتولّى «بيت المال»[٥]، وكذلك «ابن دواس» كان صاحب بيت المال عندما قتل الحاكم بأمر الله بتدبير من اخته، فتولى هو الآخر الوزارة[٦].

---

(١) المقريزي، الخطط: ٢/ ٤٠١.

(٢) كان ابن مهذب صاحب بيت المال على أيام جوهر الصقلي، وهو مغربي، استمر في هذه الوظيفة أيام خلافة المعز لدين الله.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١٣٦.

(٤) المصدر السابق: ١/ ٣٩٦.

(٥) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٣٣٥.

(٦) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٣٣٧.

وحتى تسير الادارة الفاطمية سيرا حسنا وتنتظم دواوينها بدقة، أنشىء ما يسمّى بـ«ديوان التحقيق» (يشبه ديوان المحاسبة اليوم)، فكانت صلاحياته تشمل كافة الدواوين المالية، بالمراقبة والتدقيق والمراجعة لسائر أمورها المالية. وكان لا يتولاه الا كاتب خبير وله الخلع والمرتبة والحاجب، ويلحق بمتولي النظر. ويتقاضى راتبا شهريا مقداره خمسين دينارا[١]. وعندما تولّى ابن أبي الليث هذاالديوان عرض على الافضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي اموالا كثيرة، جمعها، فقال له: «تفرحني بالمال، وتربة أمير الجيوش، ان بلغني ان بئرا معطلة او بلدا خرابا او ارضا بائرة لاضربن عنقك. فقال: وحق نعمتك لقد حاشا الله أيامك ان يكون فيها بلد خراب او بئر معطلة او ارض بور[٢]. واستمر هذا الديوان الى نهاية الدولة الفاطمية ثم بطل.

وأنشأ الفاطميون «ديوان المجلس» (كوزارة المالية اليوم)، للاشراف على دواوين الدولة المالية، من تنظيم الجباية وسائر الايرادات الى آخر النفقات. فتعد الدواوين الفاطمية كاملة بيانات بايراداتها وتقدمه الى هذا الديوان، فيقوم «صاحب ديوان المجلس» باعداد البيان الشامل بمداخيل الدولة ويقدمه الى الوزير او الخليفة ليشطب منه او يزيد عليه ما يراه مناسبا. كما يقوم صاحب ديوان المجلس بتدوين النفقات في عيدي الفطر والاضحى، وفتح الخليج، واسمطة رمضان والمآكل والمشارب، وما يأمر به من جرايات الغلال من الاهراء، وما يأتي من هدايا وما يبعث الخليفة منها من اجل ضبط حساب ما ينفق في ضوء ما يرد لمعرفة الفائض في السنة المقبلة، أو ما يسمّى بـ«الاستيمار السنوي». وكان، صاحب هذا الديوان، المتحدّث بشؤون الاقطاع لدى الخليفة، وهذا ما جعل هذه الصلاحيات تتضارب في

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى : ٣/ ٤٨٩ و٥٢٦.
المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠١.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٩.
المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠١.

شؤون الاقطاع مع صلاحيات «صاحب ديوان الاقطاع».

ويخلع على صاحب ديوان المجلس، وله الدواة من خزانة الخليفة والمرتبة والمسند والحاجب الذي يقف بين يديه، ويعاونه في هذه المهمة «صاحب دفتر المجلس» احد الاساتذة المحنكين، وكلاهما من أجلّ كتّاب الدولة[1]، وكان راتب «صاحب ديوان المجلس» أربعين دينارا شهريا، بينما راتب معاونه «صاحب دفتر المجلس» خمسة وثلاثين دينارا في الشهر[2].

وتداخلت أعمال الدواوين المالية، وتشابكت اختصاصات كل منها بالاخرى، مما أوجب انشاء «ديوان النظر» للفصل بين تلك الدواوين، فهو خلاصتها. فكان لـ«صاحب ديوان النظر» صلاحية عزل وتولية من يرى توليته من موظفي الدواوين المالية. وعليه ان يطلع الخليفة والوزير في اوقات معروفة على شؤون ديوانه، ويحث اصحاب الشأن على طلب الاموال، فينتدب المندوبين (المترسلين) لطلب الحساب. وله الجلوس بالمرتبة والمسند وبين يديه حاجب من امراء الدولة، ودواة بغير كرسي[3].

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٩٤.

المقريزي، الخطط: ١/ ٣٩٧.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٢٦.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٠.

الفصل الرابع

النظم القضائية

أولا: القاضي والقضاء

ثانيا: أعوان القاضي (الشهود)

ثالثا: المظالم

رابعا: المحتسب

خامسا: الشرطة

سادسا: العقوبات والسجون

أولا: القاضي والقضاء:

كان القاضي يختار في صدر الاسلام من بين الاشخاص المشهود لهم بسمة الاطلاع على القرآن الكريم وسنّة الرسول وهو يصدر حكمه بعد الاستماع الى المتخاصمين عملا بقول الرسول للامام علي لما قلده القضاء في اليمن: «اذا حضر خصمان بين يديك، فلا تقضِ لاحدهما حتى تسمع كلام الآخر»[١].

وسار الفاطميون في تفنيد القضاة القضاء على هذا المسار، فمن مرسوم تقليد الحسين بن علي بن النعمان القضاء بمصر، يأمر الخليفة الفاطمي

---

(١) الماوردي، الاحكام السلطانية: ٥٥ (طبعة ١٣٢٨ هـ).

القاضي ان «يجعل كتاب الله عزّ وجلّ، وسنّة النبي محمد، والمأثور عن الامام علي والائمة الفاطميين قبلة لوجهه اليها يتوجه وعليها يكون المتجه... ويوصيه ان يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى... أو يحابي ذا رحم وقربى وولي للدولة او مولى، فالحكم لله ولخليفته في ارضه... وأمره ان يرفع عن المتحاكمين حجابه ويفتح لهم أبوابه، ويحسن لهم انتصابه، ويقسّم بينهم لحظه ولفظه، قسمة لا يحابي فيها قويا لقوته، ولا يزدري فيها ضعيفا لضعفه بل يميل مع الحق، وفي كفته...»[١]. ويقول القلقشندي[٢]: «اذا جلس القاضي للحكم فلا يسلم على الخصوم، ولا هم يسلمون عليه، ولا يقوم لاحد وهو جالس في مجلس القضاء مطلقا مهما سمت منزلة القادم».

لهذا وجب على القاضي ان يحافظ على سيادته وكرامته، يبعث الهيبة في النفوس ويكون محاطا بالاحترام والاجلال، فتصان كرامته، ويبقى رمزا للعدالة بين الناس[٣]. ومن ذلك، ان المعز لدين الله لما قدم الى مصر، استقبله الناس على طبقاتهم، فلما رأوه قبّلوا الارض بين يديه، سوى القاضي أبي الظاهر، فانه كان راكبا، ولما قرب ترجّل وسلّم عليه ولم يقبّل الارض، فالتفت المعز لدين الله الى خواص حجّابه وقال: «من هذا الذي خالف الناس كلهم؟» فقيل: «قاضي مصر (الفسطاط)، وهو من أهل العلم والدين». ثم لامه احد الحجاب سرّا فيما فعل، فرفع صوته وقال جهرا بحيث يسمع المعز: «وما هذا؟ أهو الشمس التي قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها». وقال الله تعالى: (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ١٠/ ٣٨٥ ـ ٣٨٩.

حمادة، الوثائق السياسية والادارية الفاطمية: ١٣٥ ـ ١٣٨.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٧.

(٣) حسن، الدولة الفاطمية: ٣٠٧ ـ ٣٠٨، نقلا عن المقريزي: «المقفى الكبير»، (المخطوط)

للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون)[١]. فأرضاه بذلك، واستحسن قوله، فرجع وهو قاض، وعلت منزلته.

وكان قاضي المعز لدين الله، أبو حنيفة النعمان بن محمد المغربي، موضع احترام الخليفة ومحبته وتقديره، مرهوبا من الجميع ما عداه (الخليفة). فلما مات سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م، صلّى عليه الخليفة وأضجعه بنفسه في التابوت[٢].

وارتفعت منزلة القاضي محمد بن النعمان بن محمد لما تولى القضاء سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م، على عهد العزيز بالله، الذي أجلسه معه يوم العيد على المنبر، بالاضافة الى كونه يجالس الخليفة ويؤاكله ويركب معه ويسايره[٣]، نظرا لعدالته بين الناس.

وكانت استقلالية القاضي وعدله، صنوين يجب المحافظة عليهما في اي وقت واي ظرف كان. فالقاضي احمد بن محمد بن أبي العوام، جاءه الاحزم، «وهو من الرجال المقربين الى الخليفة الحاكم بأمر الله» ورفع اليه فتوى، افتتاحها: «باسم الحاكم الرحمن الرحيم»، ومع ذلك، اوقفه ابن العوام عند حده[٤].

كان القاضي يؤمن احترامه على الجميع، لذا كان برجوان «يعود القاضي محمد بن النعمان «بن محمد» في كل خميس، مع عظمة برجوان. ولما مات هذا القاضي سنة ٣٨٩ هـ/ ٩٩٩م، ركب اليه الخليفة الحاكم بأمر الله وصلّى عليه في داره[٥].

---

(١) القرآن الكريم، الآية ٣٧ من سورة فصلت رقم ٤١.

(٢) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٤٦.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٩.

(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٨٣

(٥)ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٤٦.

كان على القاضي الذي يحافظ على احترامه واستقلاليته وعدله ونزاهته وسيادته وتقدير الناس له، ان يبتعد عن الهزل والمزاح، حتى يسيطر على مجلسه الجد فلا يلام على تصرفاته، كما حدث لاحد القضاة في عهد الحاكم بأمر الله، حيث كان يثبت في قلنسوته قرني ثور لينطح بهما الخصم العنيد من الخصمين[1].

وارتفعت منزلة القاضي ابي محمد الحسن اليازوري، وأمر الا يقوم لاحد اذا دخل عليه ولو عظم قدره. وصار يحضر بحضرة الخليفة المستنصر بالله اذا اراد ان يستدعي الوزير، وهذا الاخير لا يقطع امرا بدون استشارته، حتى صار الخليفة لا يخاطب الوزير الا على لسانه اذا استدعاه ليعرض الوزير على الخليفة ما يراه من أمور الدولة، ولا يكون المجيب له الا القاضي أبو محمد الحسن اليازوري، فإذا اجابه القاضي، التفت الى المستنصر بالله وقال: أليس هذا الصواب؟ فيقول المستنصر بالله، «نعم»، فيشق ذلك على الوزير[2]. وكان اليازوري اذا خرج من عند الخليفة، مشى جميع اهل الدولة في ركابه تقديرا واحتراما[3].

وتبقى كرامة القاضي والقضاء ما دام صاحبها محافظا عليها، واذا لم يحترمها، كان العزل نصيبه. ويحدثنا ابن ميسر[4]: انه لما ولى الخليفة الحافظ لدين الله، رتبة قاضي القضاة للقاضي المعروف بابن الازرق في سنة ٥٢٣ هـ/١١٣٨م، وأضيف اليه التدريس في دار العلم، ومضى اليها، وكان مدرّسها الفقيه أبو الحسن علي بن اسماعيل، فجرت بينهما مجادلات أدّت الى الخصام والتلاكم، وخرج بنتيجتها ابن الازرق الى القصر ماشيا وقد

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور: ١/ ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٢٠٣.

(٣) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ٢٠١، نقلا عن ابن حجر العسقلاني.

(٤) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٨٣ ـ ٨٤.

تمزّقت ثيابه وسقطت عمامته عن رأسه. ولما علم الخليفة بذلك استعظم خروج القاضي ماشيا في الاسواق على تلك الهيئة، فصرفه عن القضاء وغرمه مائتي دينار وألزمه داره.

كان الخليفة هو الذي يعينّ قضاة القضاء، ويبينّ لهم مدى اختصاصهم[1]، ويقلّد على القضاء شخصا واحدا او اكثر للبلد، وله ان يقلدهما معا على ان ينفرد كل منهما بالقضاء[2] وأحيانا ترك حق تعيين القضاء لنائب الخليفة[3]... وقد أقر جوهر الصقلي على قضاء مصر (الفسطاط) القاضي أبا الطاهر، وعبدما استوزر الخلفاء الفاطميون وزراء مفوّضين يسمّون وزراء السيف، وغدت كل شؤون الخلافة بتصرّفهم، وانتقل من تقليد القضاة الى وزراء السيف. فقد عينّ الوزير يعقوب بن كلس، محمد الطرابلسي على قضاء دمياط ويلبيس والفرما وغيرها عوضا عن محمد بن النعمان بن محمد، مع انه لم يكن وزير سيف. كما ولى الافضل ابن امير الجيوش بدر الجمالي القاضي ابا الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي الاسماعيلي ايام الخليفة المستعلي بالله وصرفه في صفر سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، وولى ايضا ابو علي أحمد بن الافضل ابن امير الجيوش بدر الجمالي اربعة قضاة مختلفي المذهب[4].

ويحق للقاضي أن يستخلف عنه في القضاء، القضاة في الاقاليم

---

(١) ابن خلدون، كتاب العبر: ٥/ ٥٥ ـ ٥٦.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩.
السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١٧٤.

(٢) الماوردي، الاحكام السلطانية: ٦٧.
السوطي، حسن المحاضرة: ١/ ١٨٨.

(٣) الماوردي، الاحكام السلطانية: ٦٣.

(٤) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ٢٣٢.

والمدن. فاستخلف القاضي أبو القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان، يحيى الشهاب، وولى أبو محمد الحسن اليازوري ولده محمدا سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م، القضاء نيابة عنه، وأضاف اليه جميع اعمال مصر، كما اضاف الى اخيه جميع اعمال بلاد الشام. وقد استقر امرهما طوال ولاية ابيهما الوزارة[١]. واستخلف الحسين بن علي بن النعمان، أبا عبدالله للحسين بن محمد بن طاهر بمصر (الفسطاط)، ومالك بن سعيد الفارقي بالقاهرة، وعلى العرض والنظر بين المتحاكمين، اذا غاب: الحسين بن ظاهر وأبا العباس أحمد بن محمد بن العوام[٢].

ويبقى القاضي مستقلا في أحكامه من السلطة التي قلدته الاحكام أيا كانت، رائده الحق، وهدفه العدل، وغايته رعاية حقوق الناس.

وكان سجل تقيد القاضي يقرأ في الجامع العتيق، او في جامع احمد بن طولون بمصر (الفسطاط)، وفي جامع القاهرة (الازهر)[٣]. وشمل سجل عمل القاضي، أبي الحسن علي بن النعمان، القضاء بالديار المصرية والشام والحرمين وجميع مملكة العزيز بالله، والخطابة والامامة، والعيار في الذهب والفضة والموازين والمكاييل[٤]. ويضيف الحاكم بأمر الله الى عمل القاضي ابي العباس احمد بن محمد بن ابي العوام على ما تقدم، الصلاة، والنظر في الاحباس على المساجد والجوامع، وارزاق المرتزقة، ووجوه البر، والاستخلاف على الحكم[٥] (ان ينيب عنه في الاقاليم). وأضيفت الوزارة

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/٩١.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٢٣.

(٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/٤١٧ ـ ٤١٩.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٢٣.

(٤) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/٤١٧ ـ ٤١٩.

المقريزي اتعاظ الحنفا: ٢/٢٣.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/١٠٨ ـ ١٠٩.

الى القاضي ابي محمد الحسن اليازوري، فكان اول قاض جمع بينهما[١].
وكثيرا ما جمع القاضي، الدعوة الى القضاء، فيكون داعي الدعاة، وربما فصلوا الواحدة من الاخرى[٢].

وحدّد ابن خلدون اختصاص القاضي[٣]، فقال: «استقر منصب القضاء آخر الامر على أن يجمع مع الفصل في الخصومة، استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين، فينظر في اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين واوقافهم، وتزويج الايامى (مفردها امة) عند فقد اوليائهم، والنظر في مصالح الطرقات والابنية، وتصفح الشهود والامناء والنواب، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح، ويحصل على الوثوق بهم، وصارت هذه كلها من متعلقات وظيفته وتوابع ولايته، وكان الخلفاء يجعلون للقاضي النظر في المظالم».

ولذلك اتسمت دائرة عمل القاضي، فشملت حق النظر في امور عدة جعلت سلطته كبيرة ونفوذه عظيما. وكان القاضي يشارك في مواسم الحج والاعياد الرسمية، اذ عليه ان يمثل في حضرة الخليفة، في المواكب والاعياد الرسمية، قبل كل الناس، فيسمح له صاحب الباب بالدخول دون مرافقيه من الشهود المعروفين، للسلام على الخليفة، بأن يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة ويقول بصوت مسموع: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته». وهذا النوع من السلام يختص بالقاضي فقط[٤].

---

(١) زيدان، التمدن الاسلامي: ١/ ٢٤٢.

(٢) ابن خلدون، كتاب العبر: ٥/ ٦٥.
المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٣.

(٣) ابن خلدون، المقدمة: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٤) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٤٥.
القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٠٠.
المقريزي، الخطط: ١/ ٣٨٦.

وكان على القاضي ان يوقد التنور الفضة بالجامع قبل دخول الخليفة للصلاة، وبعد خروج القاضي منه يرافقه الى بيته والى مصر (الفسطاط) ان كان ساكنا فيها، والا فيرافقه والي القاهرة ان كان ساكنا بالقاهرة. وفي ليلة النصف من رجب[١]، كان على القاضي ان يتوجه بعد صلاته في جامع عمرو، الى جامع القرافة ليصلي فيه[٢]. كما كان من رسوم القاضي في المولد النبوي، وفي مولد الامام علي، عندما يحضر ومعه الشهود الى الجامع الازهر، ان يكون اول من تفرّق عليه الحلوى من ارباب الرسوم[٣]. ويشارك القاضي في الاحتفالات الرسمية المحزنة، كالاحتفال بيوم عاشوراء، حيث يرتدي ثياب الحداد ويركب مع الشهود الى الجامع الازهر.

وقد يقوم القاضي بمهمة حمل رسالة من الخليفة الى احد الملوك، ومن ذلك ما قام به القاضي ابو عبدالله القضاعي، حيث حمل رسالة من الخليفة المستنصر بالله الى القسطنطينية[٤].

وكانت مجالس القضاء تعقد في جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والجامع الازهر، وأحيانا في دار القاضي، فيذكر لنا المقريزي[٥]: «كانت دواوين الحكام في دورهم». وان اول من جعلها في الجامع، كان القاضي ابو العباس احمد بن محمد بن العوام الذي: نقل ديوان الحكم من بيت مالك بن سعيد الى بيت المال بالجامع العتيق، وهو اول من فعل ذلك من القضاة[٦] وعقد الجلسات يومي الاثنين والخميس

---

(١) ليالي الوقود الأربعة: أو رجب، ونصفه، أول شعبان، ونصفه. وليلة النصف من رجب احدى هذه الليالي.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى: ٣/ ٥٠١ ـ ٥٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٥٠٣.

(٤) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٧.

(٥) المقريزي اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٠٩.

(٦) المصدر السابق: ٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩. متز، الحضارة الاسلامية: ١/ ٤١٣.

بالجامع العتيق، والثلاثاء بجامع القاهرة، ولحضور القصر يوم السبت[1].

وكان يخلع على القاضي عند تقليده خلعا من الثياب والخيول تختلف كمّا ونوعا باختلاف المانح والممنوح[2]. فبعد ان يقرأ سجل تقليد القاضي على الناس في المسجد الجامع كما ذكرنا، ينصرف القاضي الى داره بالخلع، فيركب اليه جماعة الشهود والامناء والتجّار ووجوه البلد بحيث لا يتأخر منهم أحد[3]. ويقول السيوطي:[4] «خلعهم (اي القضاة والعلماء) من الصوف بغير طراز، ويكون الصوف في الاصل ابيض وتحته رداء اخضر متسع، فتحته على كتفه، ويلبس غيرهم الفرجية الطويلة الكم». وقد اختار جوهر الصقلي للقاضي عمامة ورداء أخضرين. فقد ذكر المقريزي:[5] «انه في ربيع الاول سنة ٣٧٢ هـ/٩٨٢م، دخل عبدالله بن طاهر الحسيني على جوهر الصقلي بطيلسان كحلي وفي مجلسه القضاة والعلماء والشهود، فأنكر جوهر الطيلسان الكحلي ومدّ يده فشقه، فغضب ابن طاهر وتكلّم، فأمر جوهر بتمزيقه فمزق وجوهر يضحك، وبقي حاسرا بغير رداء، فقام جوهر وأخرج له عمامة ورداء أخضرين».

وخلع الحاكم بأمر الله على القاضي علي بن النعمان ثيابا بيضاء متنوعة ورداء وعمامة مذهبين، ولما قلّد مالك بن سعيد بن مالك الفارقي القضاء، قلّده الخليفة الحاكم بأمر الله نفسه عمامة وطيلسانا مذهبين.

وبقيت مناصب القضاء وراثية في بعض العائلات في العصر الفاطمي،

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/١٠٩.

(٢) ابن خلدون، المقدمة: ٢١٩.

زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين: ١١٤ ـ ١١٢.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة: ١/٩٣ ـ ٩٦.

(٤) المصدر السابق: ٢/٢٧١.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/١٣٢ ـ ١٣٣.

كعائلة النعمان المغربية التي تولى القضاء منها: علي بن النعمان سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٧٣م، عندما عينه المعز لدين الله، ثم خلفه سنة ٣٧٤ هـ/ ٩٨٤م، اخوه محمد بن النعمان، ثم ولي القضاء الحسين بن علي بن النعمان ايام الحاكم بأمر الله الذي ضرب عنقه سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٦م، لاكله اموال يتيم بالباطل. كما ولي ابو القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان الذي قتله الحاكم بأمر الله ايضا سنة ٤٠١هـ/ ١٠١١م، وتولى أبو محمد القاسم بن عبدالعزيز بن النعمان في خلافة الظاهر لاعزاز دين الله، ثم صرف ايام المستنصر بالله سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م[١]. وتوارثت القضاء بمصر أسر أخرى، كأسرة الفارقي[٢]، وأسرة اليازودي[٣]، ولم تتقلد القضاء الاسر الشيعية فقط، فقد توصلت بعض الاسر السنية في العصر الفاطمي الى تقلّد القضاء بمصر كأسرة «العوام»[٤].

وبلغ راتب القاضي مائة دينار شهريا[٥]، عدا ما كان يتقاضاه عن الاعمال الاضافية التي كانت تسند اليه احيانا، كالمظالم وبيت المال والارزاق والجرايات الاخرى حتى قال ناصر خسرو[٦]: «ويتقاضى قاضي القضاة ألفي دينار مغربي في الشهر، ومرتب كل قاض على قدر مرتبته، وذلك حتى لا يطمع القضاة في اموال الناس او يظلمونهم».

---

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/ ٤٤٦ ـ ٤٢٣.
ابن خلدون: كتاب العبر: ٤/ ٥٥ ـ ٥٦.
القلقشندي، صبح الاعشى: ١٠/ ٣٨٥ ـ ٣٨٩.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٢٩٣ و ٢/ ٢٣ و٥٩.

(٢) ابن خلدون، كتاب العبر: ٤/ ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٩١.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٥) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٥٢٦. المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠١.

(٦) ناصر خسرو، سفرنامة: ١٠٩.

ومع هذا، امتدت يدا القاضي حسين بن النعمان لاخذ اموال اليتامى، اذ تقدم احد اليتامى برقعة الى الحاكم بأمر الله يذكر فيها ان اباه توفي وترك له عشرين ألف دينار، وانها مودعة في ديوان القاضي، وقد اخذ منها رزق اوقاف معلومة، وان القاضي حسين بن النعمان عرّفه ان ماله قد نجز: فدعا به وأوقفه الحاكم بأمر الله على الرقعة، فقال كقوله لليتيم من انه (اي اليتيم) قد استوفى ماله من آخره. فأمر الحاكم بأمر الله باحضار كشف بالحساب من ديوان القاضي، فأحضر من ساعته، وتبيّن أن الذي وصل الى الرجل اليتيم اقل ممّا له، وعدد على القاضي حسين ما اقطعه واجرى له الخليفة حتى لا يتعرض الى ما نهاه عنه من هذا وأمثاله. فقال القاضي: «العفو، والتوبة». لكن الحاكم بأمر الله أمر بضرب عنق حسين بن النعمان وحرق جثته بالنار[١].

وظلم عبد الحاكم بن سعيد بن مالك الفارقي الناس وابتز اموالهم، فقد مات في اثناء ولايته على القضاء والمظالم والدعوة والاحباس[٢]، رجل يدعى الزيلعي وترك مالا كثيرا ولم يخلّف الا بنتا واحدة، فطلبها، في من طلبها للزواج، عبد الحاكم نفسه، فرفضته، فحقد عليها وأقام أربعة شهود شهدوا بأنها سفيهة، وبذلك وضع الفارقي يده على اموالها. فرفعت شكواها الى الوزير ابي القاسم الجرجرائي الذي قامت البينة لديه على بطلان حكم القاضي الفارقي، فأحضر مهانا، ووكل به من استعاد منه المال، وذلك بعد ان تصرّف فيه. وألقى الوزير القبض على الشهود وأودعهم السجن[٣].

وكانت تخلع، على القاضي في سجل تقليده، ألقاب كثيرة منها: قاضي

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٥٩.

(٢) تقلد الفارقي القضاء سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م، وصرف عنها سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م.

(٣) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف: كتاب الولاة والقضاة. وبه ذيل مأخوذ معظمه من كتاب رفع الاصر لابن عجر العسقلاني، طبعة جست Gest بيروت ١٩٠٨م: ٦١٣ ـ ٦٣٤.

القضاة، وداعي الدعاة، وأمين الامة، وأمير الامراء، وأمين امير المؤمنين، والموفق في الدين، والاجل المكين، والقاضي الامين، والقاضي الاعز، وثقة المسلمين، وخليل أمير المؤمنين، وذو الرياستين، وشرف الحكام، الخ...[1].

وولي أبو الحسن علي بن النعمان القضاء سنة ٣٦٦هـ/٩٧٩م، على أيام العزيز بالله، فكان اول من نعت بـ«قاضي القضاة» في مصر[2]. كما لقّب بهذا اللقب، القاضي حسين بن النعمان ايام الحاكم بأمر الله[3]. ولقب القاضي أبو محمد القاسم بن عبد العزيز بن النعمان سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م، ايام الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بـ«قاضي القضاة»، وداعي الدعاة وثقة الدولة، وأمير الامراء، وشرف الحكام[4]. كما اطلق على القاضي ابو محمد الحسن اليازوري سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م، لقب «قاضي القضاة، وداعي الدعاة، والاجل المكين، وعمدة الدين، وأمين امير المؤمنين، والناصر لدين الله، وسيد الوزراء، وجلال الملك، وصوابه، وخطير الملك، وذي الرياستين»[5].

وكانت الشكاوى تقدم على رقاع يكتب عليها اسم المدعي واسم أبيه، وتسلم الى كاتب القاضي قبل انعقاد الجلسة، فيعمد الكاتب الى فرز هذه الرقاع، ويكتب على ظهر الصحائف خصومة، فلان بن فلان... في شهر

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٣٥ و ٧٠ و٨٤.
السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٩١ ـ ٩٣.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١٤٢.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٤٠ ـ ٤١.

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٣.
السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ٩١.

(٥) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ١٩.
المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

كذا، في سنة كذا، ويحمله في قمطره»[1] ويجلس القاضي للحكم في الجامع على طراحة ومسند حرير، فلا يسلم على الخضوم، ولا هم يسلمون، ولا يقف لاحد في مجلس القضاء مطلقا مهما سمت منزلة القادم[2]. ويجلس الشهود حواليه يمنة ويسرة على مراتبهم في تقدم تعديلهم، وببابه خمسة حجاب، وتوضع امام القاضي دواة على كرسي، وهي محلاة بالفضة، تحمل اليه من خزائن القصور[3].

ويجلس المتخاصمون صفا واحدا متساوين[4]. وتبدأ المحاكمات علنية بحسب المراتب، واذا تساوى اكثر من واحد في المرتبة، يقدم الى الحضور من اختارته القرعة، الا اذا كان هناك ما يمنع ذلك. كما روعيت علنية الجلسات. ولو كان احد المتخاصمين الخليفة نفسه، ففي سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م، تقدم تاجر فاكهة برقعة الى القاضي خاصم فيها الخليفة الحاكم بأمر الله لاعطائه امرا لاحد عماله بابادة فاكهته، مطالبا الخليفة بتعويض قدره الف قطعة من الذهب، فعامل القاضي الخليفة معاملة المدعى عليه وواجهه بالتهمة، فلم ينكرها، وصرّح للقاضي انه انما فعل ذلك خوفا من ان يستعمل فاكهته تلك لصناعة الخمر، ووعد بدفع مبلغ التعويض المطلوب وان حلف خصمه بأن فاكهته ستستعمل للأكل فقط، فحلف التاجر وقبض التعويض من الخليفة[5].

---

(١) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٧.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٣.

متز، الحضارة الاسلامية: ٢/ ٤١٥.

(٤) متز، الحضارة الاسلامية: ٢/ ٤١٥.

(٥) O'Leary: A short history of the Fatimid khalifate p.105.

ثانيا ـ أعوان القاضي (الشهود):

ويساعد القاضي، كما ذكرنا، خمسة حجاب، اثنان بين يديه، واثنان على باب المقصورة، يستدعون الخصوم الذين طلب القاضي استدعاءهم للمثول أمامه، واخراج من يأمر باخراجهم، وخامس ينفذ الخصوم[1]. فالحاجب بالتالي هو المسؤول عن حفظ النظام، ومنع المزاحمة أمام الباب، وعدم افساح المجال للزائرين بالدخول الا باذن منه، حتى ولو كانوا من أصحاب القضايا. فلذلك وجب ان يكون الحاجب من الصلاّح وأهل التقوى حتى يعامل الناس بالرفق واللين، بدون محاباة بينهم، ولو كانوا من اصحاب الرتب العالية[2].

وتستخلص الشروط الواجبة في اعوان القاضي من الشهود، من سجل تقليد القضاء للحسين بن علي بن النعمان، ايام الحاكم بأمر الله، وهي التالية[3]:

١ ـ التحرّي عن أحوال الشهود للتعرّف على دخائلهم تعرّفا كافيا على الجلي والخفي من أمورهم.

٢ ـ الابقاء على من وجد فيه: عدلا وامانة ونزاهة وصيانة وصدقا، يشهد بالحق على الشيعة الحسنى والطريقة المثلى.

فمن وجده تنطبق عليه هذه الشروط ابقاه والا رفضه. وفي الحالتين، كان عليه ان يطلع الخليفة على كل ما يفعله.

ومن أجل التحرّي عن الشاهد، كان القاضي يتنكر ليلا بوضع عطاء

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٢/ ٤٨٧.

(٢) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ٢٠٦.

(٣) انظر نص السجل في :

مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ٢٨٧.

القلقشندي، صبح الاعشى: ١٠/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨.

على رأسه، ويسير في الطرقات سائلا عن الشهود[١]، ويستمر السؤال عنهم لفترة تصل الى ستة اشهر[٢]. ولما كان عمل القاضي لا يسمح له بهذا الوقت، فقد يفوّض شخصا يسمّى «صاحب المسائل» يسأل عن الشهود للوقوف على حقيقتهم، ومع هذا كان صاحب المسائل يرتشي أحيانا منهم ليقرّرهم شهود عدل لدى القاضي[٣]. لكن يبدو ان قاعدة السؤال من قبل صاحب المسائل عن الشهود لم تراع في الخلافة الفاطمية، انما مارسها القاضي بنفسه، ولم يقرّر عدل شاهد الا بتزكية عشرين شاهدا، عشرة من مصر (الفسطاط) وعشرة من القاهرة. بالاضافة الى موافقة الخليفة[٤].

وكان الشهود يعزلون بعزل القاضي او بموته، فلما أسقط القاضي، ابن أبي العوام سنة ٤٠٩هـ/١٠٩٨م، جماعة منهم، تظلّموا للحاكم بأمر الله فقال لهم: «الذي عدلكم هو الذي اسقطكم»[٥]، وكان عدد الشهود يزيد او ينقص حسب الظروف حتى صاروا نحو الثلاثين[٦]. وذلك تبعا لارادة الخليفة او القاضي، فمثلا نجد الحاكم بأمر الله يكثر من الشهود بتعيينه في الشرطة، وفي كل بلد شاهدين من العدول، ويأمر بالا يقام على ذي جريرة ومرتكبها حدّا الا بعد ان يصبح عند ذينك الشاهدين من العدول، انه مستوجب للحد[٧]. ويمهد للشهود مهمة غير مهمة اداء الشهادة، ومراجعة

---

(١) الكندي، كتاب الولاة القضاة: ٤٣٧.

متز، الحضارة الاسلامية: ١/ ٤٢١.

(٢) الكندي، كتاب الولاة والقضاة: ٤٢٢.

(٣) المصدر السابق: ٣٨٥.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٤.

(٥) الكندي، كتاب الولاة والقضاة: ٦١٢.

(٦) المصدر السابق: ٤٣٢.

(٧) المصدر نفسه: ٥٩٦.

متز، الحضارة الاسلامية: ١/ ٢٨٧.

السجلات والعقود للتحقق من صحتها، ومطابقتها للشرع، وتزكية الشهود الذين يشهدون عند القاضي، فعهد اليهم بأمور تتطلّب الامانة والذمة. فقد انفذ الحاكم بأمر الله الشهود في سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م، الى الجيزة لقطع ما فيها من الكروم ورميه على الارض بعدما نهى عن الزبيب قليله وكثيره. ومع ما فيها من جرار العسل (خمسة آلاف جرّة) ، التي حملت الى شاطىء النيل وكسرت وقلبت في مياه النيل[١].

ويقول ابن خلدون[٢]، عن وظيفة شهادة العدل أنها: «وظيفة دينية تابعة للقضاء، ومن مواد تصريفه، وحقيقة هذه الوظيفة، القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم، وحملا عند الاشهاد وأداء عند التنازع وكتبا في السجلات، تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم. وشرط الوظيفة، الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها، ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها، فيحتاج الى ما يتعلق بذلك من الفقه. ولاجل هذه الشروط، وما يحتاج اليه من المران على ذلك والممارسة له، اختص ذلك ببعض العدول، وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وانما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة. وان لا يهمل ذلك لما يتعيّن عليه من حفظ حقوق الناس، فالعهدة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه. واذا تعيّن هؤلاء لهذه الوظيفة عمّت الفائدة في تعيين من تخفى عدالته على القضاة بسبب اتساع الامصار واشتباه الاحوال، واضطرار القضاة الى الفصل بين المتنازعين بالبيانات الموثوقة، فيعولون غالبا في الوثوق بها على هذا الصنف ولهم في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم اصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده، بالكتاب».

---

(١) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/٢٩٣.

(٢) ابن خلدون، المقدمة: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

ويلزم القضاة الشهود احيانا بأن يركبوا معهم[1]، ويجلسون في المحاكمات حول القاضي يمنة ويسرة بحسب القدم في التعديل لا السن، ليشاهدوا ما يجري من احكامه. فالشاب المتقدّم في التعديل يجلس اعلى من الشيخ المتجدد في التعديل[2]، اذ هناك سجل تدوّن فيه اسماؤهم وبروتوكول جلوسهم مع القاضي. ويلبس العدول المناديل الطبقيات والاحناك تحت حلوقهم[3].

ولما كان قيام الدولة الفاطمية يرتكز على نشر مذهبها والدعاية له، فقد ألزم القاضي على اصدار احكامه وفقا لاصول المذهب الشيعي الذي ساد في ظل الفاطميين وبدأ التحوّل في القضاء من السنة الى الشيعة عندما اشرك المعز لدين الله، أبا الحسن علي بن النعمان، مع أبي الظاهر محمد بن أحمد ابن عبدالله بن صالح بن أسامة الذهلي قاضي مصر، في الحكم (القضاء)، ثم انفرد ابن النعمان في الحكم الى سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م[4].

وسبق ان قلّد المعز لدين الله أبا سعيد عبدالله بن أبي شوبان، الذي صحبه من المغرب الى مصر، النظر في المظالم الخاصة بالمغاربة سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م، ثم آل اليه النظر في جميع القضايا التي تختص بالمغاربة وعلاقتهم مع غيرهم وقضايا المصريين أيضا[5]. كما ان جوهر الصقلي ابقى على القضاء لابي طاهر محمد بن أحمد بن اسامة الذهلي، رغم ما عرف عنه من اشراكه للمغاربة الشيعة مع المصريين السنّة بحيث «لم يدع عملا الا وجعل فيه

---

(١) الكندي، كتاب الولاة والقضاة: ٥٤٥.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٧.

(٣) المصدر السابق: ٣/ ٤٩٠.

(٤) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٤٧.

ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/ ٤١٧.

السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١٤٧.

(٥) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٤٤.

مغربيا شريكا لمن فيه»[1]. وذلك حتى لا يثير الحساسيات المذهبية كما ذكرنا، فتتذمّر السنّة وتسخط.

وظل القضاء شيعيا اسماعليا الى سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م، يوم أقدم الحاكم بأمر الله على تقليد القضاء الى ابي العباس أحمد بن عبدالله بن العوام السنّي المذهب الذي قرىء سجله في الجامع من على المنبر، وفيه «فقلدك أمير المؤمنين القضاة والصلاة والمخاطبة بحضرته والحكم فيما وراء حجابه من القاهرة المعزية ومصر (الفسطاط) وأعمالها والاسكندرية والحرمين وبرقة والمغرب وصقلية (باستثناء فلسطين) مع الاشراف على دور الضرب بهذه الاعمال، والنظر في أحباس الجوامع والمساجد، وارزاق المرتزقة، ووجوه البر، وتستخلف على الحكم[2].

ولما كان هذا القاضي سنيّا فقد وردت في سجله، كما يقول حسن ابراهيم حسن[3] «فقرة شرط فيها عليه ان يصدر احكامه طبقا لاحكام المذهب الشيعي، وان يكون معه في مجلس القضاء، اربعة من القضاة الشيعيين، يعيّنهم الخليفة».

وفي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، عزل صلاح الدين قضاة مصر الشيعة، وولى منصب قاضي القضاة فيها، صدر الدين عبدالملك بن درباس الماراني الشافعي، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية، وبذلك عاد القضاء في مصر الى السنّة[4].

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١٩٩.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣) حسن، الدولة الفاطمية: ٣١١.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٦٣.

ثالثا ـ المظالم:

يشبّه قضاء المظالم الى حد ما يسمى بـ«محكمة الاستئناف» عندنا اليوم. والغرض منه، الاستماع الى ظلامات الناس من القضاة او غيرهم لرفع الظلم الذي لحق بهم، ولذلك قال القلقشندي[١]: «لا يتولاه (قضاء المظالم) الا ذوو الاقدار الجليلة والاخطار الحفيلة».

وكانت الجلسات تعقد برئاسة الخليفة نفسه، او من يكلفه، من الوزراء والولاة والامراء والقضاة، لان من شروط الناظر فيها «ان يكون جليل القدر، نافذ الامر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع لانه يحتاج في نظرة الى سطوة الحماة وثبت القضاة فيحتاج الى الجمع بين صفات الفريقين، وان يكون بجلالة القدر نافذ الامر في الجهتين»[٢]. وكانت تقدم الظلامات مكتوبة على قصص الى «صاحب ديوان المظالم» الذي يجمعها في ملف خاص يعرضه على الخليفة كل اسبوع[٣]، فتصدر بها الاحكام مكتوبة ايضا عن قصر الخلافة في يوم او اكثر من الاسبوع[٤].

عرف المصريون من نظر في مظالمهم منذ ايام احمد بن طولون لما استقل بمصر سنة ٢٥٧هـ/٨٦٨م، واستمر النظر في المظالم على أيام الاخشيديين مستقلا بها قاض خاص[٥]. وقد يجلس لها كافور الاخشيدي بنفسه في يوم

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٢٧٧.

(٢) الماوردي، الاحكام السلطانية: ٦٤.

ابن خلدون، المقدمة: ٢٢٢ وما بعدها.

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٢٧٨.

المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٠٧.

(٣) متز، الحضارة الاسلامية: ١/ ٤٣٠.

(٤) الماوردي، الاحكام السلطانية: ١٤٣.

المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٠٢.

(٥) الكندي، كتاب الولاة والقضاة: ٥٨٢.

سبت بحضور الوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات والقضاة والفقهاء والشهود وغيرهم[1].

واهتم الفاطميون فيما بعد بأمر المظالم، فجلس قائدهم جوهر الصقلي للنظر فيها كل يوم سبت[2]، بحضور الوزير ابن الفرات والقاضي وكبار الفقهاء، وأصدر أحكامه بنفسه[3]، وترك النظر فيه احيانا الى أبي عيسى مرشد[4]. أما الخلفاء الفاطميون فقد تولوها أحيانا بأنفسهم وقلدوها أحيانا للقضاة او الوزراء او الامراء في الدور السياسي الاول وتولاها في الدور الثاني وزراء السيف او من ناب عنهم.

وكان أول من نظر في المظالم «أبو سعيد عبدالله بن أبي ثوبان» الذي صحب المعز لدين الله الى مصر، حيث قلّده النظر في المظالم الخاصة بالمغاربة، ثم توسعت سلطته لتشمل المصريين أيضا. كذلك وليها يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن، فجلسا في جامع ابن طولون للنظر في المظالم[5]، ثم قلّد النظر في الظلامات ابو محمد الحسن بن عمّار[6] ثم أعفي منه، وكلف القائد الفضل بن الصالح بالجلوس

---

(١) المصدر السابق: ٥٧٧.

المقريزي، الخطط: ١/ ٣٢٧.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٨٥ و٩٥.

(٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/ ٣٧٩.

المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٠٧.

(٤) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١/ ٣٧٩.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٨٦ و٩٥.

(٥) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٢/ ٤٤.

(٦) ابن خلدون، كتاب العبر: ٤/ ٥٥.

السيوطي، حسن المحاضرة: ٢/ ١١٦.

لذلك، فجلس سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م، بالقصر ومعه القاضي محمد بن النعمان[١].

وعندما يجلس الوزير «صاحب السيف» للنظر في المظالم، يجلس امامه قاضي القضاة وبجانبه شاهدان معتبران، وبجانب الوزير يجلس «الموقع بالقلم الدقيق» ليوقع بما يأمر به في المظالم، ويليه «صاحب ديوان المال» وبين يديه «صاحب الباب» و «اسفهسلار العساكر» وغيرهم من الموظفين، وبين أيديهما النواب والحجاب على اختلاف طبقاتهم ليومين في الاسبوع. وتحال قصص الظلامات على الوزير بعد ان يوقع الخليفة على كل منها بخطه: «يعتمد ذلك ان شاء الله»، ويوقع على الجانب الايمن منها ويخط خطه «وزيرنا السيد الاجل (هنا يذكر لقبه المعروف به) متّعنا الله تعالى ببقائه، يتقدم بنجاز ذلك ان شاء الله تعالى». وبوصولها اليه (الوزير) يكتب تحت خط الخليفة «يمتثل امر مولانا امير المؤمنين صلوات الله عليه، ويثبت في الدواوين»[٢].

ومن حسنات الفاطميين تخصيصهم موضعا في دار الخلافة يعرف بالسقيفة، يقف عنده المتظلمون، فيأتي المتظلم ويقف تحت السقيفة، ويصرخ بصوت عال: «لا اله الا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله»، فيسمعه الخليفة الذي يكون جالسا هناك كل ليلة، ويأمر باحضاره اليه او يفوّض امره الى الوزير او القاضي او احد عظماء الدولة[٣]. ومن ذلك، حضر «ضامن المعدية» الى السقيفة، وصرخ بصوت عال: «لا اله الله، محمد رسول الله، علي ولي الله»، حتى سمعه الحافظ لدين الله، فأمر باحضاره،

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٢٧٧.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٩١ ـ ٤٩٢ و ٥٢٩ ـ ٥٣٠.

المقريزي، الخطط: ٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨ب.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٠٥.

مبارك الخطط التوفيقية: ٢/ ١٧.

واستمع الى ظلامته، ولما ثبت للخليفة اجرام النصراني، وانه كان السبب في بيع معدية الشاكي بعد اهانته وضربه بالمقارع لدفع خراج أرض اللجام زوراً وهي ليست له لان ضامن المعدية لم يشأ ان يَعدَه حسبة لوجه الله، عاقب الخليفة النصراني[1].

ويجري تنفيذ الحكم في الظلامات على المعتدي مهما عظم خطره وعلت منزلته، احقاقا للحق واعلاء لشأن العدل[2]، من أجل ذلك، كانت جلسات المظالم تنعقد في المسجد بحضور خمس جماعات لا يُستغنى عنهم ولا ينتظم عقد الجلسات بدونهم:

الجماعة الاولى: الحماة والاعوان، للتغلّب على كل من تسول له نفسه الالتجاء الى القوة والعنف او الفرار من امام القضاء.

الجماعة الثانية: الحكام، ليردّوا الحقوق الى اصحابها بعد الاحاطة بما يجري بين الخصوم وما يصدر من الاحكام، وقد استفادوا من حضورها لوقوفهم على كثير من المبادىء.

الجماعة الثالثة: الفقهاء، ليرجع اليهم عندما تشكّل على صاحب المظالم مسألة من المسائل الشرعية.

الجماعة الرابعة: الكتّاب، لتدوين ما يحصل في اثناء الجلسة من أقوال الخصوم، وما لهم وما عليهم من الحقوق.

الشهود، الذين يشهدون بأن ما أصدره القاضي من الاحكام لا ينافي الحق والعدل، وأنه ينطبق على الشريعة الاسلامية ومهمتهم اثبات ما يعرفون عن الخصوم، وكانوا يختارون ممّن بزّوا غيرهم في الفقه واشتهروا بالسمعة

---

(١) المقريزي، الخطط: ٢/٢٤٩.

(٢) الماوردي، الاحكام السلطانية: ٦٧ ـ ٧٠.

الطيبة. وبعد استشارة كبار رجال الدولة الجالسين معه يصدر قاضي المظالم حكمه في النزاع المعروض عليه[1].

رابعا ـ المحتسب:

تعتبر وظيفة الحسبة في الاسلام من الوظائف الدينية المهمة، لانها أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وغرضها الاصلاح بين الناس، لذلك وجب ان يكون متوليا فقهيا عارفا بأحكام الشريعة، عفيفا من أموال الناس، ومن ذوي الاخلاق الحميدة والصفات الحسنة. فروعي على ايام الفاطميين في اختياره: التقوى والصلاح، وحسن الايمان، على ان يكون «مسلما حرجا بالغا عاقلا، عدلا، قادرا، شيمته الرفق ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الاخلاق «مع التأنق في المظهر والهندام، كـ«قص الشارب، وتقليم الاظافر، ونظافة الثياب وتقصيرها، والتعطّر بالمسك»[2].

وكان المحتسب سنّيا، اول عهد الفاطميين بمصر (الفسطاط)، فأقاله جوهر الصقلي، وعينّ مكانه رجلا من المغاربة سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م، هو سليمان بن عزة[3]، وجعل ديوان المحتسب متصلا بديوان القاضي، يجلس في جامعي عمرو بن العاص بمصر (الفسطاط)، والازهر بالقاهرة[4]. وتولى الخلفاء الحسبة بأنفسهم كالحاكم بأمر الله[5]، وتولاّها احيانا الوزراء

---

(١) الكندي، كتاب الولاة والقضاة: ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

الماوردي، الاحكام السلطانية: ٦٧.

(٢) ابن الاخوة، محمد بن محمد بن احمد القرشي: معالم القربة في احكام الحسبة، ١/٢ تحقيق محمد محمود شعبان وصديق احمد عيسى المطيعي، (الهيئة العامة للكتاب) طبعة ١٩٧٧م. ٥١ ـ ٦٠.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/١١٧.

(٤) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/٤٨٧.

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/٩٧.

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة: ١/٦٠٢.

كيعقوب بن كلس سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م،[١] وأحيانا اخرى تولاها متولي الشرطة بمصر ـ القاهرة[٢]، كما اسندت الى القضاة اكثر ايام الدولة الفاطمية بمصر. واعطيت الحسبة، على عهد العزيز بالله، الى الوبرة النصراني ضمانا مع السواحل[٣].

وحتى يشرف المحتسب اشرافا كاملا على ما يقع ضمن اختصاصاته، فقد اتخذ لكل صنعة عريفا ممن اشتهر بالتقوى والصلاح، خبيرا بصنائعهم، بصيرا بغشهم وتدليسهم، مشهورا بالثقة والامانة يخبره عن سلعهم وبضائعهم، ومبلغ جودتها ورداءتها واسعار اثمانها. ليقف على كل صغيرة وكبيرة فيها[٤]، لكن هذا الاختيار للعرفاء او النقباء، لم يمنع من وصول اصحاب الاخلاق السيئة الى مركز الحسبة، فيحدثنا المقريزي[٥]: «ان عريفا للخبازين حنق على خباز كان يبيع الخبز بأسعار اقل مّما يبيع بها العريف، فأوكل اثنين من المعاونين في الحسبة غرماه بعشرة دراهم ظلما، فاستغاث الخبّاز بقاضي القضاة في اثناء مروره من هناك، فأحضر المحتسب، وأنكر عليه ما فعله العريف بالخبّاز. فذكر المحتسب، ان العادة جرت باستخدام عرفاء في الاسواق على أرباب الصنائع، وانه يقبل قولهم فيما يذكرونه. فأحضر قاضي القضاة عريف الخبّازين الذي تسبب في هذا الضرر، وصرفه عن العرافة، بعد أن عوّض المجني عليه نقودا...».

وكان المحتسب يقيم عنه نوّابا في القاهرة ومصر وسائر الاقاليم[٦]

---

(١) المقريزي، الخطط: ٢/ ٥.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى: ٥/ ٤٥٢.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٢٧٧

(٤) ابن الاخوة، معالم القربة في الحكام الحسبة: ٣٣٨. المقريزي، اغاثة الامة: ٥٣.

(٥) المقريزي، اغاثة الامة: ٥٣ ـ ٥٥.

(٦) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٧.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

لينوبوا عنه فيما يعرض لهم من أعمال، فيختارهم من اصحاب «العفة والصيانة والنهضة والشهامة» لانهم عيونه التي بها يتمكن من معرفة الاخبار، وأحوال السوق، وكان له ان يؤدبهم ان اخطؤوا[١]. ويذكر الماوردي[٢]، بأن اعمال المحتسب كانت متعددة ومختلفة، فكان ينظر في الاسواق، مراقبا صحة المكاييل والموازين، وتأمين النظافة والصحة العامة، والمحافظة على الآداب العامة.

وكان المحتسب يتفقد من وقت لآخر المكاييل والموازين ليمنع الغش ويحذر اصحابه منذرا اياهم بالعقوبة، متأكدا من عيار الصنج ونظافة الموازين، حتى اذا وجد بها قذارة، أمر صاحبها بمسحها وتنظيفها ودهنها اذا لزم الامر خوفا من ان يجمد فيها شيء فيضر الميزان من ناحية امانته ودقته وصحته، ولهذا كان المحتسب او نائبه يحضر الى دار العيار ليعيّر الموازين والمكاييل والصنج والمعمولة فيها بحضوره، فان كانت مضبوطة، أجاز العمل بها، والا امر باعادة صنعها لتصبح مضبوطة، لان الصنج والموازين والمكاييل لا تباع الا في هذه الدار[٣]. وأنيط بالمحتسب تأمين النظافة العامة في الاسواق، فعليه ان يأمر اهل الاسواق بكنسها وتنظيفها من الاوساخ، ويمنع «ارسال الماء من المزاريب المخرجة من الحائط الى الطرق الضيّقة. فان ذلك ينجس الثياب، ويضيّق الطرق» وأن يمنع «ترك مياه المطر والاوحال في الطرق من غير كسح» أو «رش الماء في الطرق بحيث يخشى من التزلق (الانزلاق) «والسقوط»[٤]، وكذلك تسهيل مرور الناس على الطرقات، بمنع احتشاد الحمالين في وسط الطريق، وازالة ما يعوق المرور من مصاطب زائدة،

---

(١) ابن الاخوة: معالم القربة في احكام الحسبة: ٣٢٠ ـ ٣٢٣.

(٢) الماوردي، الاحكام السلطانية: ٢٢٧ ـ ٢٣٠.

(٣) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٦٤.

(٤) ابن الاخوة، معالم القرية من أحكام الحسبة: ١٣٥ ـ ١٣٦.

وخلافه، والزام اصحاب المنازل المتداعية بازالتها[1]، لما قد يتوقع من ضررها على المتجوّلين من الناس.

ومن مهام المحتسب مراقبة عملية صنع الرغيف، فيطلب الى العجّانين استعمال اوعية للماء، نظيفة وذات غطاء، وغسل المعاجين قبل استعمالها، وان يكون العجّان اثناء عمله ملثّماً حتى اذا عطس او تكلّم لا ينزل شيء من بصاقه، او مخاطه في العجين، وان يشدّ عصابة فوق جبينه تمنع تساقط العرق منه، ويحلق شعر ذراعيه حتى لا يسقط منه شيء في العجين، وعلى ان ينخل العجّان الطحين قبل عجنه، ويكلف شخصا آخر يطرد عنه الذباب بمذبة يمسكها بيده. ويطلب من الفرانين اصلاح المداخن وتنظيف بلاط الفرن، بالكنس من بقايا الخبز المحترق، والشرر المتطاير، والرماد المتناثر حتى لا يلصق بالخبز الجديد منها شيء. وأن يكتسوا بيت النار في كل تعميرة[2].

ويأمر المحتسب الجزارين بعدم ذبح الحوامل من البقر[3]، وأن توضع ذيول المعيز (الماعز) معلقة فوق لحومها حتى يعرف الناس نوع اللحم الذي يشترونه، وعلى الجزارين ذبح الحيوانات في المذابح (المسلخ) لا على ابواب دكاكينهم لئلا تتلوث الطريق بالدم والزيل.

ويتفقد المحتسب تحضير الاطعمة في المطاعم، فيطلب حفظ المواعين نظيفة وعدم الغش، فعلى الشوائين الا يشووا الا «البهائم اللطاف، البلدية السمان الجذعان في السن»، وان يغطوها بابلوجة (جرة)[4]، والنقانقيين (صانعي المقانق والسجق) ان يدقوا اللحم على القرم النظيفة (جزء من جذع

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين: ٢٦ (طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ/).

(٢) ابن الاخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة: ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٣) المصدر السابق: ١٦١ ـ ١٧١.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٨.

شجرة)، ويكون بجانب من يدقها رجل بيده مذبة لطرد الذباب عنها، وعدم غشها بلحوم الماعز او الابل او غيرها[١].

وهو يمنع الكبوديين[٢] من خلط كبود المعيز او البقر بكبود الضأن، ومن خلط البائت مع الطري (الغض او الطازج). فاذا بات عند احد منهم شيء، عرضه عليه في الصباح ليراه ويأذن له ببيعه وحده. ويأمر المحتسب الطباخين «بتغطية اوانيهم وحفظها من الضباب، والا يخلطوا لحوم الماعز بلحوم الضأن، ولا لحوم الابل بلحوم البقر»[٣]. وكان يأمر قلائي الزلابية بقليها في اناء من النحاس الاحمر الجيد وذلك بعد تخميرها بزيت السيرج لا الحلو[٤].

ويطلب من الحلوانيين ان تكون الحلوى تامة النضج، غير نيئة ولا محترقة، وان يمنع عنها الذباب بالمذبة[٥]، كما يلزم الشرابيين ان يستعملوا الماء النظيف وان يستعملوا المذبة دوما، ويلزموا بغسل مواعينهم في كل يوم وتغطيتها[٦]. وكذلك اللبانين عليهم ان لا يغشوا اللبن، وان يغسلوا القصارى المواعين جيدا قبل استعمالها[٧].

ويذكر المحتسب البائعين بعدم خلط البضاعة الرديئة بالجيدة، و«ألا يستعملوا لمسح اوعيتهم الا الخرق الطاهرة النظيفة» و «ان تكون المذبة في ايديهم يذبون بها على البضاعة طول النهار»، وكان يأمرهم بنظافة أثوابهم،

---

(١) ابن الاخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة: ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) الكبوديين: بائعي الكبود، ومفردها الكبد (أكباد).

(٣) ابن الاخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة: ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٤) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٥) المصدر نفسه: ١٨١ ـ ١٨٤.

(٦) المصدر نفسه: ١٨٥ ـ ١٩٨.

(٧) المصدر نفسه: ٢١٠.

وغسل أيديهم وآنيتهم ومسح موازينهم ومكاييلهم[١]، كما يأمر الزبالين بألاّ يمسوا الخبز او شيئا من المأكولات بأيديهم وهي قذرة حتى يغسلوها غسلا جيدا[٢]، وكان يأمر السقائين وأصحاب الروايا والقرب بالدخول في البحر (النيل) ليبعدوا عن مواضع الاوساخ[٣].

وكان المحتسب في ايام الدولة الفاطمية، المحافظ على الآداب العامة، بمنعه الناس من التطلّع على جيرانهم من النوافذ والابواب او من على السطوح، كما يمنع الرجال والنساء ان يجلسوا على ابواب بيوتهم او امامها للتحرّش بالجنس الآخر في اثناء المرور. ويفتقد المحتسب الحمامات في كل يوم ليمنع المستحمين من الظهور بدون مئزر، وهو يمنع اختلاط الرجال والنساء حتى في مجالس المواعظ، بالفصل بينهم بستارة، وعند الخروج، يخرج الرجال من باب والنساء من آخر، منعا للتلاقي والتحادث، وقد يطلب المحتسب الى معلمي السباحة وجوب التحلّي بأخلاق حسنة بـ «تحذيرهم من التغرير بأولاد الناس» فمن فعل من ذلك كله شيئا عزّره[٤].

ومن أعمال المحتسب، محاربة الاحتكار لمنع الغلاء في الاسواق، ولا سيّما المواد الغذائية، فقد حدثت ازمات اقتصادية متعددة، هزّت البلاد، حتى ارتفعت الاسعار بشكل جنوني، وقلّت الاقوات ممّا جعل الناس يأكلون القطط والكلاب، وحتى أكل بعضهم بعضاً، ففشت الامراض، وكثر عدد الموتى حتى عجز معه الناس عن تكفين موتاهم ودفنهم، فكانت تطرح جثة من مات منهم في النيل[٥]، لذلك، تدخل المحتسب في الاسواق بتسعيره

---

(١) ابن الاخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة: ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ٣٤٧

(٤) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٦٤.

(٥) المقريزي، اغاثة الامة: ٤٩ ـ ٦٠.

المواد الغذائية والسلع الضرورية، واللجوء الى ضرب الطحانين والخبازين بالسياط احيانا وتشهيرهم ومصادرة الغلال وطرحها في الاسواق والسعر الرسمي المعلن بعد ان تفرّق الدولة كمية كبيرة من الحبوب التي تختزنها لمثل هذه المناسبات في الاهراءات على الطحانين، والاشراف على بيع المصادر في مكان واحد وبالسعر الواحد لمنع التلاعب بالاسعار من قبل السماسرة[١]. ويأمر المحتسب المماطلين في دفع ديونهم بدفعها[٢].

وشمل عمل المحتسب الحياة والمنشآت الدينية، فكان يحث الناس على اداء الصلوات الخمس في مواقيتها، وأداء الامانة، وقول الصدق. وهو يشرف على الجوامع والمساجد، فيأمر بكنسها يوميا وتنظيفها من الاوساخ، وينبّه الحكومة الى الخطر الذي يحصل للمساجد من التصدّع والانهيار بسبب عدم ترميمها[٣]. ويعمل المحتسب على تطبيق المراسم الدينية والاجتماعية، فيأمر اهل الذمة باتخاذ الازياء الخاصة بهم (لبس العمائم السود والطيالسة العسلية والزنانير)، وان يجعلوا في اعناقهم الصلبان، وأن يحمل اليهود في اعناقهم قرامي الخشب بزنة الصليب (خمسة أرطال)، وفي أرجلهم الحلق حتى يتميّزوا عن المسلمين، ومنعهم من ركوب الخيل والبغال والحمير، واذا ركبوا الحمير ركبوها بالاكف عرضا من جانب واحد، والا يركبوا شيئا من المراكب المحلاة، وان يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من خشب وسيور سود عاطلة من كل حلية، وعليهم الا يركبوا حمارا لمكار مسلم ولا سفينة توتيها مسلم، وان يكون في اعناق النصارى اذا دخلوا الحمّام الصلبان، وفي اعناق اليهود الجلاجل ليتميّزوا عن المسلمين، فاذا افردت الحمامات

---

(١) أبو يوسف، الخراج: ٥٧.

ناصر خسرو، سفرنامة: ١٠٣ ـ ١٠٧.

(٢) ابن خلدون، المقدمة: ٢٢٥.

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٧ و١٠/ ٤٦١.

المقريزي، الخطط: ١/ ٤٦٤.

لليهود والنصارى، وجب ان يكون فوق باب حمّامات النصارى الصلبان وفوق باب حمّامات اليهود صور القرمى[1]. كما كان المحتسب يمنع المجذوم والابرص من دخول الحمّام، وان يلزم الحمّامي بغسل الحمّام وكنسه وتنظيفه عدة مرات يوميا، وان يؤمن للناس مآزر يؤجرها لهم[2].

ويمنع المحتسب اهل الذمة، من حمل السلاح، والتقلّد بالسيوف، ومن رفع بنيانهم على بناء المسلمين، ويرغمهم على الا يتصدروا المجالس، ولا يزاحموا المسلمين في الطرقات، وكان يلزمهم اللجوء الى ضيق الطرقات، ويمنع تعلّم اولادهم في كتاتيب المسلمين، ويمنع أن يعلمهم مسلم، وأن يستخدموا أو يقتنوا عبدا مسلما او جارية مسلمة[3]. وهو المشرف على حرية اهل الذمة الدينية والمدنية وفق الامان المعطى لهم، ووفق امان جوهر الصقلي للمصريين، عندما التمسوا كتابا «يشمل امانهم في انفسهم واموالهم وجميع احوالهم» واجراء اهل الذمة على ما كانوا عليه[4].

وشدّد المحتسب على الخمارين، وطارد السكارى، وعاقب المخالفين بشدّة، وبلغت هذه الشدّة اقصاها في أيام الخليفة الحاكم بأمر اللّه، فأصدر القوانين التي تحظر بيع الزبيب واستيراده وبيع العنب، واتلف ما كان منهما موجودا، حتى أمر بقطع أشجار الكرمة وكسر جرار العسل[5].

ويفرض المحتسب على المخالفين نوعين من العقوبات: عينية، بالنهي أو الوعظ او الانذار او الردع والزجر والتعزير والتأديب بالسوط وغيرها...

---

(١) القرمى، جمعها قرامي، وهي مقطع من جذع شجرة.

(٢) ابن الاخوة، معالم القربة في احكام الحسبة: ٢٤٠ ـ ٢٤٤.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر: ١/٢٥١.

يحيى بن سعيد، تاريخ الذيل: ١٩٦.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/١٠٣ ـ ١٠٦.

(٥) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥/٢٩٣.

ونقدية، بفرض الغرامات التي يرتئيها، كما له ان يتلف البضائع الفاسدة، ويرمي الطعام الفاسد على المزابل خارج البلد، وان يريق اللبن المغشوش، وان يحرق الطعام المحتكر بالنار[١]، وان يكسر اواني الخمر، وان عثر على شارب للخمر جلده بالسوط ثمانين جلدة موزعة على كتفيه واليته[٢]. وكثيرا ما يفقد المحتسب رشده ويصيبه الشطط، فيعاقب الناس بشدة مّما يجعلهم يصيحون به بصوت عال: «معاوية خال علي بن ابي طالب». وحدث مثل هذا سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣م، عندما عزر المحتسب سليمان بن عزة جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا في وجهه بهذه العبارة السالفة الذكر[٣]. ولما عمل الحاكم بأمر اللّه الحسبة بنفسه، كان «يدور في الاسواق على حمار له، وكان لا يركب الا حمارا.

وكان يخلع على المحتسب جبة مثقلة ومنديلا مُذَّهباً، ويحمل بين يديه ثيابا كثيرة، ويقلّد سيفا[٤]، ويقرأ سجله بمصر (الفسطاط) وبالقاهرة. ويتقاضى راتبا شهريا قدره ثلاثين دينارا[٥].

خامسا ـ الشرطة:

أصبح يطلق على متولي الشرطة لقب «صاحب الشرطة» بعد أن كان «رئيس الشرطة»، ويعد صاحبها من كبار الموظفين الذين يتسلمون أحيانا الحجابة والوزارة[٦]. وقد يجمع «صاحب الشرطة» الى وظيفته الاساسية عمل الحسبة احيانا. وكانت سابقا تابعة للقضاء، فقد فصلت عنه لتختص بالنظر

---

(١) ابن الاخوة، معالم القربة في احكام الحسبة: ١٧٨ و ٢٧٧.

(٢) الماوردي، الاحكام السلطانية: ٦١ ـ ٧٢.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٦٧.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/٣١.

(٥) ابن خلدون، المقدمة: ٢٢٦.

المقريزي، الخطط: ١/٤٨٤.

(٦) ابن خلدون، المقدمة: ٢١٩.

في الجرائم[1]، ومع هذا، فقد بعي صاحبها في أيام الدولة الفاطمية، يساعد القضاء في اثبات التهم ونفيها وينفذ الاحكام القضائية الصادرة عن القاضي او المحتسب، واشاعة الامن والطمأنينة في البلاد، واقامة الحدود والتعازير على الجناة والمذنبين[2].

ومما يؤكد تبعية الشرطة للقضاء، ما قام به الوزير يعقوب بن كلس سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م، باسناد الشرطة السفلى الى القاضي علي بن سعيد الجلجول، فنظر فيها وفي القضاء[3]. واذا حصل النزاع بين صاحب الشرطة والقاضي في حال انفصالهما، يتدخل الخليفة او الوزير. فكان الوزير يقرّر غالبا بأن ليس لاحدهما ان يعترض على الآخر فيما حكم فيه، وفي سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م، منع مالك بن سعيد الفارقي (وكنيته أبو الحسن)، صاحب الشرطة من التكلّم في الاحكام الشرعية[4].

وحسما للنزاع الذي يقوم، يتدخل الخليفة الفاطمي، باضافة الحسبة الى صاحب الشرطة، فيستقل بذلك عن اختصاص القاضي[5]، من ذلك قيام الحاكم بأمر اللّه بجمع الشرطتين لقائد القوّاد الاستاذ غين، والحسبة بمصر (الفسطاط) والقاهرة والجيزة[6]، وأحياناً بمنع صاحب الشرطة عن التكلم في الاحكام الشرعية، وهو ما أمر به الحاكم بأمر اللّه سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م[7].

---

(١) حسن، حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسي، القاهرة ١٩٤٥: ١/ ٥٨١ ـ ٥٨٢.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة: ٤/ ١٨٨.

(٣) الكندي، الولاة والقضاة: ٤٢٠.

(٤) المصدر السابق: ٢٩١.

(٥) الكندي، الولاة والقضاة: ٦٠٤

القلقشندي، صبح الاعشى: ٣/ ٤٨٧ و١٠/ ٤٦١.

(٦) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٣٥.

(٧) الكندي، الولاة والقضاة: ٦٠٤.

ومن التغييرات، التي احدثها جوهر الصقلي بعد فتحه مصر، نقله الشرطة العليا من المعسكر الى القاهرة. وأقرّ على الشرطة السفلى في مدينة مصر (الفسطاط) صاحبها علي بن الحسن بن لؤلؤة لكن سرعان ما صرفه في شوال سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، وأسندها الى عروبة ابراهيم وشبل المعرضي[(١)].

ولما قدم المعز لدين اللّه الى القاهرة، قلّد الشرطتين ـ العليا والسفلى ـ والخراج الى يعقوب بن كلس، وعسلوج بن الحسن، وكتب لهما سجلا بذلك قرىء يوم الجمعة على منبر جامع احمد بن طولون[(٢)]. وبذلك جرت العادة على قراءة سجل صاحب الشرطة في الجامع طوال فترة حكم الفاطميين لمصر. وجمعت الشرطتان ـ السفلى والعليا ـ أيضا على أيام العزيز باللّه وأسند سنة ٣٧٤ هـ/ ٩٨٥م، الى جبر بن القاسم[(٣)]. وخلع على «خود الصقلبي» وقلد السيف وحمل، وقيد بين يديه فرس، وحملت اليه ثيابه، وقلد الشرطة السفلى. وخلع على «قيد» الخادم الاسود بشرطة القاهرة[(٤)]. وتكرر جمع الشرطتين ـ السفلى والعليا ـ ايضا على أيام الخليفة الحاكم بأمر اللّه سنة ٣٩٠ هـ/ ٩٩٩م، فاسندت الى مسعود الصقلبي، فنزل بالخلع والطبول والبنود الى الجامع العتيق حتى قرىء سجله على المنبر[(٥)]. وبذلك جمعت الشرطتان احيانا لرجل واحد.

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ١١٧.

(٢) ابن ميسر، تاريخ مصر: ٤٥ (طبعة القاهرة ١٩١٩م).

المقريزي، اتعاظ الحنفا: ١/ ٨٢ و٨٦ و١٠٧ ـ ١٠٨.

(٣) ابن منجب الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة: ٢٤.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٧.

(٥) المصدر السابق: ٢/ ٣٦.

سادسا ـ العقوبات والسجون:

كانت العقوبات في الدونة الفاطمية تصدر عن الخلفاء انفسهم او عن وزراء ارباب السيف، عندما يجلسون للمظالم، او عن القضاة او قضاة المظالم، وأحيانا تصدر عن المحتسب او صاحب الشرطة، وذلك بعد ان يرفع اي شخص وقع عليه او على ماله تعد، الدعوى امام المرجع الصالح للنظر في قضيته.

وبما ان القضاء الفاطمي كان قضاء دينيا ترتكز دعائمه على الكتاب والسنّة، فهو قضاء شرعي، ولكن على المذهب الشيعي الاسماعيلي، يحكم فيه القاضي، وفق تقديره الشرعي، بالعقوبات التي يراها مناسبة للجرائم المرتكبة. فجاءت هذه الاحكام: اما حدودا او تعازير. ويعرّف عطية مشرفة[1] جرائم الحدود بـ: «القتل، والجرح، والسرقة، وقطع الطريق، والزنا والقذف بالزنا، وشرب الخمر»، بينما عرّف أبو يوسف التعزير[2] بـ: «أنه تأديب على ذنوب لم تشرّع فيها الحدود». فيكون الفرق بين الحد والتعزير: ان الحد مقدّر شرعاً، والتعزير متروك امره ونوعه وتقديره للقاضي، وأحيانا للمحتسب، أو صاحب الشرطة، حيث يفرض التعزيز على من سبّ او ضرب غيره، او اكل محرّما او اساء الامانة او غشّ الناس او شهد بالزور او ارتشى او انقص الموازين والمكاييل... الخ،[3]. ويكون التعزير بـ «الحبس، والنفي، والصفع او الجلد، وتعريك الاذن، وحلق شعر الرأس، وبالعزل عن العمل اذا كان موظفا، والنفي، والاقامة الجبرية، وبالتشهير لشاهد الزور او الخارج على سلطان الدولة، الخ.

وحتى لا يشتط القضاة او المحتسب او صاحب الشرطة في احكامهم

---

(١) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، هامش٣/ ٢٦٣.

(٢) أبو يوسف، الخراج: ٢٠٥.

(٣) انظر عمل المحتسب في الصفحة ٢١٦ من هذا الكتاب.

وتعازيرهم، فقد اصدر ابو عبد اللّٰه محمد بن فاتك المأمون البطائحي وزير الآمر بأحكام اللّٰه أمرا وجهه الى جميع العمال (الولاة) ـ باستثناء ولاة صور وقوص وعسقلان ـ [١]، بعدم اعتقال الناس بدون ذنب بعدما نمي اليه ان بعض الولاة يعتقل من لا يجوز اعتقاله ولمدة طويلة، ساعين للوصول الى الرشوة[٢].

وليس أدل على أحكام التعزير بالنفي سوى، خروج امر الآمر بأحكام اللّٰه بنفي «بني عبد القوى»، (لخروجهم على سلطانه)، فنفوا الى الاندلس بأهاليهم[٣]. كما نصّت بعض هذه الاحكام على تحديد الاقامة احيانا، كصدور امر الحاكم بأمر اللّٰه الى قائد القوّاد حسين بن جوهر الصقلي، والقاضي عبد العزيز بن النعمان «بأن يلزما داريهما، ومنعا من الركوب وسائر أولادهما... وامتنع الداخل اليهم، على الحصر»[٤]. وكان المتهمون يعمدون الى الهرب خوفا من العقاب، كما حصل لناصر الدولة ابن حمدان لما دبّ الخلاف بينه وبين الاتراك الذين مالوا الى مناصرة الخليفة المستنصر باللّٰه ضده، فسارع ابن حمدان الى الخروج من القاهرة الى الجيزة... ثم الى البحيرة»[٥].

ومن أمثلة قطع الايدي، ما حدث لابي القاسم علي بن احمد الجرجرائي، كاتب الحاكم بأمر اللّٰه، وقائد القوّاد غين، ففي الثالث من جمادى الاولى سنة ٤٠٤ هـ/١٠١٣م، «قطعت يدا غين بعد قطع يد كاتبه الجرجرائي بخمسة عشر يوما، وكانت يد (الجرجرائي) الاخرى قد قطعت

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/١٠١.

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه: ٣/٥٦.

(٤) المصدر نفسه: ٣/٧٣.

(٥) المصدر نفسه: ٣/٢٧٨ ـ ٢٧٩.

قبل ذلك بثلاث سنين وشهر، فصار مقطوع اليدين. وفي الثالث عشر من جمادي المذكور أمر الحاكم بأمر اللّه بقطع لسان غين ايضا فقطع»[1].

ونفّذت عقوبات القتل بحق الكثير من رعايا الدولة الفاطمية، فالمعز لدين اللّه باشر أيامه في القاهرة بتعذيب الشيخ أبي بكر النابلسي، وتفصيل ذلك ان المعز قد احضر الشيخ الناسك ابا بكر النابلسي بين يديه، وقال له: بلغني عنك انك قلت: لو ان معي عشرة اسهم لرميت الروم بتسعة ورميت المصريين بسهم، فقال: ما قلت هذا، فظن انه رجع عن قوله، فقال: كيف قلت؟ قال: قلت ينبغي ان نرميكم بتسعة ثم نرميهم بالعاشر، قال ولم؟ قال: لانكم غيرتم دين الامة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الالهية، وادعيتم ما ليس لكم. فأمر باشهاره في اول يوم ثم ضرب في اليوم الثاني بالسياط ضربا شديدا مبرحا ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث[2].

وأصبحت عقوبة الحكم بالقتل في ايام الحاكم بأمر اللّه، هي العقوبة الرائجة، حتى انه قتل ركابيا له بحربة في يده على باب جامع عمرو بن العاص وشق بطنه بيده. وعمّ بالقتل بين وزير وكاتب، وقاض وطبيب وشاعر ونحوي ومغن ومختار وصاحب ستر وحمامي وطباخ وابن عم وصاحب حرب وصاحب خبر ويهودي ونصراني، كما قطع أيدي الجواري في القصر[3].

ولم يكتف باعطاء الامر بالقتل، بل اعتمدت انواع اخرى من التعذيب كانت تنفذ بحق من تطوله عقوبة الموت، كأن يسلخ جلده، وهو حي، ويحشى جلده بالتبن، ويصلب[4]، او اشهاره وهو ما اتبعه الحاكم بأمر اللّه

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ١٠٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ١١/ ٢٨٤.

متز، الحضارة الاسلامية: ٢/ ١٩٤.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ٢٥ ـ ٢٦ و٤٢ و٤٦ و١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) المقريزي، الخطط: ٢/ ٤١٤. متز، الحضارة الاسلامية: ٢/ ١٩٤.

مع أبي ركوة، فأركب جملاً وسنامين وألبس طرطورا، وجعل خلفه قرد يصفعه، معلما بذلك، والعساكر حوله... وأمر به ان يخرج الى ظاهر القاهرة وتضرب عنقه... فلما حمل الى هناك أنزل فاذا به ميت»[1].

حكى عن الخليفة الحاكم بأمر اللّه، انه لما عنّ له اظهار الزهد، فرّق بعض حظاياه وأمهات اولاده وذلك بأن وضعهن في صناديق سمرت عليهن وثقلت بالحجارة وألقيت في النيل[2].

وكانت السجون في ايام الدولة الفاطمية، معدّة لاعتقال الناس المحكوم عليهم للتنكيل بهم وتعذيبهم مدة معينة من الزمن، او مؤبدة لتنفيذ عقوبة الاعدام فيهم. ويحدثنا المقريزي عن هذه السجون قائلا: «وأما الحبس الآن فانه لا يجوز عند احد من المسلمين، وذلك انه يجمع الكثير في موضع يضيق عنهم، غير متمكنين من الوضوء والصلاة» يؤذيهم الحر في الصيف والبرد في الشتاء... يخرجون مع الاعوان مكبلين بالحديد ... وهم يصرخون في الطرقات من الجوع... وجميع ما يجمع لهم من صدقات الناس، يأخذه السجان وأعوان الوالي... وبالغوا في عقوبته، وهم مع ذلك يستعملون في الحفر وفي العمائر ونحو ذلك من الاعمال الشاقة، والاعوان تستحثهم، فاذا انقضى عليهم عملهم ردّوا الى السجن في حديدهم من غير ان يطعموا شيئا[3].

---

(١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ: ٩/ ١٤٤.

أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

بينما ينقل متز عن يحيى بن سعيد بدلا من هذه القصة: ان ابا ركوة احضر الى مصر اسيرا، فأشهر بها، ثم قتل في موضع يعرف بمسجد تبر وصلب فيه، وأحرق بالنار...

متز، الحضارة الاسلامية: ٢/ ١٨٩.

(٢) المقريزي، الخطط: ١/ ٤٢٦.

متز، الحضارة الاسلامية: ٢/ ١٩٥.

(٣) المقريزي، الخطط: ٢/ ١٨٧.

والسجون على العموم «كلها شنيع المنظر والمخبر، وكلها موحش قذر وضيق، يشم المار بقربه رائحة كريهة، ويسمع صراخ المساجين وشكواهم الجوع والعري والقمل وشدة الظلام وكثرة الوطاويط، اي ان الداخل اليها مفقود والخارج منها مولود»[١].

ويعتبر «حبس المعونة» وكان موضعه ايام المقريزي مجموعة الدكاكين التابعة لوكالة يعقوب بك بالتربيعة، اقدم السجون الفاطمية بمصر (الفسطاط)، اتخذه يانس الصقلي احد ولاة الشرطة سجنا سنة ٣٧١ هـ/ ٩٨١م، بعدما كان في السابق دارا للشرطة ونقلت منه، فجعل سجنا لارباب الجرائم من اللصوص وقطّاع الطرق[٢]. وأنشأ المتستنصر باللّه سجنا، لارباب الجرائم السياسية من الوزراء والامراء والاعيان، بخزانة البنود حريقها فأصبحت تعرف بعد ذلك بخزانة الرؤوس[٣]، لكثرة ما قطع فيها من رؤوس او ما نقل اليها من رؤوس لتحفظ بها، وموضعها الآن مكان الدور الواقعة بين عطفة القزازين ودرب علم الدين بقسم الجمالية[٤].

وكانت خزانة البنود سجنا للسياسيين حشر فيه الكثير من الناس لاسباب سياسية، وقد شاءت الصدف «ان يلقي الوزير ابو منصور الفلاحي القبض على أبي علي الحسن بن علي الانباري وزير الحاكم بأمر اللّه، فاعتقله في خزانة البنود ثم امر بقطع رأسه ودفنت الرأس فيها سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م[٥]. وبعد مدة ألقى الخليفة المستنصر باللّه القبض على أبي منصور الفلاحي نفسه واعتقله في خزانة البنود ثم امر بقطع رأسه سنة ٤٤٠هـ/

---

(١) المقريزي، الخطط: ٢/ ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢ ـ ١٨٧ ـ ١٨٨

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها

(٤) مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين: ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٥) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٢/ ١٩٤.

١٠٤٨م، ودفنها فيها ايضا فوق رفات الوزير الانباري[١]، وقتل كذلك بخزانة البنود، أبو الحسن علي بن محمد التهامي الشاعر، بعد اعتقاله فيها سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م[٢]. ونقلت رأس الوزير العادل ابن السلار على ايام الظافر بأمر اللّه من بيت المال الى خزانة الرؤوس (البنود) وجعلت فيها مع الرؤوس[٣].

ولم يعامل الفاطميون اسرى الحرب كما يعاملون اليوم، فاذا ما عاد الجند من حرب ومعهم الاسرى، كانوا يطوفون بهم القاهرة، ثم ينزلونهم في مكان، يسمونه المناخ (في منطقة الاسماعيلية اليوم) فيقتلون الشيوخ ومن استرابوا به، فتلقى جثثهم في بئر بخرائب مصر (الفسطاط) تعرف ببئر المنامة، اما النساء فتوزع على قصر الخليفة للخدمة في المنازل، ويعطى قسم منهن الى الوزير. ويساق الاطفال الى الاستاذين لتربيتهم للكتابة والفروسية، فيرتقي بعضهم الى رتب الامراء[٤].

---

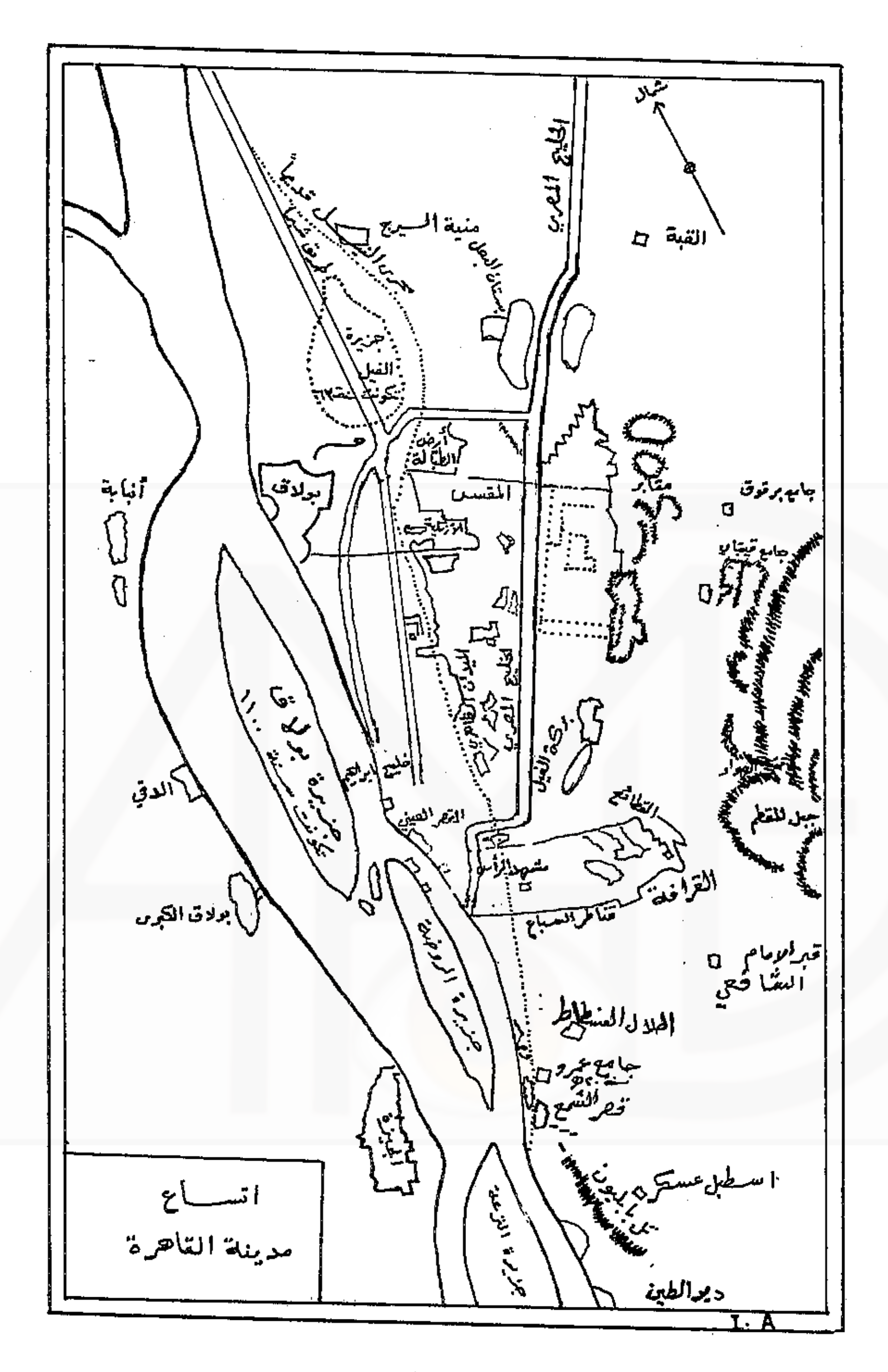
(١) ابن منجب الصيرفي، الاشارة من نال الوزارة: ٣٧.

(٢) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٣/ ٣٨١.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا: ٣/ ٢٠٥.

(٤) المقريزي، الخطط: ٢/ ١٩٣.

زيدان، التمدن الاسلامي: ٥/ ٣١



اتساع مينة القاهرة

جدول بأسماء الخلفاء الفاطميين

١) عبيد الله المهدى (٢٩٨هـ/٩١١م ــ ٣٢٢هـ/٩٣٤م).

↓

٢) القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (٣٢٢هـ/٩٣٤م ــ ٣٣٤هـ/٩٤٥م).

↓

٣) المنصور بنصر الله أبو الظاهر اسماعيل (٣٣٤هـ/٩٤٥م ــ ٣٤١ هـ/٩٥٢م).

↓

٤) المعز الدين الله أبو تميمي معد (٣٤١ هـ/٩٥٢م ــ ٣٦٥هـ/٩٧٥م).

↓

٥) العزيز بالله أبو منصور نزار (٣٦٥هـ/٩٧٥م ــ ٣٨٦ هـ/٩٩٦م).

↓

٦) الحاكم بأمر الله أبو علي منصور (٣٨٦هـ/٩٩٦م ــ ٤١١هـ/١٠٢٠م)

↓

٧) الظاهر لأعزاز دين الله أبو الحسن علي (٤١١ هـ/١٠٢٠م ــ ٤٢٧ هـ/١٠٣٥م)

↓

٨) المستنصر بالله أبو تميم معد (٤٢٧ هـ/١٠٣٥م ــ ٤٨٧هـ/١٠٩٤م).

↓ ↓

٩) المستعلي بالله أبو القاسم أحمد (٤٨٧هـ/١٠٩٤م ــ ٤٩٥هـ/١١٠١م)

↓ ↓

أبو القاسم محمد

١٠) الآمر بأحكام الله أبو علي منصور (٤٩٥هـ/١١٠١م ـ ٥٢٤هـ/١١٣٠م)

↓

١١) الحافظ الدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأميرابي القاسم محمد.

ابن المستنصر بالله(*) (٥٢٤هـ/١١٣٠م ـ ٥٤٤ هـ/١١٤٩م)

↓

١٢) الظافر بامر الله أبو منصور اسماعيل (٥٤٤ هـ/١١٤٩م ـ ٥٤٩هـ/١١٥٤م)

↓ ↓

١٣) الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى (٥٤٩هـ/١١٥٤م ـ ٥٥٥هـ/١١٦٠م)

يوسف

↓

١٤) العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله(*)بن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله

(٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م-٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م)

*) من بين الخلفاء الفاطميين جميعا لم يلي الخلافة من لم يكن أبوه خليفة غير الخليفتين الحافظ عبد المجيد والعاضد عبد الله.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

١ ـ ابن الاثير، علي بن احمد بن ابي الكرم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير: **الكامل في التاريخ** (منشورات دار الكتاب العربي) بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، الطبعة الثانية، ٩ أجزاء.

٢ ـ ابن الاخوة، محمد بن محمد بن احمد القرشي: **معالم القربة في احكام الحسبة**، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق احمد عيسى المطيعي (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٧٦م.

٣ ـ ابن اياس، أبو البركات محمد بن احمد: **كتاب تاريخ مصر المعروف بـ «بدائع الزهور في وقائع الدهور»**، طبعة بولاق ١٣١١ ـ ١٣١٢ هـ؛ ٣ أجزاء.

٤ ـ ابن بطوطة، محمد بن عبد اللّه اللواتي: رحلة ابن بطوطة المسماة **«تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار»**، تحقيق علي المنتظر الكتاني، (مؤسسة الرسالة)، بيروت ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥م، جزءان.

٥ ـ ابن جبير، أبو الحسن محمد أحمد الكتاني الاندلسي: **رحلة ابن جبير**، (منشورات دار صادر ـ دار بيروت) ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٦ ـ ابن حوقل، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي: **المسالك والممالك والمفاوز والمهالك**، بيروت ١٩٥٧م.

٧ ـ ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد اللّه بن عبد اللّه: **كتاب المسالك والممالك**، (نشره دي غوييه: ، طبعة ليدن ١٣٣٦هـ/ ١٨٨٩م.

٨ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: **المقدمة** (منشورات دار الكتاب العربي)، بيروت (لا.ت)، الطبعة الخامسة.

٩ ـ ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب**

والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، (منشورات مؤسسة الاعلمي)، بيروت ١٩٧١م.

١٠ ـ ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبي بكر الشافعي: **وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان**، تحقيق احسان عباس، ٧ أجزاء.

١١ ـ ابن سعيد، علي بن موسى المغربي: **المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق**، القسم الثاني من الجزء الخاص بمصر، تحقيق حسين نصّار بعنوان: **النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة**، مركز تحقيق التراث، (مطبعة دار الكتب)، القاهرة ١٩٧٠م.

١٢ ـ ابن ظهيرة: **الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة**، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، (منشورات دار الكتب)، القاهرة ١٩٦٩م.

١٣ ـ ابن عبد الحكم، ابو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري: **فتوح مصر وأخبارها**، نشره هنري ماسيه (منشورات المعهد العلمي الفرنسي بمصر)، القاهرة ١٩١٤م، جزءان.

١٤ ـ ابن العماد الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع)، بيروت (لا. ت)، ٤ مجلدات...

١٥ ـ ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة: تاريخ ابن القلانسي المسمى **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق أمسد روز (مطبعة الاباء اليسوعيين)، بيروت ١٩٠٨م.

١٦ ـ ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي: **البداية والنهاية**، (منشورات مكتبة المعارف، بيروت ومكتبة النصر بالرياض)، ١٩٦٦م، الطبعة الاولى، ١٤ جزءا.

١٧ ـ ابن مماتي، شرف الدين أبو المكارم بن أبو الاسعد: **قوانين الدواوين**، مطبعة الوطن، مصر ١٢٩٩هـ، نشر عزيز سوريال، القاهرة ١٩٤٣م.

١٨ ـ ابن منجب الصيرفي، علي ابو القاسم: **الاشارة الى من نال الوزارة**، (المعهد العلمي الفرنسي)، القاهرة ١٩٢٤م.

١٩ ـ ابن ميسّر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب: **تاريخ أخبار مصر**، نشره هنري ماسيه (المعهد العلمي الفرنسي بمصر) القاهرة ١٩١٩م، ٣ اجزاء.

٢٠ ـ أبو الفداء، اسماعيل بن علي عمدا الدين صاحب حماه: **المختصر في أخبار البشر**، (الحسينية بمصر)، الطبعة الاولى، ٤ أجزاء.

٢١ ـ أبو المحاسن، جمال الدين بن يوسف بن ثغري بردى: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٢٩م، ١٦ جزءا.

٢٢ ـ أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم الانصاري: **كتاب الخراج**، طبعة بولاق ١٣٠٢هـ.

٢٣ ـ الانطاكي، يحيى بن سعيد: **صلة كتاب أوتيخا المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»**، بيروت ١٩٠٩م، جزءان.

٢٤ ـ البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر: **الفرق بين الفرق، وبين الفرقة الناجية منهم**، (منشورات دار الافاق الجديدة)، بيروت ١٩٨٠م، الطبعة الرابعة.

٢٥ ـ السيوطي، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن: **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (دار احياء الكتب العربية)، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ـ ١٩٦٨م، الطبعة الاولى، جزءان.

٢٦ ـ الطبري، ابي جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الامم والملوك**، نسخة مصورة عن الطبعة الاولى، المطبعة الحسينية بمصر (منشورات مكتبة خياط)، بيروت.

٢٧ ـ القرطبي، عريب بن سعد: **صلة تاريخ الطبري**، نسخة مصورة عن الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية بمصر (منشورات مكتبة خياط)، بيروت (لا. ت).

٢٨ ـ القلقشندي، أبو العباس أحمد: **صبح الاعشى في صناعة الانشا**، (منشورات دار الكتب المصرية)، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٧م. ١٤ جزءا.

٢٩ ـ الكندي: **فضائل مصر**، تحقيق ابراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمر، الطبعة الاولى ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٣٠ ـ الكليني، محمد بن يعقوب: **كتاب الوافي**، طبعة فارس ١٢٨١هـ، ٣ أجزاء: الاول في الاصول والثاني والثالث في الفروع.

٣١ ـ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري: **الاحكام السلطانية**، القاهرة ١٩٠٩م.

٣٢ ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق يوسف أسعد داغر، (منشورات دار الاندلس) ٤ أجزاء، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٣م.

٣٣ ـ المقدسي، شمس الدين أبو عبد اللّه محمد الشافعي المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم**، طبعة ليدن ١٩٠٦م.

٣٤ ـ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي: **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، نسخة مصورة عن طبعة بولاق ١٣٧٠هـ ، (منشورات دار صادر ـ دار بيروت)، (لا. ت)، جزءان.

٣٥ ـ المقريزي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا**، ٣ أجزاء.

الجزء الاول تحقيق جمال الدين الشيّال، القاهرة ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧م، الجزء الثاني والثالث، تحقيق محمد حلمي احمد، القاهرة ١٣٩٠ ـ ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧١ ـ ١٩٧٣م.

٣٦ ـ المقريزي: **اغاثة الامة في كشف الغمة**، (نشر مؤسسة ناصر للثقافة)، بيروت ١٩٨٠م.

٣٧ ـ ناصر خسرو: **سفرنامة**، نقلها الى العربية يحيى الخشاب، (منشورات دار الكتاب العربي الجديد)، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٠م.

٣٨ ـ ياقوت، شهاب الدين ابو عبد اللّٰه ياقوت بن عبد اللّٰه الحمدي الرومي البغدادي: **معجم البلدان**، (منشورات دار صادر ـ دار بيروت)، (لا.ت)، ٥ مجلدات.

ثانيا: المراجع العربية والمعرّبة:

١ ـ أمين، أحمد: **ضحى الاسلام**، (منشورات دار الكتاب العربي)، الطبعة الرابعة، ٣ أجزاء (لا.ت) بيروت.

٢ ـ أمين، أحمد: **ظهر الاسلام**، القاهرة ١٩٤٥م، جزءان.

٣ ـ أيوب، ابراهيم رزق اللّٰه: **التاريخ العباسي السياسي والحضاري**، الشركة العالمية للكتاب ومكتبة المدرسة، بيروت ١٩٨٩م.

٤ ـ البداوي، راشد: **حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين**، القاهرة ١٩٤٨م.

٥ ـ البريد، مصلحة: **تاريخ البريد في مصر**، وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمي العاشر، القاهرة ١٩٣٤م.

٦ ـ حسن، حسن ابراهيم: **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب** (منشورات مكتبة النهضة المصرية)، ١٩٣٤م، الطبعة الثالثة.

٧ ـ حسن، حسن ابراهيم: **تاريخ الاسلام السياسي**، القاهرة ١٩٤٦م، ٣ أجزاء.

٨ ـ حسن، زكي محمد حسن: **كنوز الفاطميين**، القاهرة ١٩٣٧م.

٩ ـ حسين، محمد كامل: **في أدب مصر الفاطمية** (منشورات دار الفكر العربي)، القاهرة ١٩٧٠م.

١٠ ـ حمادة، محمد ماهر: **الوثائق السياسية والادارية للعهود الفاطمية والاتابكية والايوبية، دراسة ونصوص** (نشر مؤسسة الرسالة)، الطبعة الاولى، بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١١ ـ زكي، عبد الرحمن: **القاهرة تاريخها وآثارها، القاهرة ١٩٦٦م.**

١٢ ـ زيدان، جرجي: **تاريخ التمدن الاسلامي**، ٥ أجزاء في مجلدين (لا.ت).

١٣ ـ سعد، أحمد: **تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي** (مصر الفرعونية الهيلينية ـ الامبراطورية الاسلامية الفاطمية من المغرب الى مصر، عهد المماليك)، (منشورات دار ابن خلدون)، الطبعة الاولى ١٩٧٩م.

١٤ ـ الشيّال، جمال الدين: **مجموعة الوثائق الفاطمية**، (منشورات دار المعارف)، القاهرة ١٩٦٥م.

١٥ ـ طومسون، الأمير عمر: **مالية مصر من عهد الفراعنة الى الآن**، الاسكندرية ١٩٣١م.

١٦ ـ فييت، غاستون: **القاهرة مدينة الفن والتجارة**، ترجمة مصطفى العبادي (نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر)، بيروت ـ نيويورك، مكتبة لبنان ١٩٦٨م.

١٧ ـ الكرملي، الاب انستاس ماري: **النقود العربية وعلم النميات**،

القاهرة ١٩٣٩م. و١٩٥٤ جزءان.

١٨ ـ ماجد، عبد المنعم: **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر**، القاهرة ١٩٥٢م.

١٩ ـ ماجد، عبد المنعم: **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر (التاريخ السياسي)**، منشورات دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٨م.

٢٠ ـ مبارك، علي باشا: **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر ـ القاهرة، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة، (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ٢٠ جزءا، ١٩٦٩م.

٢١ ـ متز، آدم: **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري**، نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو رَيد، جزءان، بيروت ١٩٦٧م.

٢٢ ـ مشرفة، عطية مصطفى: **نظام الحكم بمصر في عصر الفاطميين** (منشورات دار الفكر العربي بمصر)، الطبعة الثانية (لا.ت).

كتب دينية

ـ القرآن الكريم.

ثالثا: المراجع الاجنبية:

أ ـ الفرنسية:

1 - Artin, Yacoub: La propriété foncière en Egypte. Le Caire.

2 - Canard, Harius: Art fatimide 1, 2t IIP: 870(A) - 882(B)

3 - La voix.H: Catalogue de monnaies musulmanes. P.P: 517-531.

4 - Lammens.P.H: L'Islame Croyence et institutions. Beyrouth 1936.

ب ـ الانكليزية :

5 - Lane - pool. Stanly: A history of Egypt in the middle ages, London 1901.

- Lane - pool. Stanly: The story of, Caire, London 1924.

- O'Leary, Delaey: A'short history of the Fatimide khalifate. London 1923.

فهرس

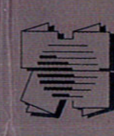
الأعلام والاماكن والبلدان والمدن

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان والمدن

ابراهيم أيوب

التاريخ الفاطمي السياسي



ISBN 1-55206-055-1

9 781552 060550